الكتاب: جامع السعادات
المؤلف: محمد مهدي النراقي
الجزء: ١
الوفاة: ١٢٠٩
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق: تحقيق وتعليق : السيد محمد كلانتر / تقديم : الشيخ محمد رضا المظفر
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة: مطبعة النعمان – النجف الأشرف
الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر
ردمك:
ملاحظات:

جامع السعادات
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى
محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ ه
الجزء الأول
حقه وعلق عليه
العلامة السيد محمد كلانتر
عميد جامعة النجف الدينية
قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه
منشورات

مطبعة النعمان – النجف الأشرف تلفون ٩٩٧

كلمة دار النعمان
بسم الله الرحمن الرحيم
" الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن
هدانا الله ".
كانت دار النعمان وما تزال بين آونة وأخرى، تقدم لقرائها
الكرام وللمكتبة الإسلامية: كتبا قيمة ومفيدة، بأثمان زهيدة،
وهي ترمي من وراء ذلك إلى غرضين مهمين:
أحدهما: إخراج تراثنا الإسلامي القديم إخراجا فنيا،
يرتضيه الذوق الحديث ويأنس به، ليستطيع القراء من الاستفادة
منه ويقبلوا على مطالعته.
وثانيهما: جعل الكتاب الإسلامي في متناول الجميع،
بحيث يصبح في حوزة أكبر عدد ضخم من القراء الكرام، ويحصل
عليه الغني والفقير على حد سواء.
وإننا لنرجوا في هذه المرة بإخراجنا أجل كتاب من كتب
الأخلاق - جامع السعادات - أن نكون قد وفقنا لما نصبوا إليه
من نشر الثقافة الدينية الصحيحة، خدمة للعقيدة، وطلبا لرضى
الخالق، والله من وراء القصد.
حسن محمد إبراهيم الكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف

١١٢٨ - ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة. ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين.

وهو عصامي لا يعرف عن والده أبي ذر) إلا أنه كان موظفا في الدولة الإيرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق)، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيان التأريخ كملا بين البشر من أمثاله، ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي أخوة، ولكن له ولد نابه الذكر، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه، وصاحب التأليفات الثمينة، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر. وكفاه فخرا أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١.

ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته، لما وطئ عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف. كما حذا حذوة في تأليفاته. فإن الأب المكرم ألف في الفقه (معتمد الشيعة)، والابن الجليل ألف مستندها. وذلك ألف في الأخلاق (جامع السعادات) - هذا الكتاب الذي نقدمه - وهذا ألف (معراج السعادة) في الفارسية. وذاك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخزائن)... وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج.

ج: ١

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له - رحمه الله تعالى - في (نراق) كعراق (١)، وهي قرية من قرى كاشان بإيران، تبعد عنها عشرة فراسخ. وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر. ولم يذكر التأريخ سنة ولادته، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التأريخية، فإنه تلمذ - في أول نشأته على ما يظهر - على الشيخ المحقق الحكيم المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، مع العلم أن أستاذه هذا توفي عام ١١٧٣، فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير، إذا فرضنا أنه لازمه إلى حين وفاته. ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاما، وعليه فتكون ولادته عام ١٢٢٨ أو قبل ذلك.

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف، ودفن فيها، فيكون قد بقي بعد وفاة أستاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة، ويكون عمره ٨١ عاما على الأقل.

وفي (رياض الجنة) المخطوط، تأليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له - حسب نقل الأستاذ حسن النراقي -: إن عمره كان ٦٣ سنة، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ ه‍. وهذا لا يتفق أبدا مع ما هو معروف في تأريخه: إنه تلمذ على المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة أستاذه ٢٧ سنة فقط.

نشأته العلمية وأساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم: خامل الذكر، فقير الحال، منزويا في مدرسته، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر، ولا يتصل به إلا أقرانه في دروسه، الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب، يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاب العلم، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس.

---

(١) وفي أعيان الشيعة - ج ١٠ ص ٢٥٠ -: إنها بفتح النون.

وبطبيعة الحال لا يسجل له التأريخ شيئا في هذه النشأة، وكذلك كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع إليه الطلاب في تدريس، أو الناس في تقليد، أو تكون له مؤلفات تشتهر. ومن هنا تبتدئ معرفة حياة الرجل العالم، وتظهر آثاره ويلمع اسمه.

ومع ذلك، فإنا نعرف عن شيخنا: إن أسبق أساتذته وأكثرهم حضورا عنده هو المولى إسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر.

وهذا الأستاذ كان مقره في

أصفهان، وفيها توفي ودفن، والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في الكارثة التأريخية المفجعة التي أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التأريخ عن مثلها، وذلك سنة ١١٣٤. فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلمية في مبدأ تحصيله في أصفهان على هذا الشيخ الجليل. والظاهر أنه عليه قرأ الفلسفة، لأن هذا الشيخ من أساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر إلى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار. وكفى أن من تلاميذه المولى محراب، الآلهي المعروف، الذي طورد لقوله بوحدة الوجود، ولما جاء إلى إحدى العتبات المقدسة متخفيا. وجد في الحرم شيخا ناسكا يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب، ولما سأله عن السبب في لعنهما قال: لأنهما يقولان بوحدة واجب الوجود)، فقال له ساخرا: إنهما حقا يستحقان منك اللعن!

ودرس أيضا شيخنا المترجم له - والظاهر أن ذلك في أصفهان أيضا - على العالمين الكبيرين: الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان، والشيخ محمد مهدي الهرندي. وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر.

ولا شك أنه انتقل إلى كربلا والنجف، فدرس على الأعلام الثلاثة:

الوحيد البهبهاني الآتي ذكره - وهو آخر أساتذته وأعظمهم، وتخريجه كان على يديه - والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣.

فجملة أساتذته سبعة، سماهم ولده في بعض إجازاته على ما نقل عنه ب (الكواكب السبعة). وهم خيرة علماء ذلك العصر، وعلى رأسهم الآقا الوحيد أستاذ الأساتذة.

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا، رجع إلى بلاده واستقام في كاشان. وهناك أسس له مركزا علميا تشد إليه الرحال، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء. واستمرت بعده على ذلك مركزا من مراكز العلم في إيران، وليس لدينا ما يشير إلى تأريخ انتقاله إلى كاشان.
ورجع إلى العراق، وتوفى في النجف الأشرف ودفن فيها. والظاهر أن مجيئه هذا - وكان معه ولده - بعد أستاذه الوحيد، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفي. أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ، كبحر العلوم، وكاشف الغطاء.

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق، بل على أكثر المدن الشيعية في إيران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية - كأصفهان وشيراز وخراسان - وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني: الأولى: النزعة الصوفية التي جرت إلى مغالاة فرقة الكشفية. والثانية: النزعة الإخبارية.
وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي، وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها، حتى أن الطالب الديني في مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالي، فلا يحمل مؤلفات العلماء الأصوليين إلا بمنديل، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف. وكربلا يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية.
وفي الحقيقة أن هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة إلى حد بعيد، حتى أنه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠. لم تجد واحدا من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الأولى، أو تكون له الرئاسة العامة، إلا من ظهر في أواخر القرن، كالشيخ الفتوني الجليل في النجف المتوفى ١١٨٣، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلا المتوفى ١٨٠٢، الذي تم على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق.

وهذا الفتور العلمي، وطغيان نزعة التصوف من جهة، ونزعة الإخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص، مما يدعو إلى التفكير والعجب. وليس بأيدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك. وأغلب الظن أن أهم الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت إليهما البلاد الإسلامية في ذلك القرن، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد، والحروب الطاحنة بين الأمراء والدول، لا سيما بين الحكومتين الإيرانية والعثمانية وبين الإيرانية والأفغانية، تلك الحروب التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية. وهذا كله مما يسبب البلبلة في الأفكار والاتجاهات، وضعف الروح العامة المعنوية.

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية. ويدعو ذلك عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة، واليأس من الإصلاح. فتنشأ هنا نزعة التصوف، وتتخذ يومئذ صرحا علميا على أنقاض الفلسفة الإشراقية الإسلامية المطاردة المكبوتة، التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ وأضرابه وأتباعه، مع المغالاة في أفكارها. وساند طريقة التصوف مبدئيا أن السلطة الزمنية في إيران - وهي (سلطة الصفويين) - قامت على أساس الدعوة إلى التصوف، وظلت تؤيدها وتمدها سرا.

ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو، فينكر على الناس أن يركنوا إلى العقل وتفكيره، ويلتجأ إلى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شئ، والجمود على ظواهرها. ثم يدعو الغلو بهؤلاء إلى ادعاء أن كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف. ثم يشتد بهم الغلو، فيقولون بعدم الأخذ بظواهر القرآن وحده، من دون الرجوع إلى الأخبار الواردة. ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند إلى الأخبار، والعقل أبدا لا يجوز الركون إليه في كل شئ، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد. وهكذا تنشأ فكرة الإخبارية الحديثة إلى أول من دعا إليها أو غالى في الدعوة إليها المولى أمين الدين الاستربادي المتوفى ١٠٣٣. ثم يظهر

آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره. وهذا الثاني – وإن كان أكثر اعتدالا من الأول وأضرابه – كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا إلى اعتناق فكرة الإخبارية هذه.

وعندما وصلت هذه الفكرة الإخبارية إلى أوجها، ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني، الذي قيل عنه بحق: مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة. فإن هذا العالم الجليل كان لبقا مفوها ومجاهدا خبيرا، فقد شن على الأخبارية هجوما عنيفا بمؤلفاته، وبمحاججاته الشفوية الحادة مع علمائها – وقد نقل في بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها – وبدروسه القيمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الأصول الحديث، وخروجه عن جموده الذي ألفه عدة قرون، واتجه التفكير العلمي إلى ناحية جديدة غير مألوفة.

فانكمشت في عصره النزعة الإخبارية على نفسها، ولم تستطع أن تثبت أمام قوة حجته. وتخرج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الأمة، كبحر العلوم، وكاشف الغطاء، والمحقق القمي، والشيخ النراقي – المترجم له – وأشباههم.

فيبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الإخبارية والأصولية، وساحتها كربلا، وفي عنفوان معركة الدعوة إلى التصوف، وساحتها أصفهان على الأكثر، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه، وساعده على ذلك أنه – رحمه الله – كان متفننا في دراسة العلوم، ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدماتهما، فقد شارك العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة، وله مؤلفات فيها سيأتي ذكرها. كما درس الفلسفة، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات)، لا سيما في الباب الأول، وفي تقسيمه لأبواب الكتاب وفصوله على أساس علمي متقن برز فيه على كتب الأخلاق السابقة عليه من هذه الناحية. وسيأتي بيان ذلك.

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين:

(الأول) طغيان التصوف من جهة، وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة

من جهة أخرى، وإنهما هما اللذان ألجآه إلى أن يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية، فإنه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادئ الفلسفة الإشراقية، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف، وجعل آراءه ودعوته إلى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت – عليهم السلام –، فهو في وقت واحد هادم وبان، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (إحياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفية، وهي غايته المثلى.

و (الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة، فإنه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية – بعد خريت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ – إلى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا.

شخصية المترجم له وأخلاقه

إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفوا ومصادفة، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم،، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس. وما كلمة الحظ في الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة. وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها، بل على الأكثر هي كذلك، فيندفع العبقري إلى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعا لا شعوريا، وإن كانت أعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره.

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم، ثم عزة نفسه، وإن كانت هذه ألفاظا عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع، إلا أن الدرجة الخاصة من الصبر والإرادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه الألفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الأمور في ثلاث حوادث منقولة عنه:

(الأولى) – فيما ينقل أنه كان في أيام التحصيل في غاية الفقر والفاقة – والفقر دائما شيعة العلماء، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي. فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن أن يكون من زيت أو شمع، فيدعوه حرصه على العلم إلى الدخول في بيوت مراحيض المدرسة، ليطالع على سراجها، ولكنه تأبى عزته أن يدع غيره يشعر بما هو فيه، فيوهم الداخلين – بالتنحنح – أنه جالس للحاجة الخاصة. وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الأفذاذ.

(الحادثة الثانية) – إن أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي، إن هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب أنه رث الثياب، وكان معجبا به، إذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب، فرأى أن يكسيه تقربا إلى الله، فهيأ له ملبوسا يليق بشأنه، وقدمه له عندما اجتاز عليه، فقبله بإلحاح. ولكن هذا الطالب الأبي في اليوم الثاني رجع إلى رفيقه الكاسب وأرجع له هذا الملبوس قائلا: إني لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أطيقها، لا سيما حينما أجتاز عليك، فلم أجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم، وألقاه عليه ومضى معتزا بكرامته،

(الحادثة الثالثة) – فيما ينقل عنه أيضا – وهي أهم من الأولى والثانية – إنه كان لا يفض الكتب الواردة إليه، بل يطرحها تحت فراشه مختومة، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم. والصبر على هذا الأمر يتطلب قوة إرادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر. ويتفق أن يقتل والده (أبو ذر) المقيم في نراق وطنه الأصلي، وهو يومئذ في أصفهان، يحضر على أستاذه الجليل المولى إسماعيل الخاجوئي، فكتبوا إليه من هناك بالنبأ ليحضر إلى نراق، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون أخرى، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب، ولم يعلم بكل ما جرى. ولما طالت المدة على من في نراق، كتبوا له مرة أخرى، ولكن لم يجبهم أيضا. ولما أيئسوا منه كتبوا بالواقعة إلى أستاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيئ. والأستاذ في دوره –

على عادة الناس - خشي أن يفاجئه بالنبأ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له - تمهيدا لإخباره - الحزن والكآبة، ثم ذكر له: أن والده مجروح، ورجح له الذهاب إلى بلاده. ولكن هذا الولد الصلب القوي الشكيمة لم تلن قناته، ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية، طالبا من أستاذه أن يعفيه من الذهاب.
وعندئذ اضطر الأستاذ إلى أن يصرح له بالواقع، ولكن الولد أيضا لم يعبأ بالأمر، وأصر على البقاء لتحصيل العلم. إلا أن الأستاذ هذه المرة لم يجد بدا من أن يفرض عليه السفر، فسافر امتثالا لأمره المطاع، ولم يمكث في نراق أكثر من ثلاثة أيام، على بعد الشقة وزيادة المشقة، ثم رجع إلى دار هجرته.
وهذه الحادثة لها مغزاها العميق في فهم نفسية هذا العالم الآلهي، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم.
مؤلفاته
لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة، تدل على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبع، وعلى علم غزير. ونحن نعد منها ما وصل بحثنا إليه، وأكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة:
(في الفقه):
١ - (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام): وهو كتاب استدلالي مبسوط، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلدين يقرب من (٣٠) ألف بيت.
٢ - (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة): هو أتم استدلالا وأخصر تعبيرا من كتاب اللوامع السالف الذكر، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء. قال في الروضات عن الكتابين: " ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيرا ".
٣ - التحفة الرضوية في المسائل الدينية): في الطهارة والصلاة فارسي، يقرب من (١٠) آلاف بيت.
٤ - (أنيس التجار): في المعاملات، فارسي، يقرب من (٨) آلاف بيت.
٥ - (أنيس الحجاج): في مسائل الحج والزيارات، فارسي، يقرب

من (٤) آلاف بيت.
٦ - (المناسك المكية): في مسائل الحج أيضا، يقرب من ألف بيت
٧ - (رسالة صلاة الجمعة): ذكرها وما قبلها حفيده (الأستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا.
(في أصول الفقه):
٨ - (تجريد الأصول): مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره، يقرب من (٣) آلاف بيت. قال عنه في الروضات: " شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمة ".
٩ - (أنيس المجتهدين): توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الأشرف (برقم ٤٠٨ - سجل المخطوطات)، تقع في ٤١١ صفحة، بخط محمد حسين بن علي نقي البزاز، فرغ منها بتأريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١. وفي تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت.
١٠ - (جامعة الأصول): يقرب من (٥) آلاف بيت.
١١ -) رسالة في الإجماع (: يقرب من ٣) آلاف بيت.
(في الحكمة والكلام):
١٢ - (جامع الأفكار): في الإلهيات، يقرب من (٣٠) ألف بيت، قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣، وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة)، وستجد راموزا للصفحتين الأولى والأخيرة منه بخط المؤلف، منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي). والذي يجلب الانتباه في الصفحة الأخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة.
١٣ - (قرة العيون): في أحكام الوجود والماهية، يقرب من (٥) آلاف بيت.
١٤ - (اللمعات العرشية): في حكمة الاشراق، يقرب من (٢٥) ألف بيت.
١٥ - (اللمعة): وهو مختصر اللمعات، تقرب من ألفي بيت.
١٦ - (الكلمات الوجيزة): وهو مختصر اللمعة، يقرب من ثمانمائة بيت.

١٧ - (أنيس الحكماء): في المعقول، وهو من أواخر تأليفاته، لم يتم. إحتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيات، يقرب من (٤) آلاف بيت.
١٨ - (أنيس الموحدين): في أصول الدين، فارسي، يقرب من (٤) آلاف بيت.
١٩ - (شرح الشفا): في الإلهيات، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي).
٢٠ - (الشهاب الثاقب): في الإمامة، في رد رسالة الفاضل البخاري، يقرب من (٥) آلاف بيت.
(في الرياضيات):
٢١ - (المستقصى): في علوم الهيئة، خرج منه مجلدان إلى مبحث أسناد الحركات، يقرب من (٤٠) ألف بيت، قال عنه في رياض الجنة: " لم يعمل أبسط وأدق منه في علم الهيئة، ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية، لم يتم ".
٢٢ - (المحصل): كتاب مختصر في علم الهيئة، يقرب من (٥) آلاف بيت.
٢٣ - (توضيح الأشكال): في شرح تحرير إقليدس الصوري في الهندسة، وقد شرحه إلى المقالة السابعة، فارسي، يقرب من (١٦) ألف بيت.
٢٤ - (شرح تحرير أكرثا ذو سنيوس) يقرب من (٣) آلاف بيت.
٢٥ - (رسالة في علم عقود الأنامل): فارسية، تقرب من ألف بيت.
٢٦ - (رسالة في الحساب): ذكرها في روضات الجنات.
(في الأخلاق والمواعظ):
٢٧ - (جامع السعادات): هذا المطبوع بثلاثة أجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه في رياض الجنة: " يقرب من (٢٥) ألف بيت ". وقد طبع في إيران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين، وسيأتي وصفه، وقد تقدم شئ من وصفه. وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الأشرف.
٢٨ - (جامع المواعظ): في الوعظ، يقرب من (٤٠) ألف بيت، لم يتم

في المتفرقات: ٢٩ - (محرق القلوب): في مصائب آل البيت، فارسي، يقرب من (١٨) ألف بيت، قال عنه في روضات الجنات: " طريف الأسلوب ".
٣٠ - (مشكلات العلوم): في المسائل المشكلة من علوم شتى، مطبوع على الحجر بإيران، يشبه بعض الشئ كشكول البهائي. وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بإيران.
٣١ - (رسالة نخبة البيان): ذكرها حفيده الأستاذ حسن النراقي.
٣٢ - (معراج السماء): ذكره أيضا حفيده المذكور.

جامع السعادات وعلم الأخلاق

لا شك أن القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم، وليس كل من كان عالما استطاع التأليف.

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس في حياته، ومن أعظم الحظوظ للانسانية، وبسببه استطاعت أن تتقدم على مرور الأجيال.

ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظا للانسانية.

وإذا أردنا أن نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها، فإنما في فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح أن نضعها في الرف الأعلى، ويصدق عليها بحق أنها مما ينفع الناس، فتمكث في الأرض، وتفرض نفسها للخلود والبقاء إذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة. ومن سوء الحظ أن الفراغ لا يزال كثيرا في هذا الرف الأعلى.

ومن بين الفترات لا بد أن تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه. وحظها أن تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيي انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الأعلى. وهذه غير الغثاء الذي يذهب جفاء، ومن حقه أن يلقى في سلة المهملات. وما أكثر هذا النوع الرخيص، لا سيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الإسفاف.

ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا النراقي فنضعها في الرف الأعلى، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه، هو بالخصوص من الآثار الخالدة، وإن لم يكن موضعه هذا الرف الأعلى كسائر الكتب الأخلاقية في الدورة الإسلامية.

ولا ندري السر في ذلك، ألأن الفترة بعد لم تنته لعلم الأخلاق بخصوصه كيما يظهر الأثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الأعلى، أم لأن هذا العلم ليس له تلك الفترات، بل كله في فترة مستديمة ليأس العلماء الأخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف؟!

وهذا الثاني هو الأقرب إلى الواقع. والحق مع الأخلاقيين في يأسهم، فإن الأخلاق لا تكتسب بالتعلم وقراءة الكتب، وإنما هي صفات وملكات لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة، لا سيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل أن يفرض في الإنسان أن يكون أهلا للقراءة، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تنميتها لكانت كتب الأخلاق من أثمن ما خلق الله، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الأخلاق الفاضلة، بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه أن تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة لتخرجهم أبريزا صافيا كصاحبها، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل أن تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جمودا على مساوئها.

وليس هذا الرأي عن الكتب الأخلاقية فيه شئ من المغالاة على ما أعتقد، إلا إني مع ذلك لا أظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وأرباب القلوب الحية، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الأخلاقية الموجهة إليهم ممن يعول على قوله، ويتتبعون بإخلاص مجهودات المؤلفين في الأخلاق، ليترسموا خطاهم فيهذبوا أنفسهم.

ومن هنا نجد السبيل إلى إنصاف الأخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير، لنعتقد أنهم لم يعملوا عملا باطلا لا نفع فيه، بل الحق أن له قيمته العظيمة، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة. وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لا توازن بشئ في الدنيا، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئيا على هذا التأثر، وإن كان محدودا. وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل في أمة في بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من نتائج هذا التأثر المحدود.

ومع ذلك، فإن تأثير الدعوة الأخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب النظريات الأخلاقية المجردة. بل لروحية المؤلف أعظم الأثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام إلى الخير. ومن هنا اشترطوا في الواعظ.

أن يكون متعظا.
وعلى هذا الأساس ينبغي أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلمية - في نظر أرباب القلوب - تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلق عليها، ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثره هو بأقواله، وما كانت شهرة (مجموعة ورام)، وما كانت أهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق، ذلك قلب الأمير الزاهد الآلهي (الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الأشتري)، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضي بهذا الاهتمام. ومن العجيب أن قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهرا على قلمه في مؤلفاته، فتلمسه في ثنايا كلماته. وبالعكس ذلك الذي لا قلب له، فإنك لا تقرأ منه إلا كلاما جافا لا روح فيه، مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية.
وفي نظري أن قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية. وإني لأتحدى قارئ هذا الكتاب إذا كان مستعدا للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته، وهذا هو السر في أقبال الناس عليه وفي شهرته، على أنه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية. والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف، وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق.
وإني لأؤمن إيمانا لا يقبل الشك: أن انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أمتنا نحو الخير، بعد أن نفدت طبعته الأولى وعزت نسخته، ولا سيما أن خطباء المنابر - فيما أعتقد - ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثر به ونقل تأثرهم إلى سواد الأمة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة.
وهذا ما دفعني - والله هو الشاهد علي - إلى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه، ليخرج بهذه الحلة، وإن كانت ظروفي الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له، لولا أني توكلت على الله تعالى ووطنت على تجاهلها وإهمال كثير مما يجب العناية به، والحمد لله على توفيقه.

النواحي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا، اعتماده على المراسيل في الأحاديث، وتسجيل كل ما يرى أمامه من المنقولات: غثها وسمينها، من دون إشارة إلى التمييز ولا إلى المصادر، حتى نقل كثيرا عن إحياء العلوم، وتعمد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة، اللذين يشهد أسلوبهما على وضع أكثر ما فيهما. وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها. وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياما كما قد يذهب البحث سدى. وما كان يهمنا من الرجوع إلى المصادر إلا تصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها، فلذلك لا نشير في الحاشية إلى المصدر إلا إذا وجدنا اختلافا في نصه في النسخ، فنقول: صححناه على كذا مصدر. وبهذه المناسبة لا بد من الاعتراف بالجميل، فتذكر الأستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما أعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات.

والذي يهون الخطب في هذه المؤاخذة - على أن لها قيمتها الفنية - أنها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلامية، بل هذا ديدنها، وكأن هو أصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة، فإذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحا مقبولا في عرف أهل الحديث، فإذا قال المحدث: " قال النبي والإمام كذا "، يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به، وإلا فيقول " روى عنه كذا " أو ما يشبه ذلك، أما الأخلاقي فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأي طريق كان.

ولعل لهذا التسامح عذرا مقبولا في مذهبهم على ما قدمنا، لو لم تكن فيه إساءة إلى أمانة النقل في أهم تراث إسلامي ديني، في حين كان الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث، على أن في الثابت الصحيح عن آل البيت - عليهم السلام - ما فيه الكفاية للإلمام بنواحي الأخلاق المطلوبة، وما في (الكافي) كاف وحده في هذا الباب. وكنا نتمنى - أثناء التصحيح - على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الأخلاقيين، فيزيد على فائدته الأخلاقية فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة.

أما أسلوب الكتاب الأدبي، فهو يمثل إلى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة إلى حد كبير، بالرغم على أن الفلاسفة الإشراقيين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الأسلوب، لا سيما في العصر السابق على عصر المؤلف، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره، حتى كان يسمى الأول: أمير البيان، ولعل الثاني أحق بهذا اللقب. غير أن صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم. على أنه كان يقتبس كثيرا نص عبارات غيره استراحة إليها. وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الأخلاقيين، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع، أو لأن همهم أداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الأحاديث.
وبهذه المناسبة نقول: إنا وجدنا أثناء تصحيح الكتاب كثيرا من الألفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغا من اللغة العربية، ككلمة (القادسة) و (الهلاكة).، ففضلنا أن نبقيها على ما وجدناها، حرصا على أمانة النقل وأهملنا التنبيه عليها، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين إشارة إلى زيادتها منا.
وإذا كانت أمانة النقل هي العذر لنا في ذلك، فهي التي تقضي علينا أن نصرح أن عناوين الكتاب على الأكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف.
وأما أسلوبه العلمي، فقد بناه مؤلفه من أوله إلى آخره على نظرية الوسط والأطراف في الأخلاق، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية. وقد بحث عنها المؤلف في (الجزء الأول ص ٥٩). وليس من حقنا أن نناقشها، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده، فإن شأنه في الاعتماد على هذه النظرية الأساسية شأن سائر كتب الأخلاق الإسلامية العلمية.
ولكن الذي امتاز به كتابنا - بعد أن بحث مؤلفه بحثنا فلسفيا متوسطا عن النفس وقواها، والخير والسعادة، والفضائل والرذائل، في البابين الأول والثاني، كما صنع أسلافه - أن جعل أساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث: العاقلة والشهوية والغضبية، معللا ذلك بأن " جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث " (١ / ٦٦). وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من أجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة إلى الأخرى، ثم ذكر

أنواعها، واستقصى ذكر الأنواع، مطبقا على كل نوع نظرية الوسط والأطراف، فجاء في استقصائه وإلحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بها، بما لم يجيئ به غيره ولم يسبقه إليه أحد فيما نعلم، وهو نفسه ادعى ذلك فقال:
" إن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وإدخال البعض في البعض، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق " (١ / ٧١).
وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة، لو اتفق لغيره أن يترسم خطاه، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق، لتقدم على يديه علم الأخلاق تقدما كبيرا. وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه، فلم يجعلها جنسا مقابلا لأجناس الفضائل الثلاث الأخرى، وهي الحكمة والعفة والشجاعة، باعتبار أن العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها، لا إنها في مقابلها، وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني، ولا أظن أحدا يقره عليه، ولا يثبت أمام النقد. ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الأخلاقية الأخرى. وقصدنا أن هذا التقسيم من المؤلف.
وإرجاع الفضائل والرذائل إلى أسبابها، وجعل مواضيع الأبحاث هي تلك القوى، وإحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها، كل ذلك مستجد، وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب.
تصحيح الكتاب ومراجعه
وعدت الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد كلانتر، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحا وتعليقا - جزاه الله خير ما يجزي العاملين -: على الاشتراك معه وأعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه أيضا عند الطبع، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه، وذلك قبل سنتين. وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية، فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفني الأمر، ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره، باعتباره أحد الكتب التي يجب إحياؤها في هذا العصر. وهذا منه أحد شواهدي على تأثر الفتيان الكرام الأبرار بهذا السفر الأخلاقي. وقد شاهدت
ج: ١

صبره لأول مرة في إيران في صيف العام الماضي، لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة، في قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ إلى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع، فأودعا في التعليقة آراءهما القيمة في تحقيقه وتصحيحه. ولئن عدنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع، فإنا اعتمدنا كثيرا على تلك التحقيقات القيمة الماضية.

ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة في إيران على الحجر، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان إليها، ويشوه المقصود والمعنى.

ومن الغريب أن نجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وتشويه الإملاء والتبويب، فهذه أمور حدث عنها ولا حرج. ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا، لتعرف أي مجهود بذل للتصحيح والإخراج، وتجد العناية على كل سطر منه، بل كل كلمة.

ومن سوء الحظ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظا في الصحة من أختها المطبوعة. وهذا ما دعانا إلى أن نرجع إلى كتب أخرى تمت بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب، كالكتب الأخلاقية وكتب الحديث وأكثر ما كان يعنينا تصحيح الأحاديث الشريفة بالرجوع إلى مصادرها الذي جشمنا بحثا مضنيا كان يستغرق أكثر أوقاتنا، وقد تذكر أحيانا في التعليقة المصدر المرجوع إليه، وعلى الأكثر لا نذكر المرجع إلا عندما يكون مخالفا لنسخ الكتاب. ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب، وهي:

١ - النسخة من الكتاب - المشار إليها آنفا - المطبوعة على الحجر بإيران سنة ١٣١٢.

٢ - النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير (آغا بزرگ) مؤلف الذريعة، وقد نسخت سنة ١٢٠٨. ونعبر عنها في التعليقة ب (نسختنا الخطية).

٣ - النسخة المخطوطة منه في مكتبة سپه سالار بطهران. ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقمها في المكتبة. وقد قوبلت النسخة إلى حد صفحة

١٧٦ من الجزء الأول.
٤ - النسخة المطبوعة، التي يملكها الخطيب السيد جواد شبر، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات.
٥ - إحياء العلوم - للشيخ أبي حامد الغزالي.
٦ - إحياء الأحياء - المجلد الرابع المطبوع في إيران على الحجر سنة ١٣٢٦، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني.
٧ - نسخة أصول الكافي - المخطوطة سنة ١١٠٣، في مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦)، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة.
٨ - نسخة أصول الكافي - المخطوطة التي تحت تصرفنا.
٩ - فروع الكافي - المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة.
١٠ - الوسائل - المطبوعة سنة ١٣٢٣، المعروفة بطبعة عين الدولة.
١١ - البحار - المجلد ١٥ بجميع أجزائه الأربعة، المطبوع على الحجر.
١٢ - كنز العمال - المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢.
١٣ - مستدرك الوسائل - للشيخ المحدث النوري، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩.
١٤ - الوافي - للشيخ المولى محسن الفيض، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة.
١٥ - سفينة البحار - المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢، للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي.
١٦ - جامع الأخبار - المطبوع بالهند على الحجر.
١٧ - مصباح الشريعة - المطبوع بالهند على الحجر.
وهذه غير المراجع التي رجعنا إليها نادرا: كمجموعة الشيخ ورام، والحقائق للفيض، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي، ونهاية ابن

الأثير... ونحوها كثير لا فائدة في إحصائه. وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح أجزاء الكتاب، والله تعالى هو الموفق للصواب.

ويجب ألا ننسى في الختام شكر حسن الشيخ إبراهيم الكتبي على جهوده التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع، والاشتراك في مقابلة النسخة الأصلية وتدقيقها، جزاه الله خير ما يجزي العاملين.

النجف الأشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ ه محمد رضا المظفر

مراجع البحث في الترجمة:

١ - (روضات الجنات): للسيد محمد باقر الخوانساري، المطبوع بإيران على الحجر سنة ١٣١٦.

٢ - (الروضة البهية): للسيد محمد شفيع الحسيني، المطبوع بإيران على الحجر.

٣ - (أعيان الشيعة): للسيد محسن الأمين - الطبعة الأولى - في ترجمة الشيخين: أحمد النراقي وإسماعيل الخاجوئي.

٤ - (مستدرك الوسائل): - الجزء الثالث - للمحدث ميرزا حسين النوري.

٥ - (الذريعة): - للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهراني.

٦ - (الإسناد المصفى): له أيضا، المطبوع بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٦.

٧ - (رياض الجنة): المخطوط، للسيد حسن الزنوزي المعاصر للمؤلف، ومن تلامذة الوحيد البهبهاني، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠). وقد اعتمدنا عليها في تجديد النظر في الترجمة سنة ١٣٨٣، على ما نقله لنا عنها مكاتبة أحد أحفاد المترجم له (الأستاذ حسن النراقي). وأكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر في تعداد مؤلفات المترجم له.

٨ - (قصص العلماء): للميرزا محمد بن سليمان التنكابني، المطبوع على الحجر بطهران.

ملاحظة:
في سفرتي الأخيرة إلى إيران في العام الماضي - لأمور تخص:
(جامعة النجف الدينية)
- التقيت مع الأخ الأستاذ (حسن النراقي) - دام فضله - من أحفاد المؤلف - قدس سره -، جرى الحديث فيه حول شيخنا المؤلف وعظمته.
فأراني الأخ النراقي نموذجا من خطوط المؤلف الراقية، فجذبني حسن الخط وروعته، ولا سيما تلكم الصفحات من كتاب:
(جامع الأفكار وناقد الأنظار)
ففكرت في طبع نموذج الصفحة الأولى والأخيرة من الكتاب المذكور، تثبيتا لعظمة ناحية أخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلائل الفنون الروائع.
وقد أبدى الأستاذ النراقي موافقته على ذلك في إطار من التبجيل الصادق والأدب الجميل... مما يخص نفسيته الواسعة.
فشكرا له وتقديرا.
السيد محمد كلانتر

نموذج الصفحة الأولى من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف

(جامع الأفكار وناقد الأنظار)
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي دل على ذاته بذاته وتجلى لخلقه ببدايع مصنوعاته، أظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والأفهام، وابرز من غرائب عظمته ما بهر نوافذ المدارك والأوهام، خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات، والصلاة على مهابط المعارف والأسرار ووسائط الفيوضات والأنوار، من الأنبياء المكرمين الأخيار وخلفائهم الراشدين الأطهار.
وبعد فيقول أضعف المحتاجين: مهدي بن أبي ذر النراقي - نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين -: هذا يا إخواني ما أردتم من أصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية: من العلم بالله وصفات كماله ومعرفة أسمائه ونعوت جلاله، وما يتلوهما من المباحث الآلهية العالية والمطالب الحقة المتعالية، مما يرتقى به إلى منازل الأخيار ويعرج به إلى عوالم العقول والأنوار، ويتوجه به إلى شطر كعبة الملكوت ويسلك به إلى صقع عالم الجبروت. وقد بعث الله السفراء لأجله، وانعقد إجماع الأمة على وجوب أخذه فيلزم على الكل حمله ولا يسع لأحد جهله، وأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ويحرسه عن غير أهله، ولاشتماله على جمع الأفكار الإلهية ونقدها، سيما ما تعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشي، وسميته ب (جامع الأفكار وناقد الأنظار)، ورتبته على مقدمات ومقالات:
المقدمة الأولى - في إبطال ترجح المساوي والمرجوح وترجيحهما.
بيان الأول: إن معنى المساواة كون شيئين في مرتبة واحدة بالنظر إلى ثالث، ومعنى المرجوحية كون الشيئين أحدهما أبعد من الآخر، والراجحية كونه أقرب منه، فلو ترجح المساوي أو المرجوح لزم التناقض.

وبعد ما ثبت أن الواجب - سبحانه - صرف الوجود ومحض الموجود وليس فيه نقص ولا ممازجة، وإنه ليس جسما وجسمانيا، ثبت معه نفي التحيز والجهة والحلول والاتحاد والألم واللذة المزاجية عنه سبحانه، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية، وهو آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب. والحمد لله على تأييده على الإتمام، والصلاة على سيد الأنام وعلى عترته أمناء الإسلام.

ووقع إتمامه في أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة ١١٩٣ - ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة المباركة النبوية - وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والأحزان وتفاقم الغموم والأشجان، وفرط الملال وضيق البال، من هجوم المصائب والمحن وتواتر النوائب والفتن، من ابتلائنا أولا في بلدة كاشان - حماها الله عن طوارق الحدثان - بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزعجة، وانهدام جميع الأبنية والمساكن وجل البيوت والمواطن، وهلاك كثير من الأصدقاء والأحباب وذهاب غير واحد من الأحبة والأصحاب، ثم ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة والأسقام الوبائية العجيبة، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختلال الأمور إلى بعض القرى، واحتراق فؤادي بذهاب بعض أولادي الذي تقر به عيني في ظلمات الأحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم، ثم وقوعنا في الداهية العظمى والفتنة الكبرى: أعني موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين أهل إيران. فأحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء، ونسأله أن يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلايا والنوائب، وأن يصلح جميع أمور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق أجمعين.

نموذج الصفحة الأخيرة من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد الله الذي خلق الإنسان، وجعله أفضل أنواع الأكوان، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الإمكان، أظهر فيه عجائب قدرته القاهرة. وابرز فيه غرائب عظمته الباهرة، ربط به الناسوت باللاهوت، وأودع فيه حقائق الملك والملكوت، خمر طينته من الظلمات والنور، وركب فيه دواعي الخير والشرور، عجنه من المواد المتخالفة، وجمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل، والصلاة على نبينا الذي أوتي جوامع الحكم، وبعث لتتميم محاسن الأخلاق والشيم، وعلى آله مصابيح الظلم، ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم.

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن أبي ذر النراقي) بصره الله نفسه، وجعل يومه خيرا من أمسه: إنه لا ريب في أن الغاية من وضع النواميس والأديان، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسان، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين، وإيصالهم إلى روضات العليين، وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت، ومرافقة قطان قدس الجبروت، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق ورذائلها، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها.

فيجب على كل عاقل أن يأخذ أهبته، ويبذل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعة وأرجاسها، وتغسيل نفسه عن أقذار الجسمية وأنجاسها قبل أن يتيه في بيداء الشقاق، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الأمارة ما دام الاختيار بيده، إذ لا تنفعه الندامة والحسرة في غده.

ثم لا ريب في أن التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها، والعلم بأسبابها ومعالجاتها، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله أهلها،

ولم يرخص لأحد جهلها، وهي الموجبة للحياة الحقيقية، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات، وربما أحرقته نيران الشهوات.
وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها، وجمعها وتبيينها، على ما أدت إليه قوة أنظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم، ولما جاءت الشريعة النبوية " على صادعها ألف صلاة وتحية " حثت على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والأديان، إلا أنه لما كان ما ورد منها منتشرا في موارد مختلفة، ومتفرقا في مواضع متعددة، تعسر أن يحيط به فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقربه أعين الطالبين، وتسر به أفئدة الراغبين.
ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب، ثم نشير إلى أقسام الأخلاق، ومبادئها من القوى ونضبطها بأجناسها وأنواعها ونتائجها وثمراتها، ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الأخلاق والجزئية لكل خلق مذموم: مما له اسم مشهور، وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة، وفي تلوه نذكر ضده المحمود، وما يدل على فضله عقلا ونقلا، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لإزالة ضده، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور، ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث، لأن ذلك أدخل في ضبط الأخلاق، ومعرفة أضدادها، والعلم بمبادئها وأجناسها، وهو من أهم الأمور لطالبي هذا الفن.
وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن، لأن غرضنا في هذا الكتاب إنما هو مجرد إصلاح النفس، وتهذيب الأخلاق، وسميته " بجامع السعادات " ورتبته على ثلاثة أبواب.

الباب الأول في المقدمات

انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار - تجرد النفس وبقاؤها - التذاذ النفس وتألمها - فضائل الأخلاق ورذائلها - الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف - حصول الملكات بتضاعف الأعمال - العمل نفس الجزاء - القول بتجسد الأعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة - للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها - حقيقة الخلق وماهية الملائكة - الأقوال في تبدل الأخلاق والملكات - شرف علم الأخلاق - تعريف النفس وأساميها باختلاف الاعتبارات - في الإشارة إلى اعتبار مدافعة القوى الأربع - إنقهار النفس بتسخير القوة العالية - اختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس - إئتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة - حقيقة الخير والسعادة - والجمع بين الأقوال المختلفة فيها - شرائط حصول السعادة - غاية ما يمكن الوصول إليه من السعادة - تقسيم اللذات والآلام - اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية - إيقاظ فيه موعظة ونصيحة - التنبيه على أن الفائت لا يتدارك.

فصل

انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار

إعلم أن الإنسان منقسم إلى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات، وآلام ولذات، ومهلكات ومنجيات.

ومنافيات البدن وآلامه هي الأمراض الجسمانية وملائماته هي الصحة واللذات الجسمانية. والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الأمراض ومعالجاتها هو علم الطب. ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الأخلاق التي تهلكه وتشقيه، وصحته رجوعه إلى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه. والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق).

ثم إن البدن مادي فان، والروح مجرد باق، فإن اتصف بشرائف الصنات كان في البهجة والسعادة أبدا، وإن اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلدا، ولا بد لنا من الإشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيبا للطالبين على السعي في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية.

فصل

في تجرد النفس وبقائها

لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن. أما الأول (والمراد به عدم كونها جسما وجسمانية) فيدل عليه وجوه:

(منها) إن كل جسم لا يقبل صورا وأشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون أن نزول الأولى بورود الأخرى، بل كلما قبلت صورة ازدادت قوتها على قبول الأخرى، ولذلك تزيد القوة على إدراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر، فثبت عدم كونها جسما.

و (منها) إن حصول الأبعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بأن يصير طويلا عريضا عميقا وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بأن يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالإدراك من غير أن تصير كذلك، وأيضا حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء.

و (منها) أن النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الأمور الإلهية والمعارف الحقيقية، ولا تميل إلى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية، بل تحن أبدا إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما، إذ لا ريب في أن ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بإدراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية، وبالمناجاة والعبادات والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري أن لها بدنا فكأنها منخلعة عنه، فهذا يدل على أنها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة.

و (منها) أن النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها، ولا ريب في أن المادي يكون محلا للمجرد إذ كل مادي ذو وضع قابل

للانقسام، وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم أن يكون حاله أيضا كذلك كما ثبت في محله، والمجرد لا يمكن كذلك وإلا خرج عن حقيقته، فالنفس لا تكون مادية وإذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة.

و (منها) أن القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة إذ ما لم يدرك الشئ بها لم تتمكن الحواس الباطنة أن تدركه وهذا وجداني وضروري. والنفس قد تدرك ما لا طريق الشئ من الحواس إلى إدراكه كالأمور المجردة والمعاني البسيطة الكلية، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات، والضرورة العقلية قاضية بأنه لا مدخلية لشئ من الحواس في إدراك شئ من ذلك.

وأيضا تحكم بأنه لا واسطة بين النقيضين، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادئ حسية إذ لو كان مأخوذا منها لم يكن قياسا أوليا، فمثله مأخوذ من المبادئ الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة.

وأيضا هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر ما هو عليه في الواقع أو بالعكس، وفيما يراه مستديرا وهو مربع، أو مكسورا وهو صحيح، أو معوجا وهو مستقيم، أو منكوسا وهو منتصب، أو مختلفا في وضعه الواقعي، وفي رؤيته للأشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى، وللذوق في إدراكه الحلو مرا ومثله، كذا الحال في الشم واللمس، ولا ريب في أن تخطئة النفس الحواس في هذه الإدراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع إنما يكون مسبوقا بالعلم الذي لا يكون مأخوذا من الحس، لأن الحاكم على الشئ أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط مأخوذا عنه.

ومما يؤكد ذلك أنها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها. ومعلوم إن هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادي، أخر.

و (منها) إنا نشاهد أن البدن وقواه يضعفان في أفعالهما وآثارهما، والنفس تقوى في إدراكاتها وصفاتها، كما في سن الكهولة، أو يكونان قويين في الأفعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب، فلو كانت جسما أو

جسمانية لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة.
(فإن قلت) الإدراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافي ذلك.
(قلنا) الضعف أو الاختلال إنما يحدث في الإدراك والأفعال المتعلقة بالقوى الجسمية، وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها يحصل فيه اختلال وضعف، يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى.
وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها أن المجرد لا يتطرق إليه الفساد لأنه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره، ووجهه ظاهر.

فصل

بيان تلذذ النفس وتألمها

إذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبدا، فاعلم أنها إما ملتذة متنعمة دائما أو معذبة متألمة كذلك. والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية، فكمال القوة النظرية الإحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بإدراك كلياتها. والترقي منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان. وهذا الكمال هو الحكمة النظرية.
وكما القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقي منه إلى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه. وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها.
وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة، فلا يتم أحدهما بدون الآخر، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالما صغيرا مشابها للعالم الكبير، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود.

فصل

في فضائل الأخلاق ورذائلها

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة إلى السعادة الأبدية، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات والوصول إلى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات.

فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الأوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف، ولو قصر أدركته الهلاكة الأبدية، إذ كما أن الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى الدنيا سويا سميعا بصيرا ناطقا، كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى عالم الآخرة كذلك.

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٢).

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية، كما أن المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له إفاضة الصحة، والثوب ما لم ينق عن الأوساخ لم يقبل لونا من الألوان، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للاقران والشركاء وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع إهمال البواطن.

ومثل من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش (٣) ظاهرها جص وباطنها نتن، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها

----

(١) إشارة إلى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع إلى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: خير الأمور أواسطها) وسيأتي شرح المعنى من الوسط والطرفين.

(٢) الإسراء الآية ٧٢.

(٣) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح أكثر من الضم: المخرج وموضع الحاجة وأصله من الحش بمعنى البستان، لأنهم كانوا يتغوطون في البساتين، فلما اتخذوا الكنف أطلقوا عليها الاسم مجازا، فالمراد هنا من بئر الحش خزانة الكنيف.

جيفة، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت فإن الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة، أو كمريض به جرب وقد أمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن.

ثم إذا تخلت عن مساوئ الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العملي استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هي عليها، على سبيل الكلمة، أي بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية، لعدم تناهيها، وإن علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها، وحينئذ يصير (٤) موجودا تاما أبدى الوجود سرمدي البقاء، فائزا بالرتبة العليا، والسعادة القصوى، قابلا للخلافة الإلهية، والرئاسة المعنوية فيصل إلى اللذات الحقيقية، والابتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الأعيان، ولم تتصورها عوالي الأذهان.

فصل

الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية، والنفحات القدسية إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحا، كيف والقلوب كالأواني فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وأنسه، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: " لولا أن الشياطين يحرمون

---

(٤) تذكير الضمير باعتبار إرادة الإنسان لأنه صاحب النفس بل هو هي.

ج: ١

إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض " فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول (٥) وتلألأ فيها حقائقه كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله: " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها، فإن التعرض لها إنما هو بتطهير القوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية (٦) فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئة يوجب جلاء ونورا للقلب يستعد به لإفاضة علم يقيني، ولذا قال سبحانه:
والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. (٧).
وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم " فالقلب إذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والإفاضات الرحمانية ما لا يمكن لأعاظم العلماء كما قال سيد الرسل: " إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل ".
وكل سالك إلى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما إنا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدق بوجودها ولا نعرف حقيقتهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمسير من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء.
فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شئ من الحقائق، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك، بل الاحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك.
ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي

---

(٥) المراد من الحق الأول عون الله تبارك وتعالى فكما أن الحق صفة له كذلك الأول فهو صفة بعد صفة.
(٦) المراد من النفحات هي الإفاضات المعنوية لا التمسك كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الأخبار.
(٧) العنكبوت الآية: ٦٩.

النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والانجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية، وهو المراد بقوله (ع): " إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء " وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين (ع) بقوله: " أن من أحب عباد الله إليه عبدا أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه " (إلى أن قال): " قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم إلا هما واحدا انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع غماره (٨)، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس " وفي كلام آخر له (ع) " قد أحيي قلبه وأمات نفسه، حتى دق جليله (٩) ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى به ".
وقال (ع) في وصف الراسخين من العلماء: " هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى " وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات، كيف وفيضان أنوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب " فإذا كان بيت القلب مشحونا بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشترك، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله

---

(٨) غمرة الشئ شدته ومزدحمة جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أي مكارهه وشدائده.
(٩) الجليل: الكبير في الحجم.

عليه وآله وسلم " بني الدين على النظافة " يتناول زوال النجاستين. وما ورد من أن الطهور نصف الإيمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات.
وبما ذكر ظهر أن العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية، من دون تصقيل لجوهر النفس، لا يخلو عن الكدرة والظلمة، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا أنهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع، لأن اليقين الحقيقي يلزمه " روح " (١٠) ونور وبهجة وسرور، وعدم الالتفات إلى ما سوى الله، والاستغراق في أبحر عظمة الله، وليس شئ من ذلك حاصلا لهم، فما ظنوه يقينا إما تصديق مشوب بالشبهة، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات.
والسر في ذلك أن منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه، فكلما تزداد النفس تجردا إيمانا ويقينا، ولا ريب في أنه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتنضح سبل المعرفة كما قال سبحانه:
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١١).

فصل

إن العمل نفس الجزاء

كل نفس في يده الخلقة خالية عن الملكات بأسرها، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الأفاعيل والآثار الخاصة به (١٢) بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده في الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لأن الدنيا دار

---

(١٠) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى.
(١١) العنكبوت الآية: ٦٩.
(١٢) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والأصح " بها " وإن كانت الكلمة غير موجودة في نسخة خطية أخرى.

التجدد والزوال، ولكنه يحصل منه أثر في النفس، فإذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فإنها ضعيفة أولا وإذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصورا باطنة تكون مبادئ للآثار المختصة بها، فالنفوس الإنسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لأضدادها، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها.

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار، وإن كانت ردية كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار، وإنما الخلاف في كيفية إيجابها للثواب أو العذاب، فمن قال إن الجزاء مغاير للعمل قال إن كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة.

ومن قال إن العمل نفس الجزاء قال إن الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها إذ كل شئ يظهر في كل عالم بصورة خاصة، فإن العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النور يظهر بصورة اللبن، فالظاهر في العالمين شئ واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء، ومنه يظهر أنه قد يسرك في عالم ما يسوءك في عالم آخر، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم.

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك إن كانت

من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال واسم الشيطان إن كانت من أضدادها وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما، وعلى الثانية اسم الحيات والعقارب وأشباههما، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى، وإنما الاختلاف في الاسم.
وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرحة أو صورة موحشة معذبة، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة: منها: ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يا قيس " إن مع العز ذلا ومع الحياة موتا ومع الدنيا آخرة، وإن لكل شئ رقيبا وعلى كل شئ حسيبا، وإن لكل أجل كتابا، وإنه لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريما أكرمك، وإن كان لئيما ألأمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحا: فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك ". ومنها: ما استفاض من قولهم عليهم السلام " إن من فعل كذا خلق الله تعالى ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة ". ومنها: ما ورد " إن الجنة قيعان وغراسها سبحان الله ": ومنها ما روي " إن الكافر خلق من ذنب المؤمن " ومنها: قولهم " المرء مرهون بعمله ". ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجري في بطنه نار جهنم " ويدل عليه قوله سبحانه:
(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (١٣).
وربما كان بقوله تعالى:
(ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) (١٤) وقوله تعالى:
(إنما تجزون ما كنتم تعملون) (١٥).
إشارة إليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم.
وقال: فيثاغورس الحكيم " ستعارض لك في أفعالك وأقوالك

---

(١٣) التوبة الآية: ٤٩.
(١٤) يس الآية: ٥٤.
(١٥) الطور الآية: ١٦.

وأفكارك (١٦) وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية، فإن كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك، وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي به في أخراك إلى جوار الله وكرامته " انتهى.

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الإشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكي، والانسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته إلى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت إلى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه:

(وإذا الصحف نشرت) (١٧) وقوله تعالى: (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (١٨).

صار إدراكه فعلا وعلمه عينا وسره عيانا، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله، ويرى نتائج أنظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته. ويدرك حقيقة قوله سبحانه:

وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١٩).

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعا لساعات يومه وأمسه يقول:

(ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٢٠) (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (٢١).

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صورا روحانية باقية أبد الدهر موجبة للجبهة والالتذاذ والتوحش والتألم، بأنه لو لم تكن تلك الملكات

---

(١٦) هكذا وجدنا العبارة في النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الإجمال.

(١٧) التكوير الآية ١٠.

(١٨) في الآية ٢٢.

(١٩) الإسراء الآية ١٣ - ١٤.

(٢٠) الكهف الآية ٤٩.

(٢١) آل عمران الآية ٣٠.

والنيات باقية أبدا لم يكون للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح، إذ لو كان المقتضي للثواب أو العذاب نفس العمل والقول، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير، فإذا منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبدا كما قال سبحانه:

(في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة) (٢٢).

والسر فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس إلى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبدا ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف.

ثم الظاهر أن هذا المذهب - عند من قال به من أهل الشرائع - بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع إذعانه بالجنة والنار الجسمانيين " إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد في الشريعة القادسة من أمور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين.

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان، وكل ما يقرب العبد إلى إحداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد إلى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور، وبالعكس، فأسوأ الناس حالا من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا وإصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل إليه من فائدته، كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا، ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة إلى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل، ولا جزاء فعل، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون

----

(٢٢) عبس الآية: ١٣ - ١٥.

ويؤمله المتقون من الخير الدائم، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم، فإذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيسا من رحمة الله قائلا:

يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله (٢٢).

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة.

فصل

تأثير المزاج على الأخلاق

للمزاج مدخلية تامة في الصفات: فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق، وبعضها مقتض لخلافه، فإنا نقطع بأن بعض الأشخاص بحسب جبلته، ولو خلي عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب، ويضحك بأدنى تعجب، وبعضهم بخلاف ذلك. وقد يكون اعتدال القوى فطريا بحيث يبلغ الإنسان كامل العقل، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة، كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام. وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردي الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة، كما في بعض الناس.

إلا أن الحق - كما يأتي - إمكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق، فيجب السعي في إزالة نقائضها وتحصيل فضائلها. وعجبا لأقوام يبالغون في إعادة الصحة الجسمانية الفانية، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية، يطيعون قول الطبيب المجوسي في شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة، لأجل صحة زائلة، ولا يطيعون أمر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة.

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها طلب المقصود لملابسة العوائق والمواقع، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبة، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة، أو لضعف القوة العاقلة، فإن لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله، إلى أن تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية، نعوذ بالله من ذلك، وإن أدركته الرحمة

----

(٢٣) الزمر الآية ٥٦.

الأزلية، فيصرف همه في إزالة النقائص، واكتساب الفضائل، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال إلى فوقها، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال، ويتشرف بجوار الرب، المتعال ويصل إلى السرور الحقيقي. الذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإلى قرة الأعين التي يشير إليها في قوله سبحانه:
(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (٢٤).

فصل

تأثير التربية على الأخلاق

الخلق عبارة عن " ملكة للنفس مقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية " والملكة: كيفية نفسانية بطيئة الزوال. وبالقيد الأخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر، أو العادة بأن يفعل فعلا بالرؤية، أو التكلف ويصبر عليه إلى أن يصير ملكة له (٢٥) ويصدر عنه بسهولة وإن كان مخالفا لمقتضى المزاج.

واختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق وعدمه، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله. ورجح المتأخرون الأول وقالوا: ليس شئ من الأخلاق طبيعيا ولا مخالفا للطبيعة، بل النفس بالنظر إلى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد، إما بسهولة إن كان موافقا للمزاج، أو بعسر إن كان مخالفا له فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لأسباب خارجة.

(حجة القول الأول) أن كل خلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعيا فينتج لا شئ من الخلق بطبيعي والكبرى بديهية، والصغرى وجدانية. فإنا نجد أن الشرير يصير بمصاحبته الخير خيرا، والخير بمجالسته الشرير

---

(٢٤) السجدة الآية ١٧.

(٢٥) ما بين القوس في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.

شريرا. ونرى أن التأديب " في السياسات ٢٦ " فيه أثر عظيم في زوال الأخلاق، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت لشرائع والديانات، ولما قال الله سبحانه: (قد أفلح من زكاها) (٢٧). ولما قال النبي صلى الله عليه وآله: حسنوا أخلاقكم، ولما قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ورد: بمنع كلية الصغرى فإنا نشاهد أن بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية، كالحدس والتحفظ، وجودة الذهن، وحسن التعقل، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة، فإنه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة.

وما قيل: من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود: بأن هذا اللزوم إذا لم يكن شئ من الأخلاق قابلا للتغيير، وأما مع قبول بعضها أو أكثرها له فلا يلزم شئ مما ذكر، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق للتغيير موجبا لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضيا لبطلان علم الطب، مع إنا نعلم بديهة أن بعض الأمراض لا يقبل العلاج.

(وحجة القول الثاني) إن الأخلاق بأسرها تابعة للمزاج، والمزاج لا يتبدل، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنة لا ينافي ذلك، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج، وأيد ذلك بقوله (ص):

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) وبقوله (ص): (إذا سمعتم أن جبلا زال عن مكانه فصدقوه، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه، فإنه سيعود إلى ما جبل عليه).

و (الجواب) إن توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الإنسانية متفقة في الحقيقة، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولائي. ثم ما يحصل لها منهما أما من مقتضيات الاختيار

---

(٢٦) ما بين القوس في الموضعين غير موجود في نسختنا الخطبة لكنه موجود في نسخة خطبة أخرى وفي المطبوعة.

(٢٧) الشمس الآية: ٩.

والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة، والمقتضي ما يمكن زواله كالبرودة للماء، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجة للأربعة. والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه. والثاني مع عدم ثبوته عندما يدل على خلاف مطلوبهم، لأن قوله: (سيعود إلى ما جبل عليه) يفيد إمكان إزالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب، فلو دام على حفظ الأسباب وإبقائها لم يحصل العود أصلا.

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة إلى الأكثر التبديل للحس والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولإمكان تغير خلق البهائم، إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى الأنس والفرس من الجماح إلى الانقياد والكلب من الهراشة إلى التأدب، فكيف لا يمكن في حق الإنسان، وعدم قبول بعضها بالنسبة إلى البعض له، للمشاهدة والتجربة، وهذا البعض مما لا يكون متعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها.

والتصفح يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الإزالة والاتصاف بالضد بالإمكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة. ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله: " أعملوا فكل ميسر لما خلق له ".

وقال أرسطاليس: " يمكن صيرورة الأشرار أعيارا بالتأديب إلا أن هذا ليس كليا، فإنه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلا ".

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا وإماطتهما بالكلية فإن ذلك محال لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل، بل المراد ردهما من الإفراط والتفريط إلى

الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور، والاتصاف بحس الحمية، وهو أن يحصل إذا استحسن حصوله شرعا وعقلا، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك. وكذا الحال في صفة الشهوة.

ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال إلى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد، فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية، لوجود قوة النخلية فيه، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد، فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة، لوجود قوة التعديل فيهما، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية، كما لا يمكن لنا إعدام شئ من الموجودات، ولا إيجاد شئ من المعدومات.

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأخلاق، ولذا ترى أن التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسيات والتأديب، فيمكن أن لا يرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب، ويرتفع بمرتبة منه فوقها، والأسهل قبول لكل خلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل، وارتكاب الفضائل، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهي، والثاني أولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحقة، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانيا.

فصل

شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة، تعرف أنها أشرف العلوم وأنفعها لأن شرف كل علم إنما هو بشرف موضوعه أو غايته، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان وإصلاحه على جلود البهائم، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان ولبه، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية، وغايته إكمال وإيصاله

من أول أفق الإنسان إلى آخره، ولكونه ذا عرض عريض متصلا أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة، لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي بين أشخاص هذا النوع في أفراد سائر الأنواع، فإن فيه أخس الموجودات ومنه أشرف الكائنات كما قيل:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت * لدى المجد حتى عد ألف بواحد

وبالفارسية:

أي نقد أصل وفرع ندانم چه گوهری * كز آسمان بلندتر واز خاك كمترى

وإلى ذلك التفاوت يشير قول الرسل صلى الله عليه وآله وسلم: " إني وزنت بأمتي فرجحت بهم " ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها.

وهذا العلم هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتبهما، وبه تتم الإنسانية، ويعرج من حضيض البهيمية إلى ذرى الرتب الملكية، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات إلى أشرفها، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه، ويسمونه بالأكسير الأعظم، وكان أول تعاليمهم، ويبالغون في تدوينه وتعليمه، والبحث عن إجماله وتفصيله، ويعتقدون أن المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم.

وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شرا، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فسادا.

ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالا من العوام مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام، إما لشدة حرصهم على جمع المال، غافلين عن حقيقة المآل، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب، ظنا منهم أنه ترويج للدين والمذهب، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أندية الرجال، إظهارا لتفوقهم على الأقران والأمثال، أو لإطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر وأعاظم الحكماء، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة، ظنا منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال، ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه

وآله وسلم: " قصم ظهري رجلان، عالم متهتك، وجاهل متنسك " ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطانة بتراء " وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه:
وأتو البيوت من أبوابها (٢٨).

فصل

النفس وأسماؤها وقواها الأربع

ما عرفت من تجرد النفس إنما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا إلى الجسم والآلة، فحدها أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته، وهو حقيقة الإنسان وذاته، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات، فيسمى (روحا) لتوقف حياة البدن عليه و (عقلا) لإدراكه المعقولات و (قلبا) لتقلبه في الخواطر، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن.

وله قوى أربع: قوة عقلية ملكية، وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية. و (الأولى) شأنها إدراك حقائق الأمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بأنواع الأذى. و (الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية البهائم من عبودية الفرج والبطن، والحرص على الجماع والأكل. و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع.

والقائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس. وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية، ويقهرها عند انغمارهما في الخداع والشهوات، وإصرارهما عليهما، لأنهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فإنهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة.

----

(٢٨) البقرة الآية ١٢٩.

ولذا قال أفلاطون في صفة السبعية والبهيمية: " أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع " وقال أيضا: " ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلا، فمن لا تطيعه الواهمية والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة، والحمية حتى يقهرهما " فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله، فإن سبل الخيرات مفتوحة، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة.

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٢٩).

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة.

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأول، وشأن الأولى إدراك المعاني الجزئية، وشأن الثانية إدراك الصور، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع، أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الأمر أيضا، وأما من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة، وعلى الأول يكون وجودها خيرا وكمالا، وإن كان وجودها على الثاني شرا وفسادا. والحال في جميع القوى كذلك.

هذا وقيل: ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء، إشارة إلى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية.

والحق أنها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت " مطمئنة "، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي، وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها، وإذا لم تتم

---

(٢٩) العنكبوت الآية: ٦٩.

غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت " لوامة ". وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت " أمارة بالسوء " لأنه لما اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنما هي الآمرة بالسوء.
ثم مثل اجتماع هذه القوى في الإنسان كمثل اجتماع ملك، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد. وكان بينها منازعة، وأيها صار غالبا كان الحكم له، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته، فكان إهاب الإنسان وعاء اجتمع فيه هذه الأربع، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة، والكلب هو القوة الغضبية، فإن الكلب ليس كلبا ومذموما للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية أعني الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح. والقوة الغضبية موجبة لذلك، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة، وإن أطلق عليه اسم الإنسان مجازا. والخنزير هو القوة الشهوية، والشيطان هو القوة الوهمية، والتقريب فيها كما ذكر، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب إحداها، فالغضبية تدعوه إلى الظلم والإيذاء، والبغضاء، والبهيمية تدعوه إلى المنكر والفواحش، والحرص على المآكل والمناكح، والشيطانية تهيج غضب السبعية وشهوة البهيمية، وتزيد (٣٠) فعلهما. وتغري إحداهما بالأخرى، والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة، ونورانيته الباهرة، فإن غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا بإشارته جرى الكل على المنهج الوسط، وظهر العدل في مملكة البدن، وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء، والخنزير في المنكر والفحشاء، والشيطان في استنباط الحيل، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير، فلا يزال في عبادة كلب عقور، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود، فتدركه الهلاكة الأبدية، والشقاوة السرمدية

---

(٣٠) وفي نسختنا الخطية هكذا " تزين ".

ج: ١

إن لم تغثه العناية الإلهية، والرحمة الأزلية.
وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الإنسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق، فالراكب هو العقل، والبهيمة هي الشهوة، والكلب هو الغضب، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان، فإن كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد، واقتحامه في موارد الهلكات وإن كان الكل تحت نهي العين وأمره، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم إلى أيدي السارقين.
وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت إشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين أكل، وصار الجميع كالواحد، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية، فتصلح النفس وقواها.
قد أفلح من زكاها (٣١).
ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى، ويتزايد ذلك إلى أن يؤدي إلى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوبا فتهلك النفس وقواها.
وقد خاب من دساها (٣٢).
(تتميم) لما تبين أن للنفس أربع قوى متخالفة، ولها قوى أخر أيضا كما تبين في العلم الطبيعي، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم، والاختلاف في النفوس إنما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة. إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات، وليس لها فعلية، بل هي محض القوة، ولذا ليس

----

(٣١) الشمس الآية ٩.
(٣٢) الشمس الآية ١٠.

لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوم بها، وتصل إلى ما خلقت لأجله.

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب إحداها لم تدخل النفس في عالمه (٣٣) الذي تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة إلى أن يغلب إحداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من أفق السباع، والشهوية من عالم البهائم، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس إما ملكا أو شيطانا أو كليا أو خنزيرا، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه وآثاره، وانتظمت أحوالها، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها.

ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء في نفس الإنسانية إنما هو قوتها العقلية لأن التدافع إنما بينها وبين سائر القوى، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجادب وإن اختلفت في غلبة ما فيها من القوى، فإن الغلبة في الشياطين للواهمة، وفي السباع للغضب، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع.

فالجامع لعوالم الكل هو الإنسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة، ولذلك صار مظهرا للأسماء المتقابلة الإلهية، وقابلا للخلافة الربانية وقائما بعمارة عالمي الصورة والمعنى.

والملائكة وإن كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الإشراقات العلمية، وتوابعها من اللذات العقلية، إلا أنه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وإن كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة، والكيفيات المتباينة، وليس لها سير في المدارج المتخالفة، والمراتب المتفاوتة، ولا تقلب في أطوار النقص والكمال، ولا تحول في جميع التقاليب والأحوال، بخلاف الإنسان فإنه محيط بجميع المراتب المختلفة، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية

----

(٣٣) في نسختنا الخطبة هكذا " في علله التي تخصها ".

والملكية، وله الترقي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن أفق الملائكة، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت، والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق، قال أمير المؤمنين (ع) " إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب، وخص الحيوانات بهما دونه وشرف الإنسان بإعطاء الجميع، فإن انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم ".

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الإنسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام، فبالجزء الجسماني أقيم في هذا العالم الحسي مدة قصيرة، وبالجزء الروحاني ينتقل إلى العالم العلوي، ويقيم فيه أبدا في مصاحبة الأرواح القدسية، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات. وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة. ويستنير بالنور الإلهي ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها، وأزيلت عنه أستار العوائق الهيولانية برمتها، خلي عن جميع الآلام والحسرات، وكان أبدا مسرورا بذاته، مغتبطا بحاله، مبتهجا بما يرد عليه من فيوضات النور الأول، ولا يسر إلا بتلك اللذات، ولا يغتبط إلا بها، ولا يهش إلا بإظهار الحكمة الحقة بين أهلها، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالا وكلا عليه إلا ما هو ضروري يحتاج إليه بدنه الذي يفتقر إليه في تحصيل كما له، ويحن أبدا إلى مصاحبة الذوات النورية، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه، ولا يتعرض إلا لما يقربه إليه، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية، ولا ينخدع

بخدائع الطبيعة، ولا يلتفت إلى شئ يعوقه عن سعادته، ولا يحزن على فقد محبوب، ولا فوت مطلوب، وإذا صفى من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية، والخواطر الشيطانية بأسرها، وفنى عنه إرادته المتعلقة بالأمور الخارجة. وحينئذ يمتلي من المعارف الإلهية، والشوق الإلهي والبهجة الإلهية، والشعار الإلهي، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه، بل يكون علمه بها أشد إشراقا وظهورا من علمه بها.

وإذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول إلى المرتبة القصوى، ومجاورة الملأ الأعلى فيصل إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويفوز بما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله:

فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين (٣٤).

فصل

الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها

إعلم أن الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة. والسلف من الحكماء قالوا: إن " الخير " على قسمين مطلق ومضاف، والمطلق هو المقصود من إيجاد الكل، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات، والمضاف ما يتوصل به إلى المطلق. و " السعادة " هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية إلى كماله الكامن في جبلته.

وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص والسعادة تختلف بالقياس إليهم.

ثم الظاهر من كلام أرسطاليس إن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معدا لتحصيلها كالتعلم والصحة، أو نافعا فيه كالمكنة والثروة.

وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة إلى النفوس فقط، وقالوا ليس للبدن فيها حظ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الإنسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها، فلا يكون ما يعد كمالا له سعادة للانسان. وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة إلى الشخص حيث التركيب، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه، لأن كل ما يلائم جزءا

----

(٣٤) السجدة الآية: ١٧.

من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة إليه، مع أنه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار، وكثرة الأعوان والأنصار، والبخت المسعود، وغير ذلك مما لا يرجع إلى النفس، ولذا قسموا السعادة إلى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج، وإلى ما يتوصل به إلى إفشاء العوارف، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان، وإلى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة، وإلى ما يتعلق بإنجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل، وإلى ما يرجع إلى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية.

وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة، وبقدر النقصان فيها تنقص. قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب العالية، والإشراقات العلمية، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر.

ثم الأقدمون لذهابهم إلى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن، وملوثة بالكدورات الطبيعية، والشواغل المادية، بل حصولها موقوف عنها، لأن السعادة المطلقة لا تحصيل لها ما لم تصر مشرقة بالإشراقات العقلية، ومضيئة بالأنوار الإلهية، بحيث يطلق عليها اسم التام، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية، والقصورات المادية.

وأما المعلم الأول وأتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضا، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها، واشتغل بتكميل غيره، وما أقبح أن يقال مثله ناقص وإذا مات يصير تاما، فالسعادة لها مراتب، ويحصل للنفس الترقي في مدارجها بالمجاهدة إلى أن تصل إلى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة، وتكون باقية بعدها أيضا.

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الإسلام قالوا إن السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن، وأدناها أن تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل، إلا أن الشوق إلى الثانية، والحرص على اكتسابها يكون أغلب، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر، إلا أنه قد يقع الالتفات إلى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض.

وأما في الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الأمور

البدنية، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة، والعلوم الحقة اليقينية، والوصول إلى مشاهدة جمال الأبد، ومعاينة جلال السرمد. وقالوا إن الأولى لشوبها الزخارف الحسية، ولكدورات الطبيعية ناقصة كدرة، وأما الثانية فدخلوها عنها تامة صافية، لأن المتصف بها يكون أبدا مستنيرا بالأنوار الإلهية، مستضيئا بالأضواء العقلية، مستهترا (٣٥) بذكر الله وأنسه، مستغرقا في بحر عظمته وقدسه، وليس له التفات إلى ما سوى ذلك، ولا يتصور له تحسر على فقده لذة أو محبوب، ولا شوق إلى طلب شئ مرغوب، ولا رغبة إلى أمر من الأمور، ولا رهبة من وقوع محذور، بل يكون منصرفا بجزئه العقلي مقصورا همه على الأمور الإلهية من دون التفات إلى غيرها.

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الأول، من حيث إثبات سعادة للبدن، ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن. وهو " الحق المختار " عندنا، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة إلى السعادة المطلقة سعادة إضافية. ومعلوم أن غرض القائل يكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة أنها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقا، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية، والحطام الدنيوي سعادة، ولو جعلت وسيلة إلى اكتساب سخط الله وعقابه، وحاجبة عن الوصول إلى دار كرامته وثوابه، وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافا تاما، ولا تصل إلى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية. ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف.

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليس إلا المعارف الحقة، والأخلاق الطيبة، والأمر وإن كان كذلك من حيث أن حقيقتهما ما يكون مطلوبا لذاته، وباقيا مع النفس أبدا وهما كذلك، إلا أنه لا ريب في أن ما يترتب عليهما من حب الله وأنسه، والابتهاجات العقلانية، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الاعتبار، وإن لم ينفك عنهما، ومطلوبيته

---

(٣٥) مستهترا به على بناء اسم المفعول أي مولع به لا لمتحدث بغيره.

لذاته أشد وأقوى، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى، وإن كان الجميع خيرا وسعادة. وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال، وأصحاب الكشف والحال، وأخوان الظاهر من أهل المقال، حيث ذهبت (الفرقة الأولى) إلى أن حقيقة السعادة هو العقل والعلم، و (الثانية) إلى أنها العشق، و (الثالثة) إلى أنها الزهد، وترك الدنيا.

فصل

لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى دائما

لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى دائما، فلا تحصل بإصلاحها بعضا دون بعض، ووقتا دون وقت، كما أن الصحة الجسمية، وتدبير المنزل، وسياسة المدن لا تحصل إلا بإصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والأزمان، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن، ولا شكره بورود النوائب والمحن، ولا يقينه بكثرة الشبهات، ولا رضاه بأعظم النكبات، ولا إحسانه بالإساءة، ولا صداقة بالعداوة. وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله، ولو ورد عليه ما ورد على أيوب النبي عليه السلام أو على برناس الحكيم، لشهامة ذاته، ورسوخ أخلاقه وصفاته، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة. بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية، متعال عن تأثير الكواكب والأجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها. أهل التسبيح والتقديس لا يبالون التثليث والتسديس، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات، ولو في الأفلاك وما فيها، كما حصل لفحل الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر ورد الشمس.

وقد ظهر مما ذكر أن من من يجزع بورود المصائب الدنيوية، ويضطرب من الكدورات الطبيعية، ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعداء وترحم

الأحباء، خارج عن زمرة السعداء، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته، وعدم نبله بعد إلى الابتهاجات التي تدفع عن النفس أمثال ذلك.

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهرا بالسعداء لكان في الباطن متألما مضطربا، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهرا وباطنا.

بلغنا الله وجميع الطالبين إلى هذا المقام الشريف.

فصل

غاية السعادة التشبيه بالمبدأ

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الإنسان في صفاته بالمبدأ: بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلا، لا لغرض آخر من جلب منفعة، أو دفع مضرة، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيرا محضا، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية، والأقذار الحيوانية، ولا يحوم حوله شئ من العوارض الطبيعية، والخواطر النفسانية، ويمتلئ من الأنوار الإلهية، والمعارف الحقيقية، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية، ويصير عقلا محضا بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية، بل يصير ظهورها أشد، وانكشافها أتم، وحينئذ يكون له أسوة حسنة بالله سبحانه، في صدور الأفعال وتصير إلهية أي شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنة يقتضي الحسن، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي، فتكون ذاته غاية فعله، وفعله غرضه بعينه، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فإنما يصدر لأجل ذاته، وذات الفعل وإن ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض.

قالوا وإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية، واللذة الحقيقية الذاتية، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم أنها لذة ذاتية، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع وألم.

وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل.

فصل

بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم

لما عرفت أن القوى في الإنسان أربع: قوة نظرية عقلية، وقوة وهمية خيالية، وقوة سبعية غضبية، وقوة بهيمية شهوية - فاعلم أنه بإزاء كل واحدة منها لذة وألم، لأن اللذة إدراك الملائم، والألم إدراك غير الملائم، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لأجله، وألم هو إداركه خلاف مقتضى طبعه:

(بغريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الأمور، فلذتها في المعرفة والعلم، وألمها في الجهل، و (غريزة الغضب) لما خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها، و (غريزة الشهوة) لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن، فلذتها في نيل الغذاء، وألمها في عدم نيله، وهكذا في غيرها، فاللذات والآلام أيضا على أربعة أقسام: العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية.

فاللذة العقلية كالانبساط (٣٦) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وإدراك الذوات المجردة النورية، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل.

واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من إدراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة، والألم الخيالي كإدراك غير الملائمة منها. واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية. واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها. وهذا اللذات والآلام تصل إلى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلا منها يصل إليها بواسطة القوة التي تتعلق بها. والفرق بين الكل ظاهر.

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل.

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن

----

(٣٦) وفي النسخة المخطوطة عندنا " الابتهاج ".

المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس، ففي هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس.
وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما إلى النفس من دون توسط القوة الغضبية.
ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا في الخارج، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما.
ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية، وتتضعف بعضها إلى أن تنتفي بالمرة، ويظهر قبحها عند العقل، وأما العقلية فهي في البداية منتفية، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها، وتتزايد بتزايد القوة العقلية، إلى أن ينتهي إلى أقصى المراتب، ولا يكون لها نقص ولا زوال.
والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الإنسان وسعادته القصوى. والمتشرعون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها، وجعلوا الوصول إلى الأولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا إلى كثيرها. وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه! ولا أدري أن الباكي خوفا من النار وشوقا إلى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب إلى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية، ولا لذة المعرفة بالله وحبه وأنسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين (٣٧) (ص) " إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك ".
وبالجملة لا ريب في أن الإنسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس

---

(٣٧) المعني به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام.

والديدان والهمج من الحيوان، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة.

والعجب من هؤلاء الجماعة (٣٨) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة إليه، ويذعنون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية، وقد اتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول.

والسر فيه أنهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة، وإن كانت ضعيفة، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالا، ويحكم بنورانيتها الذاتية، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة، فيضطرهم إلى إكرام أهل التنزه عن الشهوات، والاستهانة بالمكبين عليها.

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع، مع أن الجميل على الإطلاق يحسن إذاعته، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به. هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (٣٩) فإن ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المني ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالا وخيرا، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالا وخيرا أبدا.

---

(٣٨) المراد هم الذين حضروا اللذات في الحسية والكلام كله في هذا الرأي.

(٣٩) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الإشباع، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لإشباع غريزة حب الاستطلاع إلا أن طلب العلم لا يصل إلى حد الإشباع أبدا، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: " منهومان لا يشبعان طالب علم، وطالب مال " وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالهما فإنها تصل إلى حد الإشباع فتكتفي.

إيقاظ
فيه موعظة ونصيحة

لما عرفت أن الإنسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية، يشارك السباع والبهائم والشياطين - فاعلم أن من غلبت عليه إحدى اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب إليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو.
فأنظر يا حبيبي أين تضع نفسك، فإن الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية، كنت واحدا من البهائم. وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جل ميلك إلى المناصب والرياسات الردية، وإيذاء الناس بالضرب والشتم، وباقي الحركات السبعية، نزلت منزلة السباع. وإن كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول إلى مقتضيات قوتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة. وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدك مقصورا على " أخذ " (٤٠) المعارف الإلهية واقتفاء (٤١) الفضائل الخليقة عرجت إلى أفق الملائكة القادسية. فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جل همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية، وإزالة النقائض الكامنة في نفسه، وليقتصر على الأمور الشهوانية، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة، بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته، ولا يكون قصده منه الالتذاذ، بل سد الضرورة ودفع الألم، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك، فإن تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته، ولا يوجب مهانته وذلته، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة، ويدفع الحر والبرد، فإن تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي إلى حقارته، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه، ويبقي

---

(٤٠) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.
(٤١) في نسختنا الخطبة هكذا " واقتناء ".

نسله، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوتي الشهوة والغضب. لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية. فالله الله في نفوسكم معاشر الأخوان أدركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك، وبادروا إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة، والعادات المفسدة، فإن إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر، والغلبة على النفس الأمارة بعد ضعف الهرم في غاية الإشكال، إلا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة، فإنه خير من التمادي في الباطل، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته.

ولقد قال الشيخ (٤٢) الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو الأستاذ في علم الأخلاق، وأقدم الإسلاميين في تدوينه: " إني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات، وجاهدت جهادا عظيما حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأس أحد من رحمة الله، فإن النجاة لكل طالب مرجوة، وأبواب الإفاضة أبدا مفتوحة " فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل

---

(٤٢) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الأكبر " أبو علي أحمد بن محمد " بن يعقوب ابن مسكويه الخازن " الرازي " الأصل والأصفهاني المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصرا للشيخ أبي علي بن سينا. صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه وكان من خاصته إلى أن اتصل بصحبة " عضد الدولة " البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه ثم اختص بالوزير " ابن العميد " وابنه " أبي الفتح " له مؤلفات كثيرة بعضها في الحكمة ومنه كتاب " الفوز الأكبر " وكتاب " الفوز الأصغر " " وجاويدان خرد " بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في التأريخ ومنه " تجارب الأمم " وبعضها في الأخلاق ومنه كتاب " الطهارة " المشهور وهو الذي قصده " المصنف ره " هنا لأنه أول كتاب صنف في علم الأخلاق، وقد مدحه أستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة " نصير الدين الطوسي " قدس سره بأبيات. وكان (ره) من علمائنا الإمامية قدس الله أسرارهم وقبره (بأصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر أن السيد (الدماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا).

أن يصير الرئيس مرؤسا، والعقل مقهورا، فيفسد جوهركم، وتمسخ حقيقتكم، ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الإنسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين، نعوذ بالله ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها، حتى تصير كلسا (٤٣) لا منفعة فيها.

(تتميم) ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه، فإن ذلك محال، إذ غاية الأمر أن نتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها، وتعيد النفس إلى ما كانت عليه قبل تلك المعصية، فلا تزداد بتلك الحسنة أشرافا وسعادة، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته، وحصلت له درجة في الجنة، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب إلى ما كان عليه قبلها، وهذا نقصان لا حيلة لجبره، ومثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث، إلا أنه لا تزيد به جلاء وصفاء، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا، فإن التصقيل يزيدها صفاء وجلاء، وإلى ما ذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: " من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد إليه أبدا ".

---

(٤٣) الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها.

الباب الثاني
في بيان أقسام الأخلاقي وتفصيل القول فيها
وفيه فصول

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة – حقيقة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري ولوازم الأقوال في العدالة – العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل – دفع أشكال في تقسيم الحكمة – تحقيق الوسط والأطراف – أجناس الرذائل وأنواعها – الفرق بين الفضيلة الرذيلة – العدالة أشرف الفضائل – إصلاح النفس قبل إصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان – لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة – التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي.

فصل

أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة

قد تبين في العلم الطبيعي أن للنفس الناطقة قوتين: " أولاهما ": قوة الإدراك و " ثانيتهما ": قوة التحريك، ولكل منهما شعبتان: (الشعبة الأولى) للأولى العقل النظري، وهو مبدأ التأثر عن المبادئ العالية بقبول الصور العلمية، و (الشعبة الثانية) لها العقل العملي، وهو مبدأ تحريك البدن في الأعمال الجزئية بالرؤية (١). وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبدأ " لحدوث " (٢) بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية. ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق، وقبح الكذب، ونظائرهما. (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة، و (لشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم.

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال، وانتظمت أمور النشأة الإنسانية، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها، فتهذب كل واحد منها، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة، ومن تهذيب العاملة العدالة، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة. وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية.

بطريق آخر

قيل: إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية

---

(١) إذا كان العقل العملي مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة إدراك وفي الحقيقة أن غرضهم من العقل العملي هو إدراك ما ينبغي أن يعمل.

(٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا " الحصول ".

والغضبية، فإن كانت حركاتها على وجه الاعتدال، وكانت الثلاث الأخيرة مطيعة للأولى، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها، حصلت أولا فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الأربع، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع وتمامها، وهي العدالة. وعلى هذا لا تكون العدالة كمالا للقوة العملية فقط، بل تكون كمالا للقوى بأسرها.

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعا: " الحكمة " وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية. " والعفة " هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية، وتتخلص عن أسر عبودية الهوى. " والشجاعة " وهي إطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الإقدام على الأمور الهائلة، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحا، وصبرها محمودا. وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر إلى الطريقين.

وأما " العدالة " فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضا بوجوب إطاعته، أو سياسة قوتي الغضب والشهوة، وحملها على مقتضى الحكمة، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه. وإلى هذا يرجع تعريف الغزالي " إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة، ويحملهما على مقتضى الحكمة، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها " إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية.

وتفسيرها على الطريق الثاني هو إئتلاف جميع القوى، واتفاقها على امتثالها للعاقلة، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به. ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط.

اللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة.

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمرا بسيطا مستلزمة للملكات الثلاث أعني الحكمة والعفة والشجاعة، وعلى الثاني تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر، وإن كانت البساطة أقرب نظرا إلى أن الاعتدال الخلقي بمنزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة، وقد برهن في أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة.

وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى، بحيث كانت الجميع منقادة له، واستعمل كلا منها على ما يقتضيه رأيه، فإن جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة، أو نفس تدبير التصرف في البدن وأمور المنزل والبلد، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط، وإن جعلت نفس الملكات كانت مركبة، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في أعداد الفضائل، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها، وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئا على حدة ونوعا مركبا.

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا أنه على الطريق الأول تكون العدالة علة، والملكات الثلاث معلولة، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها، فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها.

تكملة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور في الطريق الأول، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة

للعقل: العملي على قوتي الغضب شهوة، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري، وأمثال ذلك، وعلى هذه التفاسير اللازمة للأول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فردا لها..

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل، وسياسته إياهما، واستعلائه عليهما. وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها. فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة، بل عن العاقلة أيضا إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها، إلا أن ذلك لا يوجب كونها كمالا له حتى يعد من فضائله، ووجهه ظاهر، ولا كون الضبط المذكور عدالة.

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه، والفضائل الصادرة عن القوى الأخرى بتوسط العقل العقلي إنما تندرج تحت لازم العدالة، لا عينها. فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره إلى اعتبار ما يلزمها، ومن لم يدرجه تحتها نظره إلى عدم اعتباره وعلى هذا لا بأس بأن يقال أن للعدالة إطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم.

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعا، فكما أدرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعا، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضا أنواعا كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها.

وأنت – بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتي الغضب والشهوة – تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها بإحدى الثلاث، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضي استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها إليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى. وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة إليها. ومعلوم أنه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلا،

إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية، أو بقوتي الغضب والشهوة بتوسط العاملة، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى. مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل إليها لزم أن تستند إليها جميع الفضائل، فكان اللازم إدخال جميع الفضائل تحت العدالة. وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر.

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص، فالفضائل التي جعلوها أنواعا مندرجة تحت العدالة بعضها من أنواع الشجاعة أو لوازمها، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع. فنحن لا نتابع القوم، ونجري على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملي، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغي من دون إدخال شئ منها تحت العدالة وضدها.

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال، إما متعلقة بمجرد إحدى القوى الثلاث، أو باثنتين منها، وبالثلاث. ومثال المتعلق بإحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية، أما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث، فأما إن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب: فإنه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم، كان من رذائل قوة الغضب. وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به إلى شهوة البطن والفرج، كان من رذائل قوة الشهوة، وكذا الحسد أعني تمني زوال النعمة عن الغير: إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية. وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة إليه كان من رذائل القوة الشهوية. أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه، كالحسد الذي باعثه العداوة، وتوقع وصول النعمة إليه معا، وكالغرور وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وتمييل النفس إليه بخدعة من الشيطان، فإن النفس إن كانت مائلة بالطبع إلى شئ من مقتضيات

الشهوة، واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوة، وإن كانت مائلة إلى شئ من مقتضيات قوة الغضب. واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب، وإن كانت مائلة إلى شئ من مقتضياتهما معا مع اعتقادها كونه خيرا لها كان من رذائل الثلاث معا.

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وإيجادها، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة، بحيث لو قطع النطر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة، فإن الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في إيجاده وإحداثه، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور. فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثية، أي كانت باعثة لقوة أخرى على إيجاد هذه الصفة وإحداثها، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم تكن متعلقة بها، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لإحداثها وإيجادها، مثل الغضب الحاصل من فقد شئ من مقتضيات شهوة البطن والفرج، وإن كان باعثه قوة الشهوة إلا أنه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثه وإيجاده، بل الإحداث إنما هو من القوة الغضبية، ومدخلية الشهوية إنما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للإحداث والإيجاد، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور أكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها " أو فضائلها " (٣).

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنا نذكر أولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منهما، ثم ما يتعلق بالشهوية منهما، ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث.

---

(٣) لم توجد في نسختنا الخطبة لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.

فصل
العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل
إعلم أن كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من وجه
أما " الأول " فمن حيث أن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول إليه، وأما " الثاني " فمن حيث أن السعادة القصوى وغاية الغايات أعني التحلي بحقائق الموجودات مستندة إليه، وأيضا إدراك ما هو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته.
وقيل: إن إدراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملي، كما صرح به الشيخ في الشفاء بقوله: " إن كمال العقل العملي استنباط الآراء الكلية في الفضائل والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية ".
والحق أن مطلق الإدراك والإرشاد إنما هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح، والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضي لإشاراته وما ينفذ فيه الإشارة فهو قوة الغضب والشهوة.
دفع الإشكال
في تقسيم الحكمة
إن قيل: إن القوم قسموا الحكمة أولا إلى النظرية والعملية، ثم قسموا العملية إلى ثلاثة أقسام: واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي إحداها الحكمة، فيلزم أن تكون الحكمة قسما من نفسها.
قلنا: الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات، سواء كانت لموجودات إلهية أي واقعة بقدرة الباري سبحانه، أو موجودات إنسانية أي واقعة بقدرتنا واختيارنا، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثاني، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق، فإن غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعا لمسألة هي جزؤها بأن يجعل عنوانا فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة، أو طريق اكتسابها كذا.
وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن أحوال الموجودات

موضوعا لمسألة، ويبحث عنه فيه بإثبات صفة له لأجل أنه أيضا من الموجودات كما إنه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات، ويجعل موضوعا لمسألة من مسائله، ولا يلزم من هذا كون الشئ جزءا لنفسه. وأيضا نقول كما أن الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور.

وقيل: في الجواب أن المراد من الحكمة التي هي إحدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصلح، وحينئذ فلا يرد إشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له. وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر، مع أن العدالة أيضا إحدى الفضائل الأربع.

" تنبيه " قد صرح علماء الأخلاق بأن صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها إلى الغير، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخيا بل منفاقا، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعا بل غيورا، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصرا.

والظاهر أن المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح، فإن من تعدى أثره يرجى نفعه، ويخاف ضره، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلبا للنفع، أو دفعا للضرر، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وإن بلغ في الكمال ما بلغ.

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لا ريب. في أنه بإزاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها، ولما عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فأجناس الرذائل أيضا في بادئ النظر أربعة: الجهل، وهو ضد الحكمة، والجبن، وهو ضد الشجاعة، والشره وهو ضد العفة، والجور، وهو ضد العدالة. وعند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حدا معينا، والتجاوز عنه بالإفراط أو التفريط يؤدي إلى الرذيلة، فالفضائل بمنزلة الأوساط، والرذائل بمثابة الأطراف، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد،

والأطراف غير متناهية عددا. فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط، فإن المركز نقطة معينة، مع كونه أبعد النقاط من المحيط، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف إليه.

فعلى هذا يكون بإزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية، لأن الوسط محدود معين، والأطراف غير محدودة، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل، ويكون كل منها أقرب منها إلى النهاية (٤)، ومجرد الانحراف عن الفضيلة من أي طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة. والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين، وهو لا يكون إلا واحدا، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير.

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب. لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الإشكال، وهذا معنى قول الحكماء " إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها، ولزوم الصوب (٥) بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر " ولذلك لما أمر فخر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى:

" فاستقم كما أمرت " (٦).

قال شيبتني سورة هود عليه السلام، إذ وجد أن الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف العير المتناهية المتقابلة مشكل، والثبات عليه بعد الوجدان أشكل.

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة: " إن ما ورد في إشارات النواميس من أن الصراط المستقيم أدق من الشعر، وأحد من السيف إشارة إلى هذا المعنى " وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة، وهتك لأستار السنة

---

(٤) أي أن كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة إلى النهاية.

(٥) الصواب: يقال فلان مستقيم الصوت إذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا.

(٦) هود الآية: ١١٢.

الكريمة. والواجب الإذعان بظاهر ما ورد من أمور الآخرة. نعم يمكن أن يقال كما مر: إن الأمور الأخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما أخبر به، إلا أنها صور للأخلاق، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبى بحسب المرتبة، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت، فمواد ما يؤذي ويريح من الصور في موطن المعاد إنما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة.
وهذا المذهب مما استقر عليه آراء أساطين الحكمة والعرفان، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار، وأشرنا إلى حقيقة الحال فيه. وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق، والجحيم صورة لأطرافها، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التي وعدها الله المتقين، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي أحاطت بالكافرين.
ثم الوسط إما حقيقي وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذي أنكر الأطباء وجوده، أو إضافي وهو أقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص إلى الحقيقي، ويتحقق به كمالهما " اللائق بحالهما " (٧) وإن لم يصل إليه، فالتسمية بالوسط إنما هو بالنسبة إلى الأطراف التي هي أبعد من الحقيقي بالإضافة إليه. وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي أثبتها الأطباء، فإن المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحققها للأنواع والأشخاص، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه، وإن لم يكن اعتدالا حقيقيا بمعنى تساوي الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية إلى الحقيقي بالنسبة إلى سائر الأطراف سمي إضافيا.
ثم الوسط المعتبر هنا هو الإضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان، فربما كانت مرتبة من الوسط الإضافي فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أو

---

(٧) غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطبة أخرى وفي المطبوعة.

وقت، ورذيلة بالنسبة إلى غيره.
وتوضيح الكلام أنه لا ريب في أن الوسط الحقيقي في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة " هي الوسط الحقيقي، إلا أنه لما كانت تلك الفضيلة " (٨) قريبة إليه ولا يمكن وجود الأقرب منها إليه له، يحكم بكونها وسطا إضافيا لأقربيتها إليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الإضافي له عرض، وسطه الاعتدال الحقيقي، وطرفاه طرفا الإفراط والتفريط، إلا أنه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالا إضافيا، وكلما كان أقرب إلى الحقيقي كان أكمل وأقوى، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة.
لا يقال: على هذا ينبغي أن يكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضا كذلك أي له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي، حتى أنه كلما قرب إلى الحقيقي صار الطبي أقوى وأكمل مع أنه ليس الأمر كذلك، إذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي، أو ضعفه لقربه إلى الحقيقي.
" بيان ذلك " أن الاعتدال الحقيقي في المزاج أن تكون أجزاء العناصر متكافئة القوة، والاعتدال الطبي في نوع الإنسان أو شخص من أشخاصه أن تكون الأجزاء الحارة مثلا من عشرة إلى اثني عشرة، والباردة من ثمانية إلى تسعة، واليابسة من سبعة إلى ثمانية، والرطبة من ستة إلى سبعة، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة، والباردة خمسة، واليابسة أربعة، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي، مع صيرورته أقرب إلى الحقيقي، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الأربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضا عنه، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى أنه كلما يصير إليه أقرب يكون أقوى وأكمل.
لأنا نقول نحن لا ندعي: أن الحقيقي وسط الطبي بل هو أمر مغاير له، والحقيقي في طرفه الخارج، فإن له طرفين: " أحدهما " أن تصير

---

(٨) هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا الخطية.

الأجزاء أقرب في التساوي مما كان للطبي إلى أن يبلغ إلى الحقيقي، " والثاني " أن يصير أبعد فيه مما كان له إلى غير النهاية، إلا أن بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل.

فإن قيل: إن الوسط المعتبر هنا إن كان إضافيا، لكان له عرض كعرض المزاج، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة، قلنا: كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الحقيقي، وهي المطلوبة بالذات، ولا ريب في أن خصوص هذه ليس لها عرض واسعة، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وإن لم تكن خالية عن شوائب الإفراط والتفريط، إلا أنه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقيا على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل، كما أن غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال: لكون النوع أو الشخص معه باقيا محفوظا بحيث لا يظهر خلل بين في أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف، ولو وصف هذه المراتب أيضا بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه أن وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضا من صعوبة.

فصل

أجناس الرذائل وأنواعها

قد ظهر مما ذكر أنه بإزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الإفراط والتفريط، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها، لأن وظيفته بيان الأصول والقوانين الكلية، لا إحصاء الأعداد الجزئية.

والقانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط، فيكون بإزاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بإزاء الحكمة " الجربزة والبله ": و (الأول) في طرف الإفراط وهو استعمال الفكر في ما لا ينبغي أو في أقل منه، والأولى أن يصير عنهما (بالسفسطة) أي الحكمة المموهة، و (الجهل) أي البسيط منه، لأن حقيقة الحكمة هو العلم

بحقائق الأشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الأمور هو ضد الحكمة من طرف الإفراط وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلى شئ فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط (واثنان) بإزاء الشجاعة " التهور والجبن ": (الأول) في طرف الإفراط وهو الإقدام على ما ينبغي الحذر عنه، و (الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الإقدام عليه. (واثنان) بإزاء العفة وهما: " الشره والخمود ": و (الأول) في طرف الإفراط وهو الانهماك - اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعا وعقلا، و (الثاني) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن. (واثنان) بإزاء العدالة وهما: " الظلم والانظلام ": و (الأول) في طرف الإفراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق، و (الثاني) في طرف التفريط وهو تسكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة، هكذا قيل.

والحق أن العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها، لها طرف واحد يسمى جورا وظلما، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات، ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون جهة شرعية، لأن العدالة بهذا المعنى - كما عرفت - عبارة عن ضبط العقل العملي جميع القوى تحت إشارة العقل النظري، فهو جامع للكمالات بأسرها، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها، إذ حقيقة الظلم وضع الشئ في غير موضعه، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والأفعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلما، على أن من مكن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة، فقد ظلم نفسه، والظلم على النفس أيضا من أقسام الظلم. هذا هو بيان الطرفين لكل من الأجناس الأربعة للفضيلة.

ثم لكل واحد من أجناس الرذائل والفضائل أنواع ولوازم من الأخلاق والأفعال ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم، وقد ذكروا للعدالة أيضا أنواعا، وقد عرفت فيما تقدم أن تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه

له، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث، أعني العاقلة والغضبية والشهوية، وإن كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط، فنحن ندخل الجميع تحت أجناس القوى الثلاث من غير اندراج شئ منها تحت العدالة، وقد عرفت أن بعضها متعلق بالعاقلة فقط، وبعضها بالقوة الغضبية فقط، وبعضها بالشهوية فقط، وبعضها بالاثنين منها أو الثلاث معا.، فنحن نذكر ذلك في مقامات أربعة.

ولمزيد الإحاطة نشير هنا إجمالا إلى أسماء الأجناس والأنواع واللوازم التي لكل جنس، ونذكر أولا ما يتعلق بالغضبية، ثم

ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها، وتذكر أولا الرذيلة، ثم نشير إلى ضدها من الفضيلة إن كان له اسم، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الأجناس والأنواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة، ونذكر أولا جنسي الرذيلة لكل قوة، ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها، ثم نذكر الأنواع والنتائج على النحو المذكور، أي نذكر أولا الرذيلة بأحكامها " ومعالجاتها " (٩)، ثم نشير إلى ضدها، وما ورد في مدحه ترغيبا للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة.

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير، أو في الفرق والتمييز، أو في الادخال تحت ما جعلوه نوعا له، أو غير ذلك من وجوه الاختلال، فنحن لا نتبعهم في ذلك، ونبينها إدخالا وتمييزا وتعريفا ما يقتضيه النظر الصحيح، فنقول:

أما جنسا الرذيلة للقوة العقلية، " فأولهما " (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الإفراط، و " ثانيهما " (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة)، وأما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما، فمنها (الجهل المركب) وهو منم باب رداءة الكيفية. ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الإفراط على ما قيل، وضد الجهل المركب إدراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين. وبذلك يظهر أن

---

(٩) هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية فقط.

اليقين ضد لكل منهما، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضدا للحيرة، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضدا للجهل المركب، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الاستدلال، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن، أو حصول الخطأ في الاستدلال، أو وجود مانع من إفاضة الحق كعصبية، أو تقليد أو أمثال ذلك، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته، أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب، أو عدم الإحاطة بمقدماته، ومنها (الشرك) وضده التوحيد.
ومنها " الوساوس " النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية، وهذا أيضا من باب رداءة الكيفية، وكان الظاهر أن يعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة، إذ الغالب أنها لا تنفك عن الاختلال فيهما، إلا أنك قد عرفت العذر في ذلك، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته. ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول إلى مقتضيات الشهوة والغضب، وهو من طرف الإفراط.
وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية، فأولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت أن ضدهما من الفضيلة (الشجاعة). وأما الأنواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة، أو من الله وعظمته. والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الأمن من مكر الله، وهو - أي الممدوح من الخوف - يلازم الرجاء وضده الأمن من مكر الله، وهو - أي الممدوح من الخوف - يلازم الرجاء وضده اليأس. ومنها (صغر النفس) أي ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن، وضده كبر النفس أي ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان. ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الأهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس، وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد. ومن جملة الثبات الثبات في الإيمان، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الأمور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم

كبر النفس وشجاعتها، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الأمور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها. ومن أفراد علو الهمة الشهامة، ويأتي تفسيرها. ومنها (عدم الغيرة والحمية) أي الإهمال في محافظة ما يلزم حفظه، وهو أيضا من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر. ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب (١٠) في القلب الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر من دون توقف فيه، وهو أيضا من نتائج صغر النفس وضعفها، وضدها الأناءة والتأني، (التعسف) قريب من العجلة، وضده أعني (التوقف) قريب من الأناءة، ويأتي الفرق بينهما، والوقار يتناول التأني والتوقف، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والأفعال في الابتداء والأثناء، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها. ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس، وربما كان من باب رداءة الكيفية، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس. ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة وهو من باب الإفراط، وضده الحلم. ومنها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب، وضده العفو. ومنها (العنف) وهو أيضا من نتائج الغضب، وضده الرفق. ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو أيضا من نتائجه، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص، ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة، أي إرادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم، وهو أيضا من ثمرات الغضب. ومنها (العداوة) الظاهرة، وضدها (النصيحة) أي إرادة الخير والصلاح، ودفع الشر والفساد عن كل مسلم. ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن. ومنها (العجب) وهو استعظام النفس، وضده انكسارها واستحقارها (١١). ومنها (الكبر) وهو التعظيم الموجب لرؤية النفس فوق الغير، وضده (التواضع) وهو أن لا يرى لنفسه مزية على الغير. ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر. ومنها (البغي) وهو عدم

----

(١٠) الراتب: عيش راتب: أي دائم ثابت.

(١١) من كلمة (منها) إلى قوله و (استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطبة لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى.

الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضا من شعب الكبر. وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد إليه وإطاعته، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة (١٢) ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها. ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب إليه بالباطل والخروج عن الحق. ومنها (كتمان الحق) وضدهما الإنصاف والاستقامة على الحق. ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم أبناء النوع، وضدها الرحمة.

وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فأحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة)، وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا). ومنها (حب المال) وضدها الزهد. ومنها (الغنى) وضده الفقر. ومنها (الحرص) وضده القناعة. ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس. (البخل) وضده السخاء، وتندرج تحته وجوه الإنفاقات بأسرها. ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص. ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الأمانة. ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وأمثالها. ومنها (الخوض في الباطل). ومنها (التكلم بما لا يعني وبالفضول) وضدهما الترك والصمت، أو بالتكلم بما يعني يقدر الضرورة.

وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث، أو باثنتين منها: فمنها (الحسد) وضده النصيحة. ومنها (الإيذاء والإهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم، والإيذاء قريب من الظلم بالمعنى الأخص أو أعم منه، وضد الظلم بالمعنى الأخص العدالة بالمعنى الأخص. ومنها (إخافة المسلم وإدخال الكرب في قلبه) وضدها إزالة الخوف والكرب عنه. ومنها (ترك إعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم. ومنها (المداهنة) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضده السعي فيهما. ومنها (الهجرة والتباعد عن الأخوان) وضده التآلف والتزاور. ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة. ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر إليهما. ومنها (تجسس العيوب)

---

(١٢) من كلمة (منها) إلى قوله و (الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى.
ج: ١

وضده الستر. ومنها (إفشاء السر) وضده الكتمان. ومنها (الافساد بين الناس) وضده الإصلاح بينهم. ومنها (الشماتة بمسلم). ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام. ومنها (السخرية والاستهزاء) أو ضدهما المزاح. ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم. ومنها (الكذب) وضده الصدق، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت. ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول. ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما. ومنها (الريا) وضده الإخلاص. ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية. ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد. ومنها (طول الأمل) وضده قصره. ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الأعم. ومنها (الوقاحة) وضده الحياء. ومنها (الإصرار على المعصية) وضده التوبة، وأقصى مراتبها الإنابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها للإصرار. ومنها (الغفلة) وضدها النية والإرادة.
ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق. ومنها (الكراهة) وضده الحب.
ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب. ومنها (البعد) وضده الأنس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة. ومنها (السخط) وضده الرضا، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضا، بل هو فوق الرضا كما يأتي. ومنها (الحزن) وضده السرور. ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل. ومنها (الكفران) وضده الشكر. ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر. ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته، وضده الطاعة والعبادة، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع) (١٣) من الطهارة، والصلاة، والذكر وتلاوة القرآن، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات. ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الإنفاق، وما سواهما في العبادات.
(تنبيه) إعلم أن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وإدخال البعض في البعض، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه، مما لم يتعرض

---

(١٣) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية.

له علماء الأخلاق، بل إنما تعرضوا لبعضها، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال.

والسر فيه أن كثيرا من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا إليه، فالاختلاف في الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات " وقد عرفت أن ما له جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله، ولا نخصه بواحدة منها ". ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات معدودا من الرذائل، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء، فإن الحب إن كان متعلقا بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموما وإن كان متعلقا بالله وأوليائه كان محمودا معدودا من الفضائل. والخوف إن كان مما لا يخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب، وإن كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل، وإن كان في موقعه كان من الفضائل، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة.

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت إجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة، لها آثار معلومة، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل، وليست بها، فلا بد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضل ويضل، فنقول: قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هي عليه، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة، والأخذ بمثله ليس حكيما، إذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الإذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه، فمثله كمثل الأطفال في التشبه بالرجل، أو بعض الحيوانات في محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال.

وأما فضيلة العفة، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل، حتى يكون تصرفها مقصورا على أمره ونهيه، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه،

وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها، لا شئ آخر من دفع ضر، أو جلب نفع، أو اضطرار وإلجاء، فالإعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من جنسها ليس عفة، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها، أو للحذر من حدوث الأمراض والأسقام، أو اطلاع الناس وتوبيخهم، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي.. إلى غير ذلك.

وأما فضيلة الشجاعة، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة، فالإقدام على الأمور الهائلة، والخوض في الحروب العظيمة، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال، أو الظفر بامرأة ذات جمال، أو للحذر من السلطان ومثله، أو للشهوة بين أبناء جنسه، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن، كما هو شأن عساكر الجائرين، وقاطعي الطرق والسارقين، فمن كان أكثر خوضا في الأهوال، وأشد جرأة على الأبطال للوصول إلى شئ من تلك الأغراض، فهو أكثر جبنا وحرصا، لا أكثر شجاعة ونجدة. وقس على ذلك الوقوع في المهالك والأهوال، تعصبا عن الأقارب والأتباع، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة، فاغتر بذلك ولم يبال بالإقدام اتكالا على العادة الجارية. ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل، فإن عدم الحذر عنه ليس لشجاعته، بل لعجز الطفل. ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والإقدام، فإنه ليس صادرا عن ملكة الشجاعة، بل عن طبيعة القوة والغلبة.

وبالجملة: الشجاع الواقعي ما كانت أفعاله صادرة عن إشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة، فربما كان الحذر عن بعض الأهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة، وربما لم يكن الخوض في بعض الأخطار من موجباته فينافيها، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر

الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة، وإيقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية، أو القاء نفسه من المواضع الشاهقة، أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من أمارات القحة والحماقة.

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك، فمن لا يبالي بذهاب شرفه، وفضيحة أهله وحرمه، فهو من أهل الجنون والحماقة، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة أحسن من الحياة بدونها، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة. على أن الشجاعة في المبادئ ربما كانت مؤذية، وإنما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما إذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة، والذب عن العقائد الحقة، فإن الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأي الصحيح إذا علم أن عمره في معرض الزوال والدثور، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني، فيحامي عن دينه وشريعته، ولا يبالي بما يحذر عنه غيره من أبناء طبيعته، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين، ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياما معدودة، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه: " أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش ".

وبالجملة: كل فعل يصدر عن الشجاع في أي وقت يكون مقتضى للعقل مناسبا لهذا الوقت واقعا في موقعه، وله قوة التحمل على المصائب، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب، ولا يضطرب من شدائد الأمور، ويستخف بما يستعظمه الجمهور، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل، وكان انتقامه مقصورا على على ما يستحسن عقلا وشرعا، ولا يتعدى إلى ما لا ينبغي. وليس مطلق الانتقام مذموما، فربما كان في بعض المواضع مستحسنا عند العقل والشرع، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس

ذبولا لا يرتفع إلا بالانتقام، وربما أدى هذا الذبول إلى بعض الرذائل المهلكة.
وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب، ولا يغلب بعضها على بعض، ولا يقدم على شئ غير ما تسقط له العاقلة. وإنما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة، أو لجلب القلوب، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا.
وقس على ذلك جميع أنواع الفضائل المندرجة تحت الأجناس المذكورة فإنه بإزاء كل منها رذيلة شبيهة بها، فينبغي لطالب السعادة أن يعرفها ويجتنب عنها، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا، دون الأغراض الأخر، فبذل المال لتحصيل الأزيد، أو لدفع الضرر، أو نيل الجاه، للوصول إلى شئ من اللذات الحيوانية ليس سخاء، وكذا بذله لغير المستحق والإسراف في إنفاقه، فإن المبذر جاهل بعظم قدر المال، والاحتياج إليه في مواقع لولاه لأدى إلى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال، وله دخل عظيم في ترويج أحكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (إن الحكمة مع الثروة يقظان، ومع الفقر نائم) (١٤) وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه، وهكذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لا يحتاج إلى كد وعمل، فإن مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه، إذ المكاسب الطيبة قليلة جدا، وارتكابها للأحرار مشكل، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم، وأضدادهم على خلاف ذلك، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان. وقد قال بعض الحكماء: " إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر إلى قلة الجبل وإنفاقه كإطلاقه ".

---

(١٤) كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها.

فصل

العدالة أشرف الفضائل

العدالة أشرف الفضائل وأفضلها، إذ قد عرفت أنها كل الفضائل أو ما يلزمها، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال، ورد الزائد والناقص إلى الوسط، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضي حصول فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة، وذلك كما نحصل الامتزاج والوحدة بين الأشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة فجميع الفضائل مترتبة على العدالة، ولذا قال أفلاطون الإلهي: (العدالة إذا حصلت للانسان أشرق بها كل واحد من أجزاء نفسه، ويستضئ بعضها من بعض، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون، فيحصل لها غاية القرب إلى مبدعها سبحانه).

ومن خواص العدالة وفضيلتها أنها أقرب الصفات إلى الوحدة، وشأنها إخراج الواحد من الكثرات، والتأليف بين المتباينات، والتسوية بين المختلفات، ورد الأشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة إلى التوسط الذي هو الوحدة فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد، وفي غيرها توجد أطراف متخالفة متكاثرة، ولا ريب في أن الوحدة أشرف من الكثرة، وكلما كان الشئ أقرب إليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد، فالمتخالفات إذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت أكمل مما كان، ولذا قيل: كمال كل صفة أن يقارب ضدها، وكما كل شخص أن يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة، وتأثير الأشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة، وجذب الصور الجميلة للنفوس، إنما هو لوحدة التناسب، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى أو غيرها أشرف النسب لقربها إلى الوحدة، وغيرها من النسب يرجع إليها، وبالجملة: اختلاف الأشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد

الكل ومبدؤه، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية، فهو ظل من وحدته الحقة، وكلما كان أقرب إليها يكون أشرف وجودا، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود، لأن تولد المواليد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال، وتعلق النفس الربانية بالبدن إنما هو لحصول نسبة الاعتدال، ولذا يزول تعلقها به بزوالها، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت.

والتحقيق أنها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها، فهي في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي، وفي الأعضاء حسن ظاهري، وفي الكلام فصاحة، وفي الملكات النفسية عدالة، وفي الحركات غنج ودلال، وفي النغمات أبعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى في أي مظهر ظهر، وبأي صورة تجلى، وبأي لباس تلبس.

فإني أحب الحسن حيث وجدته * وللحسن في وجه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجد ما، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق، ويتعطر منها مشام أصحاب التأله والذوق، فتعرض لها إن كنت أهلا لذلك.

وإذا عرفت شرف العدالة وإيجابها للعمل بالمساواة، ورد كل ناقص وزائد إلى الوسط، فاعلم: أنها إما متعلقة بالأخلاق والأفعال، أو بالكرامات وقسمة الأموال، أو بالمعاملات والمعارضات، أو بالأحكام والسياسات.

والعادل في كل واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوي فيه برد الإفراط والتفريط إلى الوسط، ولا ريب في أنه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط، حتى يمكن رد الطرفين إليه، وهذا العلم في غاية الصعوبة، ولا يتيسر إلا بالرجوع إلى ميزان معرف للأوساط في جميع الأشياء، وما هو إلا ميزان الشريعة الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية، فإنها هي المعرفة للأوساط في جميع الأشياء على ما ينبغي، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة

العملية، فالعادل بالحقيقة يجب أن يكون حكيما عالما بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة.
وقد ذكر علماء الأخلاق أن العدول ثلاثة: " الأول " العادل الأكبر، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة. " الثاني " العادل الأوسط، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية والشريعة النبوية فإنه خليفة الشريعة في حفظ المساواة. " الثالث " العادل الصامت، وهو الدينار لأنه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات.
بيان ذلك: أن الإنسان مدني بالطبع فيحتاج بعض أفراده إلى بعض آخر، ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون، فيحتاج الزارع إلى عمل التاجر وبالعكس والنجار إلى عمل الصباغ وبالعكس، وهكذا فتقع بينهم معاوضات، فلا بد من حفظ المساواة بينها دفعا للتنازع والتشاجر، ولا يمكن حفظها بالأعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك، وربما كان أدنى عمل مساويا لعمل كثير كنظر المهندس، وتدبير صاحب الجيش، فإن نظرهما في لحظة واحدة بما ساوى عملا كثيرا لمن يعمل ويحارب، فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الأعمال والأشياء المختلفة، ليحصل الاعتدال والاستواء، ويتبين وجه الأخذ والإعطاء، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطا ولا تفريطا قيل: وقد أشير إلى العدول الثلاثة في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه:
(وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (١٥).
فإن الكتاب إشارة إلى الشريعة، والميزان إلى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط.
هذا والمقابل المعادل - أعني الجائر المبطل للتساوي أيضا - أما جائر أعظم - وهو الخارج عن حكم الشريعة - ويسمى كافرا - أو جائر أوسط - وهو من لا يطيع عدول الحكام في الأحكام - ويسمى طاغيا وباغيا - أو

----

(١٥) الحديث: الآية: ٢٥.

جائر أصغر - وهو من لا يقوم عني حكم الدينار، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه - ويسمى سارقا وخائنا -.
ثم العدالة على أقسام ثلاثة:
" أحدها " ما يجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه، فإنها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الإمكان، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج إليه كل حي من الأرزاق والأقوات، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وما من يوم إلا ويصل إلينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعده، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة، إذ من أعطي خيرا ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر.
ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص، فإن ما يؤدي به حق إحسان السلطان غير ما يؤدي به حق إحسان غيره، فإن مقابلة إحسانه إنما تكون بمثل بالدعاء ونشر المحاسن، ومقابلة إحسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك. والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعينا، ولا يحتاج إلى شئ من أعمالنا وأفعالنا، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة، كمعرفته ومحبته، وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة، والسعي إلى المواقف الشريفة وغير ذلك وإن كان التوفيق لإدراك ذلك كله من جملة نعمائه، إلا أن العبد إذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات، وترك ما تقتضي الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه أنه جائر مطلق، وإن كان أصل تمكنه واختياره، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه.
" الثاني " ما يجري بين الناس بعضهم لبعض: من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء وإغاثة المظلومين والضعفاء، فهذا القسم من العدالة يقتضي أن يرضى بحقه، ولا يظلم أحدا، ويقيم كل واحد من أبناء نوعه على حقه بقدر الإمكان، لئلا يجور

بعضهم بعضا، ويؤدي حقوق أخوانه المؤمنين بحسب استطاعته. وقد ورد في الحديث النبوي: " إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقا لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم غربته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عظمته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر إنعامه، ويصدق أقسامه، ويواليه ولا يعاديه، وينصره ظالما أو مظلوما، فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوما فيعينه ظلمه، وأما نصرته مظلوما فيعينه على أخذ حقه، ولا يسأمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ".

" الثالث " ما يجري بين الأحياء وذوي حقوقهم من الأموات: من أداء ديونهم وإنفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء. وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: " التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله "، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر آخر: " الدين النصيحة. قيل لمن؟ قال: لله ولرسوله ولعامة المؤمنين ".

إيقاظ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وأفعاله الباطنة والظاهرة، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الأشياء المتخالفة، والتثبت على مركز الأطراف المتباعدة. فكن يا حبيبي جامعا للكمالات، متوسطا بين مراتب السعادات، ومركزا لدائرة نيل الإفاضات. فكن أولا متوسطا بين العلم والعمل جامعا بينهما بقدر الإمكان، ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحدا من الرجلين القاصمين (١٦)

---

(١٦) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك).

لظهر فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم. وكن في العمل متوسطا بين حفظ الظاهر والباطن، فلا تكن في باطنك خبيثا وظاهرك نقيا، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدليسات، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات، بل ينبغي أن يكون ظاهرك مرآة لباطنك حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة. وكن في جميع ملكاتك الباطنة وأفعالك الظاهرة متوسطا بين الإفراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب. ثم كن في العلوم متوسطا بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية، فلا تكن من الذين قصروا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم إلى الإلحاد والزندقة، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الأنبياء إلى الجهل والبطالة. ثم كن في العقليات متوسطا بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب، فتوسط بين الحكمة والكلام والإشراق والعرفان، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة، فلا تكن متكلما صرفا لا تعرف سوى الجدل، ولا مشائيا محضا أضاع الدين وأهمل، ولا متصوفا استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان. وكن في العلوم الشرعية متوسطا بين الأصول والفروع، فلا تكن إخباريا تاركا للقواعد القطعية، ولا أصوليا عاملا بقياسات عامية. وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة، واعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد.

دفع إشكال

إن قيل: قد تلخص مما ذكر: أن الفضيلة في جميع الأخلاق والصفات إنما هو المساواة من غير زيادة ونقصان، مع إنه قد ثبت أن للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة. (قلنا): التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد، فإن الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى

الإسراف أحسن من النقصان عنه، وأشبه بالمحافظة على شرائطه، فالتفضل إنما يصدر عن فضيلة العدالة، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها، إذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه، وهذه الزيادة ليست مذمومة بل هي العدالة مع الاحتياط فيها، ولذا قيل: " إن المتفضل أفضل من العادل "، والمذموم أن يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين لأنه أنفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي، وصاحبه لا يسمى متفضلا بل مضيعا، ولكون التفضل احتياطا إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضيل.

تتميم

قد تلخص أن حقيقة العدالة أو لازمها أن يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلا منها فيما يقتضي رأيه، فلا يفسد نظام العالم الإنساني، فإن الواجب سبحانه لما ركب الإنسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة عن القوى الكثيرة المتضادة، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر، وجذبه كل واحدة منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه، كما هو الشأن في كل مركب. وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها. فيجب على كل إنسان أن يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم.

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من إجراء أحكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد، إذ العاجز عن إصلاح نفسه كيف يقدر على إصلاح غيره، فإن السراج الذي لا يضئ قريبه كيف يضيئ بعيده، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جادة في أرضه، وإذا كان مثله حاكما بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره، لتنورت البلاد بأهلها، وصلحت أمور العباد بأسرها، وزاد

الحرث والنسل، ودامت بركات السماء والأرض.
وغير خفي أن أشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال، ومع جور السلطان أمواج الفتن متلاطمة، وأفراج المحن متراكمة، وعوائق الزمان متزاحمة، وبوائق (١٧) الحدثان متصادمة، وطالبو الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون إلى منازله سبيلا ولا إلى جداوله مرشدا ودليلا، وعرصات العلم والعمل دراسة الآثار، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات، أعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لأفراد الإنسان.
ولذا لو تصفحت في أمثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد، لم تجد من الألوف واحدا تمكن من إصلاح نفسه ويكون يومه خيرا من أمسه، بل لا تجد دينا إلا وهو باك على فقد الإسلام وأهله، ولا طالبا إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله، ولعمري أن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من أنه: " لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه ".
وبالجملة: المناط كل المناط في تحصيل الكمالات وإخراج النفوس من الجهالات، هو عدالة السلطان، واعتناؤه بإعلاء الكلمة، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة، ولذا ورد في الآثار: (إن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية، وإن كان جائرا كان سهيما في معاصيهم). وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم: " أقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم ".
وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: " عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ". والسر أن أثر عدل ساعة واحدة ربما يصل إلى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار، وقال بعض الأكابر: لو علمت أنه يستجيب

---

(١٧) البائقة: الداهية والشر. ويقال: رفعت بائقة فلان أي غائلته وشره، جمعه بوائق.

لي دعوة واحدة لخصصتها بإصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه.

تنوير

لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى سلسلة العدالة، فإن أهل الوداد والمحبة في مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة، فكيف يجور بعضهم على بعض. والسر أن رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية، والعدالة وحدة قهرية قسرية. على أنها لا تنتظم بدون المحبة، لكونها باعثة للإيجاد، كما أشير إليه في الحديث القدسي: " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ". فالمحبة هو السلطان المطلق، والعدالة نائبها وخليفتها (١٨).

وصل

التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي أن لا يتعدى عنه. وبيان ذلك: أن مبادئ الحركات المؤدية إلى الكمالات: إما طبيعية كحركة النطفة في الأطوار المختلفة إلى بلوغ كمال الحيوانية، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات إلى بلوغ كمال السريرية. ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها إلى المبادئ العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة إلى الإنسان، ولما كان كمال الثواني أن تتشبه بالأوائل، ينبغي أن تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية إلى كمالها بالطبيعية.

وإذ ثبت ذلك فاعلم: أن تهذيب الأخلاق لما كان أمرا صناعيا لزم أن يقتضي في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها، فنقول: لا ريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ

---

(١٨) ولذلك إن الشريعة الإسلامية أول ما دعت فيما دعت إلى الأخوة والتآلف بين الناس، وكثير من أحكامها مثل الجماعة والجمعة والإيثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف إيجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والأفراد، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر.

بعض الصور يطلب صورة الأم أو الظئر (١٩)، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية. ونهاية هذه القوة وكمالها أن يتم ما يتعلق بالشخص من الأمور الشهوية وينبعث منه الميل إلى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاح. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره.
وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والإقدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل إلى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات.
ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد إلى أن يتمكن من تعقل الكليات.
وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعي، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقي على هذه الحالة، ولم يبلغ إلى الكمال الحقيقي الذي خلق الإنسان لأجله، لأنه لم يخلق أحد مجبولا على الإنصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أيد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس أكثر استعدادا لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر، فلا بد لجل الأنام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.
فظهر مما ذكر: إن الطبيعة تولد أولا قوة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعي، فيهذب أولا القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمي كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن أن تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب بالنسبة إلى تحصيله بالترتيب، فإن عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما إن الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه. فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول إلى ما هو المقصد والمطلب.
ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وإبقائها، وإن لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بإزالة الضد. ولذا كان فن الأخلاق على قسمين: (أحدهما) راجع إلى حفظ الفضائل، (وثانيهما)

---

(١٩) يريد بها المرضعة.

نافع في دفع الرذائل، فيكون شبيها بعلم الطب، من حيث انقسامه إلى قسمين: (أحدهما) في حفظ الصحة، (وثانيهما) في دفع المرض، ولذا يسمى طبا روحانيا، كما إن الطب المتعارف يسمى طبا جسمانيا. ومن هنا كتب جالينوس إلى روح الله (ع): " من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس ". فكما إن لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني عاجلا خاصا، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وإزالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث
في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها
بإزالة نقائضها المذمومة
الطريق لحفظ اعتدال الفضائل – قانون العلاج في الطب الروحاني – طريقة معرفة الأمراض النفسية – المعالجات الكلية لأمراض النفس – المعالجات الخاصة لأمراض النفس. وله أربعة مقامات:
(الأول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل
(الثاني) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.
(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.
(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها.

وفيه فصول (١):

فصل

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بإيراد المثل وملائم المزاج، فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل أيضا بذلك. وإيراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بأمور:

" منها " اختيار مصاحبة الأخيار، والمعاشرة مع أولي الفضائل الخلقية، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيئة، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومزخرفاتهم، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه، فإن الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر.

والسر: أن النفس الإنسانية ذات قوى بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والرذائل، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال إليه وغلب على صاحبه إلى الخير، ولكون دواعي الشر من القوى أكثر من بواعث الخير منها، يكون الميل إلى الشر أسرع وأسهل بالنسبة إلى الميل إلى الخير، ولذا قيل: إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الأعالي، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها. وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ".

" ومنها " أعمال القوى في شرائف الصفات، والمواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملكات، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على إنفاق المال وبذله على المستحقين، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها إلى الامساك، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الإقدام في الأخطار والأهوال بشرط إشارة العقل، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها. وهكذا الحال في سائر الصفات. وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية.

---

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الأربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الأخلاق.

" ومنها " أن يقدم التروي على كل ما يفعله، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة. ولو صدر عنه أحيانا خلاف مقتضاها، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده، ويشق عليها عقوبة، بعد تعييرها وتوبيخها، كما إذا أكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم، وإذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدبها بإيقاعها في مثلها مع الصبر عليها، أو في معرض إهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤديها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك. وينبغي ألا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وإن بلغ الغاية، لأن التعطيل يؤدي إلى الكسالة وهي إلى انقطاع فيوضات عالم القدس، فتنسلخ الصورة الإنسانية وتحصل الهلاكة الأبدية، والسعي يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والأنس بالحق والألف بالصدق (٢)، فيتنفر عن الكذب والباطل، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات، حتى تنكشف له الأسرار الإلهية والغوامض الربانية، ويتشبه بالروحانيات القادسة، وينخرط في سلك الملائكة المقدسة. ويجب أن يكون سعيه في أمور الدنيا بقدر الضرورة، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد، لأنه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخزف الفاني الظلماني الذي يفوت عنه وينتقل إلى أعدائه من الوراث وغيرهم.

" ومنها " أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعا وتخيلا، ومن هيجهما كمن هيج كلبا عقورا أو فرسا شموسا، ثم يضطر إلى تدبير الخلاص عنه. وإذا تحركنا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة، وهو القدر الذي جوزه العقل والشريعة.

" ومنها " أن يستقصي في طلب خفايا عيوب نفسه، وإذا عثر على شئ منها اجتهد في إزالته. ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها، فكثيرا ما يخفى عليها بعض عيوبها، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض أصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه، وإذا أخبره بشئ منها فليفرح وليبادر إلى إزالته حتى يثق صديقه بقوله، ويعلم أن إهداء شئ من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه، وربما كان العدو

---

(٢) كذا في النسخ. والصحيح " للصدق ".

في هذا الباب أنفع من الصديق، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره، والعدو مصر على إظهاره، بل ربما يتجاوز إلى البهتان، فإذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر إلى رفعها وقمعها.
ومما ينفع في المقام أن يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحا ويدرك غيره هذا القبح، فليجتهد في إزالته. وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة، ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيهما، فإن لم يصدر عنه شئ من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده، وإن صدر عنه شئ من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله.

قانون العلاج في الطب الروحاني

" تنبيه " قد تبين أن للطلب الروحاني أساس أسوة بالطب الجسماني. والقانون في معالجة الأمراض الجسمانية أن يعرف جنس المرض أولا، ثم الأسباب والعلامات، ثم يبين كيفية العلاج. والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الأمراض، أو جزئي يختص بمرض دون مرض، فكذلك الحال في الطب الروحاني. ونحن نشير إلى ذلك في فصول:

فصل

طريق معرفة الأمراض النفسانية

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال. وطريق معرفتها: أنك قد عرفت أن القوى الإنسانية محصورة في أنواع ثلاثة: (أحدها) قوة التمييز، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب. وانحراف كل منها إما في الكمية أو في الكيفية، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه. والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها. فأمراض كل قوة إما بحسب الإفراط أو التفريط، أو بحسب رداءة الكيفية.
فالافراط في قوة التمييز: كالجربزة والدهاء، والتجاوز عن حد النظر،

والمبالغة في التنقير (٣)، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية، والحكم على المجردات بقوة الوهم. وأعمال الذهن في إدراك ما لا يمكن دركه، والتفريط فيه كالبلاهة، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب، كإجراء أحكام المحسوسات على المجردات. والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد، والميل إلى العلوم الغير اليقينية - كعلم الجدل والخلاف - أزيد مما يميل إلى اليقينيات، واستعمالهما في مقام اليقينيات، والشوق إلى علم الكهانة والشعبذة وأمثالهما للوصول إلى الشهوات الخسيسة.

وأما الإفراط في قوة الدفع: كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع. وأما التفريط: كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات. وأما الرداءة فيها: كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام.

وأما الإفراط في قوة الجذب: فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة. والتفريط فيه: فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل. أما الرداءة فيها: كشهوة الطين والميل إلى مقاربة الذكور.

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر، وبحسب الكيفية أربعة، ويحصل من تركيبها وامتزاجها أنواع وأصناف لا يعد كثرة، كما عرفت أكثرها.

فصل

أسباب الأمراض النفسانية

إعلم أن أسباب الانحراف في الأخلاق، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها، أو حادثة من مزاولتها للأعمال الردية، أو جسمية - وهي الأمراض الموجبة لبعض الملكات الردية - والسر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر، وكل كيفية تحدث في أحدهما تسري في الآخر، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه، وتأثر البدن بالأمراض، (لا) سيما إذا حدثت

---

(٣) التنقير: البحث والتتبع.

في الأعضاء الرئيسية يوجب النقص في إدراك النفس وفساد تخيلها. وكثيرا ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن، ومن بعضها التهور، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق.

فصل

المعالجات الكلية لمرض النفس

سبب الانحراف إن كان مرضا جسمانيا فيجب أن يبادر إلى إزالته بالمعالجات الطبية، وإن كان نفسانيا فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني. والمعالجة الكلية فيه أن يعالج المرض أولا بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعا، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار، فإن لم ينفع فبالدواء، وإن لم ينجع فبالسمومات، وإن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع، وهو آخر العلاج. فالقانون الكلي في المعالجة هنا أيضا كذلك، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده، والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض. فكما أن حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها. فإن لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكرا أو قولا أو عملا، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال: أيتها النفس الأمارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار. فإن لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة، بشرط محافظة التعديل، فصاحب الجبن مثلا يعمل أعمال المتهورين، فيخوض في المخاوف والأهوال ويلقي نفسه في موارد الحذر والأخطار. وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والإسراف، وهذا بمنزلة المداواة بالسم. فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة، وهذا بمثابة الكي والقطع، وهو آخر العلاج.

المعالجات الخاصة لمرض النفس

" تنبيه " لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها

وأنواعها وأصنافها، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه.
وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور، فههنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شئ على إزالة ما يضادها من الرذيلة. وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منها، فنحن نشير إلى ذلك، ونشير أيضا في تلو كل رذيلة وفضيلة إلى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته - إن كان له ذلك - ونراعي الترتيب المذكور في مقام الإجمال: فنذكر أولا ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها، فهنا أربعة مقامات:

المقام الأول

في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة

الجربزة وعلاجها - الجهل البسيط وعلاجه - شرف العلم والحكمة - آداب التعلم والتعليم - العلم الإلهي والأخلاق والفقه أشرف العلوم - أصول العقائد المجمع عليها - الجهل المركب والشك - اليقين - علامات صاحبه - مراتب اليقين - الشرك - التوحيد - التوكل على الله - حق التوكل بماذا يحصل - مناجاة السر لأرباب القلوب - الخواطر النفسانية والوساوس - أقسام الخواطر ومنها الإلهام - المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس - العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة - علاج الوساوس - ما يتم به علاج الوساوس - ما يتوقف قطع الوساوس عليه - حديث النفس لا مؤاخذة عليه - الخاطر المحمود والتفكر - مجاري التفكر في العوالم والمخلوقات.

أما جنسا رذائلها (٤) (فأولهما):
الجربزة
الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقالة الذهن على شئ، بل لا يزال يستخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه، وربما أدى في العقليات إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد، بل إلى نفي حقائق الأشياء رأسا كما للسوفسطائية، وفي الشرعيات إلى الوساوس. (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند أولي الأفهام المستقيمة، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط. وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك.
(وثانيهما):
الجهل البسيط
وقد عرفت أنه من باب التفريط، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة. وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها. وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة. والطريق في إزالته أمور: (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس إنسانا بالحقيقة، وإنما يطلق عليه الإنسان مجازا، إذ فضل الإنسان عن سائر الحيوانات إنما هو إدراك الكلي المعبر عنه بالعلم، لمشاركتها معه في سائر الأمور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك، فلولا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيوانا بالحقيقة، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة إليهم. وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الإنسانية والدخول في حد البهيمية. (الثاني) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " ستة يدخلون في النار

----
(٤) أي القوة العاقلة.

قبل الحساب لستة " وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة. (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره. وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة، ويصرف في إزالته الهمة، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه، ويصرف فيه أيامه ولياليه.

فصل

شرف العلم والحكمة

قد علم أن ضد الجنسين - أي الجربزة والسفسطة والجهل - هو الحكمة، أعني العلم بحقائق الأشياء. فلنذكر أولا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا، ترغيبا للطالبين على السعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لا ريب في أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الألوهية، وهو الموصل إلى جوار رب العالمين والدخول في أفق الملائكة المقربين، وهو المؤدي إلى دار المقامة التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول، وقد تطابق العقل والبرهان وإجماع أرباب الأديان على: أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه لا يتيسران بدونه، وأي شئ أفضل مما هو ذريعة إليهما. وأيضا قد ثبت في الحكمة المتعالية: إن العلم والتجرد متلازمان، فكلما تزداد النفس علما تزداد تجردا، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى.

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لإيجاد العلم العلوي والسفلى، كما دل عليه الخبر القدسي: " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ". على أن العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج فلما يحصل من غيره. والسر فيه أن إدراك الأشياء والإحاطة بها نوع تملك وتصرف لها، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الأعيان المبائنة لذات المالك الزائلة عنه. والتحقيق: أن إطلاق الملكية عليه مجازي، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على

الأشياء والمالكية لها بأي نحو كان، إذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء.

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار، فإن طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العم وتوقيرهم ووجوب إطاعتهم واحترامهم، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له، لاختصاصه بقوة الإدراك ومزيد التمييز. ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحدا له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع إلى اختصاصه بمزيد تمييز وإدراك، ولو كان من باب المكر والحيل.

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى.

نبذة منها قوله تعالى:

" إنما يخشى الله من عباده العلماء " (٥).

وقوله تعالى:

" هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٦).

وقوله تعالى:

" ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " (٧).

وقوله تعالى:

" وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (٨).

وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: " اللهم ارحم خلفائي. قيل: يا رسول الله: من خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي ". وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبي ذر: " جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام ألف ليلة يصلى في كل ليلة ألف ركعة وأحب إليه من ألف غزوة، ومن قراءة القرآن كله اثنى عشر

---

(٥) الفاطر، الآية: ٢٨.

(٦) الزمر، الآية: ٩.

(٧) البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٨) العنكبوت، الآية: ٤٣.

ألف مرة، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها، ومن خرج من بيته ليلتمس باب من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون، ولا يحب العلم إلا السعيد، وطوبى لطالب العلم، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة، ومن أحب العلم وجبت له الجنة، ويصبح ويمسي في رضى الله، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة، ولا يأكل الدود جسده، ويكون في الجنة رفيق خضر (ع) ".

وقول أمير المؤمنين: " إن كمال الدين طلب العلم والعمل به، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم، وقد ضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه ". وقوله (ع): " إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة سترا بينه وبين النار، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات ".

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين - عليهما السلام -: " لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه، ولو بسفك المهج وخوض اللجج ".

وقول الباقر (ع): " عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد ". وقول الصادق " لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إن معرفة الله تعالى أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم، قد كان قوم قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عماهم عليه شئ مما هو فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم: " إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " (٩).

---

(٩) البروج، الآية: ٨.

فاسألوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم ".
وعن الرضا (ع) عن آبائه - عليهم السلام - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: " طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، واقتبسوه من أهله، فإن تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، - والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء. والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما، ويجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه. إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والأولى. الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام. وبه يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام. العلم إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه ".

آداب التعلم والتعليم

(تنبيه) لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط:

(أما آداب التعلم):

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا. ولقد قال بعض الأكابر: " كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من إدراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الإنسية ".

(ومنها) أن يكون تعلمه لمجرد التقرب إلى الله والفوز بالسعادات

الأخروية، ولم يكن باعثه شيئا من المراء والمجادلة، والمباهاة والمفاخرة، والوصول إلى جاه ومال، أو التفوق على الأقران والأمثال. قال الباقر عليه السلام: " من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها ". وقال الصادق (ع): " طلبة العلم ثلاثة، فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل (١٠) والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل. فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم، وقد تسر بل بالخشوع وتخلى من الورع، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه. وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوانهم (١١) هاضم ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره. وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقا مقبلا على شأنه عارفا بأهل زمانه مستوحشا من أوثق أخوانه، فشد الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه ".

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم، فإن من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم. وقال الصادق (ع): " العلم مقرون إلى العمل، من علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه ". وعن السجاد (ع): " مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفرا ولم يزدده من الله إلا بعدا ". وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: " من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد به الدنيا فهي حظه ". وعنه

---

(١٠) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة.

(١١) قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) تعليقته على أصول الكافي عن هذا الحديث " الحلوان - بضم الحاء المهملة وسكون اللام - ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الأجر والرشوة على أعمالهم، يقال: حلوته أحلوه حلوانا، فهو مصدر كالغفران، ونونه زائدة، وصله من الحلاوة، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) - بالهمزة بعد الألف - والحلوا. - بالمد والقصر - ما يتخذ من الحلاوة ".

- صلى الله عليه وآله وسلم: " العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا تاج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الجنة، وأدخل الداعي النار بترك عمله (١٧) واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة ".

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والأدب للمعلم، ولا يرد عليه شيئا بالمواجهة، ويكون محبا له يقلبه، ولا ينسى حقوقه، لأنه والده المعنوي الروحاني، وهو أعظم الآباء الثلاثة. قال الصادق (ع): " أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم ".

هذا وقد أشرنا سابقا إلى أن اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه أولا من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف بأسرها، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية.

(فمنها) أن يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوي من طمع مالي أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس، بل يكون الباعث مجرد التقرب إلى الله تعالى والوصول إلى المثوبات الأبدية، فإن من علم غيره علما كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره... وهكذا إلى غير النهاية، فيصل بتعليم واحد إلى مثوبات التعاليم الغير المتناهية، وكفى بهذا له فضلا وشرفا.

(ومنها) أن يكون مشفقا على المتعلم ناصحا له، مقتصرا في الإفادة على قدر فهمه، متكلما معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة.

(ومنها) أن لا يضمن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله، لأن بذل

---

(١٢) صححناه على بعض نسخ أصول الكافي المصححة وفي نسخ جامع السعادات هكذا: (بتركه علمه).

الحكمة للجهال ظلم عليها، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم، كما ورد في الخبر (١٣).
(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع إليه ويعلمه، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع. وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتي والقاضي وأمثالهما. وقال الباقر (ع): " حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عنه ما لا يعلمون " (١٤) وقال الصادق (ع): " إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه: ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا، فقال:
" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق " (١٥).
وقال: " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله " (١٦).
وعنه (ع): " إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم، فليقل: لا أدري، ولا يقل: الله أعلم، فيوقع في قلب صاحبه شكا. وإذا قال المسؤول: لا أدري، فلا يتهمه السائل " وعنه (ع): " إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك. إياك أن تفتى الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم ". وعن الباقر (ع):
" من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه ".
وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق. ثم العارف بأهل زماننا يعلم أن آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان: " قد فسد الزمان وأهله، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه، واندرست مراسمه بين طلابه ".

---

(١٣) روي في أصول الكافي في باب بذل العلم عن الصادق - عليه السلام -:
" قام عيسى بن مريم خطيبا في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل! لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ".
(١٤) الحديث المروي في أصول الكافي هكذا: " عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر - عليه السلام - ماحق الله على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون... " إلى آخر الحديث.
(١٥) الأعراف، الآية: ١٦٩.
(١٦) يونس، الآية: ٣٩.

تتميم

العلم الإلهي وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة، إلا أن فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه، فإن بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وأمثالها، مما ترجع جل فائدته إلى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة، ولا يجب تحصيلها، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية.

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهي المعرف لأصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة. وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها إجمالا إلا أنها في كيفية الأخذ مختلفة: فعلم الأخلاق يجب أخذه عينا على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عينا إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي، والتارك للطريقين غير معذور، ولذا ورد الحث الأكيد عن التفقه في الدين قال الصادق (ع): " عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعرابا، فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يزك له عملا "، وقال: " ليت السياط على رؤس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام "، وقال (ع): " إن آية الكذاب أن يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب، فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شئ ".

وأما أصول العقائد فيجب أخذها عينا من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر، فلا يرد حكمه، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد: " إنه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل " (١٧).

---

(١٧) هذا الحديث رواه في أصول الكافي عن النبي - صلى الله عليه
ج: ١

فهما متعاضدان ومتظاهران، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضا، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفا لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج. وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينها إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإن كل عقل ليس تاما، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتا منه، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعا من الشريعة، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي. ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعانا وإن لم نعرف مأخذه العقلي.

أصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الأمة المختارة عليه من أصول العقائد هو: أن الواجب سبحانه موجود، وإنه واحد في الألوهية، وبسيط عن شوائب التركيب، ومنزه عن الجسمية وعوارضها، وإن وجوده وصفاته عين ذاته، وإنه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما، وإنه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء، وعلمه بها بعد إيجادها كعلمه بها قبله، ولا يزداد بإحداثها علما، وإن قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات، وإنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يكون شئ إلا بمشيئته، وإنه عدل في حكمه صادق في وعده. وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية، وليس كمثله شئ، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله، بل هو تام فوق التمام.

وإن القرآن كلامه، ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسوله، ما أتى به من أمور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب.

وآله - في كتاب العقل والجهل فصححناه عليه، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا.

ثم إن المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقينا (١٨)، وبعضهم على يقين دون ذلك، وأقل هؤلاء رتبة أن تصل مرتبة يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات وإلقاء النقيض، وإلى هذا الاختلاف أشار الإمام محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - بقوله: " إن المؤمنين على منازل: منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، وعلى صاحب الثنتين ثلاثا لم يقو.. إلى آخره " (١٩). والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله: " إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه ".

ولا ريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة أخذها مما لا بد منه لكل مكلف، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الأخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين. ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح، وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية، بل كان حاصلا من دليل إجمالي برهاني أو اقناعي، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية، بمجرد أن عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس، كان كافيا في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين. وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما

---

(١٨) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام -: " لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا ".

(١٩) الحديث مروي في أصول الكافي في باب درجات الإيمان وبقيته: " وعلى صاحب الثلاث أربعا لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمسا لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستا لم يقو، وعلى صاحب الست سبعا لم يقو... وعلى هذه الدرجات ".

اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء، وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ. وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائنا ما كان.

قال العلامة (الطوسي) - ره - في بعض تصانيفه: " أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم إذا صدق الرسول ينبغي أن يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان: أما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وأما في الآخرة فبالإيمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات، وإن الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا، فإن غلب على قلبه شك أو إشكال، فإن أمكن إزالته بكلام قريب من الأفهام وإن لم يكن قويا عند المتكلمين ولا مرضيا فذلك كاف، ولا حاجة إلى تحقيق الدليل، فإن الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن إدراك جوابها، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقا لا يحتمله عقله، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام، وإنما زجر ضعفاء العوام، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الإشكالات. ومنع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطئ دجلة خوفا من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه أيضا هي رخصة الماهر في صنعة السباحة، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم، وهو إن كل ضعيف في عقله يظن أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها، وإنه من جملة الأقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات منم حيث لا يشعرون، فالصواب منع الخلق كلهم - إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين - من تجاوز سلوك أهل العلم في الإيمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما أنزل الله وأخبر به رسول الله (ص) فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل، إذ قال رسول الله (ص) حين رأى أصحابه يخوضون، بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه: أفبهذا أمرتم؟ تضربون

كتاب الله بعضه ببعض! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا " فهذا تنبيه على منهج الحق.

ثم لا ريب في أن نورانية اليقين ووضوحه، بل واطمئنان القلب وسكونه لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام. بل (الأول) - أعني الاستضاءة بنور اليقين - يتوقف على ملازمة الورع والتقوى، وفطام النفس عن الهوى، وإزالة كدرتها وصدأها:

" وقد أفلح من زكاها " (٢٠).

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف في قلبه نورا إلهي تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين، وله درجات ومراتب، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد، كما هم مختلفون في إدراك أنواع العلوم والصنائع

" وكل ميسر لما خلق له " (٢١).

وأما (الثاني) - أعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد - فيمكن أن يحصل بما دون ذلك، بأن يشتغل - بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها - بوظائف الطاعات، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز

عن مخالطة أولي المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى وأصحاب الشر والشقاء، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين، ومجالسة الأتقياء والصالحين، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة، فيكون التلقين كإلقاء البذر في الصدر، وهذه الأمور كالسقي والتربية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخا، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ثم من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره ولكنه إذا مات مات مؤمنا على الحق

---

(٢٠) الشمس، الآية: ٩.

(٢١) حديث نبوي مشهور، تقدم ذكره صفحة " ٢٦ ".

وسلم في الآخرة، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها الشرح صدره وانفتح له باب الإفاضة، ووصل إلى المرتبة الأولى.

أنواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها:

الجهل المركب:

وهو خلو النفس عن العلم وإذعانها بما هو خلاف الواقع، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق، فصاحبه لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، ولذا سمي مركبا. وهو أشد الرذائل وأصعبها، وإزالته في غاية الصعوبة، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة. وقد اعترف أطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف أطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة، ولذا قال عيسى عليه السلام: " إني لا أعجز عن معالجة الأكمه والأبرص وأعجز عن معالجة الأحمق ". والسر فيه: أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها، فلا يتحرك للطلب، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقيا في دار الدنيا. ثم المنشأ له إن كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب، فإنها موجبة لاستقامة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها، فيصير جهلها بسيطا، فينتهض للطلب. وإن كان خطأ في الاستدلال، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ، حتى يظهر خطأه. وإن كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في إزالته.

ومنها الشك والحيرة:

وهو من باب رداءة الكيفية وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وإبطال الباطل في المثالب الخفية، والغالب حصوله من تعارض الأدلة، ولا ريب أنه مما يهلك النفس ويفسدها، إذ الشك ينافي اليقين الذي لا يتحقق الإيمان بدونه. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: " لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا " وكأن الارتياب في كلامه عليه السلام مبدأ الشك.

وقال الباقر عليه السلام: " لا ينفع مع الشك والجحود عمل ". وقال الصادق عليه السلام: " إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا إلينا ".
وسئل عليه السلام عن قول الله تعالى:
" الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " (٢٢).
قال: " بشك ". وقال - عليه السلام -: " من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفئ إلى خير أبدا ". وقال - عليه السلام -:
" من شك أو ظن فأقام على أحدهما أحبط الله عمله، إن حجة الله هي الحجة الواضحة ". وقال عليه السلام: " من شك في الله تعالى وفي رسوله (ص) فهو كافر ". وبمضمونه وردت أخبار أخر. وغير خفي أن المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس، لما يأتي أنه لا ينافي الإيمان، بل الظاهر من بعض الأخبار أن إيجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود، كما روي أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام ما تقول فيمن شك في الله تعالى؟ قال: " كافر "، قال: فشك في رسول الله (ص)؟ قال " كافر "، ثم التفت إلى زرارة فقال: " إنما يكفر إذا جحد ".
ثم علاجه أن يتذكر أولا قضية بديهية، هي: أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومنه يعلم إجمالا إن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الأمر والبواقي باطلة، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر. والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القيامات السوفسطائية المشتملة على المغالطات إزالة هذا المرض. ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن، ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها، ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه.

----

(٢٢) الأنعام، الآية: ٨٢.

وصل

اليقين:

قد عرفت: إن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين) وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينيا، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع، بل هو - كما أشير إليه - جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة، أو خطأ في الاستدلال، أو حصول مانع من إفاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك. فاليقين من حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضدا للجهل المركب. ثم العلم إن لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر، وإلا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين.

هذا ومتعلق اليقين إما أجزاء الإيمان ولوازمه، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة، أو غيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الإيمان بدونها. ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة، الأخروية، لتوقف الإيمان عليه، بل هو أصله وركنه، وغيره من المراتب فرعه وغصنه، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين.

وبالجملة: اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحدي من أعاظم العرفاء أو ألمعي من أكابر الحكماء. ومن وصل إليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى. قال سيد الرسل (ص): " أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل "، وقال (ص): " اليقين الإيمان كله "، وقال (ص): " ما آدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما أذنب ذنبا تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ".

وقال الصادق عليه السلام: " إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين "، وعنه عليه السلام: " إن الله

تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ". وفي وصية لقمان لابنه: " يا بني، لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه "

علامات صاحب اليقين:

ثم لصاحب اليقين علامات:

(منها) ألا يلتفت في أموره إلى غير الله سبحانه، ولا يكون اتكاله في مقاصده إلا عليه، ولا ثقته في مطالبه إلا به، فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شئ ولا منشأية لأثر. ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق إليه، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم، والزيادة والنقصان، والمدح والذم، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والعز والذل، ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى. والسر فيه: " أنه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يراها مسخرة تحت حكمه. قال الإمام أبو عبد الله (ع): " من ضعف يقينه تعلق بالأسباب، ورخص لنفسه بذلك، واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها، مقرا باللسان أنه لا مانع ولا معطي إلا الله، وإن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله سبحانه:

" يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون " (٢٣).

وقال – عليه السلام –: " ليس شئ إلا وله حد " قيل: فما حد التوكل؟ قال: " اليقين "، قيل: فما حد اليقين؟ قال: " ألا تخاف مع الله شيئا ". وعنه – عليه السلام –: " من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضي

---

(٢٣) الآية من سورة آل عمران: ١٦١. وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب إلى الصادق – عليه السلام –. وهذا الكتاب قال فيه المجلسي – قدس سره – في مقدمة البحار: " فيه ما يريب اللبيب الماهر، وأسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم "، ثم قال: " وإن سنده ينتهي إلى الصوفية، ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم ".

الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره، ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت ".

(ومنها) أن يكون في جميع الأحوال خاضعا لله سبحانه، خاشعا منه، قائما بوظائف خدمته في السر والعلن، مواظبا على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن، متوجها بشراشره إليه، متخضعا متذللا بين يديه، معرضا عن جميع ما عداه، مفرغا قلبه عما سواه، منصرفا بفكره إلى جناب قدسه، مستغرقا في لجة حبه وأنسه. والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته، وبأن الله تعالى مشاهد لأعماله وأفعاله، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره، وأن:

" من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٢٤).

فيكون دائما في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه.

وبالجملة: من يقينه بمشاهدته تعالى لأعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب، يكون أبدا في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومن يقينه بما فعل الله في حقه من أعطاء ضروب النعم والاحسان، يكون دائما في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي.

ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور، وما أعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، يكون دائما في مقام الطمع والرجاء.

ومن يقينه باستناد جميع الأمور إليه سبحانه، وبأن صدور ما يصدر في العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير، يكون أبدا في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله.

----

(٢٤) الزلزال، الآية: ٨ - ٩.

ومن يقينه يكون الموت داهية من الدواهي العظمى وما بعده أشد وأدهى، يكون أبدا محزونا مهموما.
ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها، لا يركن إليها. قال الصادق (ع) في الكنز الذي قال الله تعالى:
" وكان تحته كنز لهما " (٢٥).
" بسم الله الرحمن الرحيم: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن إليها ".
ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة، يكون دائما في مقام الهيبة والدهشة. وقد ورد أن سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظن أنه يسقط على الأرض.
ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام، يكون دائما في مقام الشوق والوله والحب. وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة، وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه. وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين - عليه السلام في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة، وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والأمراء مع رذالته وخساسته أولا وآخرا يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه إليه بحيث يغفل عن ذاته.

---

(٢٥) الكهف الآية: ٨٢.

(ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات، بل له الكرامات وخرق العادات. والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقينا ازدادت تجردا، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات. قال الإمام أبو عبد الله الصادق - عليه السلام -: " اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله - من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يمشي على الماء، فقال: لو زاد يقينه لمشي في الهوى ". فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه.

مراتب اليقين:

وقد ظهر مما ذكر: أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شئ منها، ثم له مراتب: (أولها) علم اليقين، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع - كما مر - وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان. و (ثانيها) عين اليقين، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله: " لم أعبد ربا لم أره " بعد سؤال ذعلب اليماني عنه - عليه السلام -: أرأيت ربك؟ وبقوله - عليه السلام -: " رأى قلبي ربي ". وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا. و (ثالثها) حق اليقين، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطا به غير منفك عنه، ويشاهد دائما ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق. وهذا إنما يكون لكمل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وأنسه، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله. وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة

ورياضات قوية، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية، والطهارة عن أدناس جيفة الطبيعة، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة:

وكيف ترى ليلي بعين ترى بها * سواها وما طهرتها بالمدامع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين) والفناء في الله، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقا من سبحات وجهه، بحيث لا يرى استقلالا ولا تحصيلا أصلا، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها.

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبري عن ظلمات الأوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها، ليحصل لها التجرد التام فتحاذي شطر العقل الفعال، فتتضح فيها جلية الحق الاتضاح. والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس إليها صور الموجودات من العقل الفعال، ولا ريب في أن انعكاس الصور من ذوات الصور إلى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة، فيجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس:
١ - عدم نقصان جوهرها، فلا يكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها ٢ - وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة وأخباث المعاصي، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ ٣ - وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، فلا يكون مستوعب ألهم بالأمور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها. وهو بمنزلة المحاذاة ٤ - وتخليتها عن التعصب والتقليد. وهو بمثابة ارتفاع الحجب ٥ - واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن إفاضة الحقائق اليقينية إليها، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة، إذ كل نفس لكونها أمرا ربانيا وجوهرا ملكوتيا فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال، وصارت قابلة لحمل أمانة الله (٢٦) التي هي المعرفة والتوحيد، فحرمان النفس عن معرفة أعيان الموجودات إنما هو لأحد هذه الموانع، وقد أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى مانع التعصب والتقليد بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - " كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه ويمجسانه (٢٧) وينصرانه "، وإلى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " لولا أن الشياطين يحرمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض ". فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره، إذ هو متناه يمكن لها الإحاطة به، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته، لأنهما الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بإدراك البصائر، وهي غير متناهية، وما يلوح منها للنفس متناه، وإن كانت في نفسها وبالإضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية، ومجموع تلك العوالم يسمى ب (العالم الربوبي)، إذ كل ما في الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات، فعدم تناهيه

---

(٢٦) إشارة إلى قوله تعالى: " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢٧) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من أماليه بدون كلمة (يمجسانه)، وكذا في غوالي اللئالي، إلا أن المعروف في روايته إضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه)، كما أرسلها في مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر)، وكذا في صحيح البخاري: ج ١ ص ٢٠٦، وصحيح مسلم: ج ٢ ص ٤١٣، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن: ج ٥ ص ١٧٢، وغير هؤلاء.

ظاهر بين، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها، ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وأفعاله، وكل منها لا نهاية له. ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة. والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها، ولا تكون طالبة لما فوقها.

وما اعتقده جماعة من أن ما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة.

ومنها:

الشرك

وهو أن يرى في الوجود مؤثرا غير الله سبحانه، فإن عبد هذا الغير - سواء كان صنما أو كوكبا أو إنسانا أو شيطانا - كان شرك عبادة، وإن لم يعبده ولكن لاعتقاده كونه منشأ أثر أطاعه فيما لا يرضي الله فهو شرك طاعة، والأول يسمى بالشرك الجلي، والثاني يسمى بالشرك الخفي، وإليه الإشارة بقوله تعالى: " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون " (٢٨).

وكون الشرك أعظم الكبائر الموبقة وموجبا لخلود النار مما لا ريب فيه وقد أنعقد عليه إجماع الأمة، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء.

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد، والشرك وإن كان شعبة من الجهل، كما أن التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم، فذكرهما على حدة لم يكن لازما هنا، إلا أنه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق. فنحن أيضا ذكرنا له عنوانا على حدة تأسيا بها، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه، إذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس

---

(٢٨) يوسف، الآية: ١٠٦.

في وسعنا ولا يليق هنا، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له.

وصل

التوحيد في الفعل

ضد الشرك (التوحيد)، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن إثبات هذين القسمين لثبوتهما في الحكمة المتعالية)، أو توحيد في الفعل والتأثير والإيجاد، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به، فنقول: هذا التوحيد - على ما قيل - له أربع مراتب: قشر، وقشر القشر، ولب، ولب اللب كالجوز الذي له قشرتان وله لب، واللب دهن وهو لب اللب. (فالمرتبة الأولى) أن يقول الإنسان باللسان: لا إله إلا الله، وقلبه منكر وغافل عنه، كتوحيد المنافقين، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان. (الثانية) أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما هو شأن عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد، بمعنى أنه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه. وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحا وانفتاحا صفاء له. ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن مات عليه ولم يضعف بالمعاصي. (الثالثة) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق، وهو مقام المقربين، وصاحبه موحد، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلا ومؤثرا واحدا، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه. (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحدا، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا. فلا يرى نفسه أيضا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالواحد كان فانيا عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه، وهو مشاهدة الصديقين، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد. وهذه هي الغابة القصوى في التوحيد.

فالمرتبة الأولى: كالقشرة العليا من الجوز، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها أصلا، بل إن أكلتها فهي مر المذاق، وإن نظرت إلى باطنها فهو كريه المنظر، وإن اتخذتها حطبا أطفأت النار وأكثرت الدخان، وإن تركتها في البيت ضيقت المكان، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى، ثم ترمى، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت. والمرتبة الثانية: كالقشرة السفلى، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا، ولكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة إلى مجرد نطق اللسان، إذ تحصل به النجاة في الآخرة، لكنه ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والعيان الذي يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه بإشراق نور الحق فيه. والمرتبة الثالثة: كاللب، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شرب عصارة بالإضافة إلى الدهن منه، فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين، إلا أنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. والمرتبة الرابعة: كالدهن المستخرج من اللب، وكما أن اللب هو المطلوب بذاته والمرغوب في نفسه، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه.

" تنبيه " إن قيل: كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد، مع أن كل أحد يشاهد الأرض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحدا؟ (قلنا): من تيقن أن الممكنات بأسرها إعدام صرفة في نفسها، وإن ما به تحققها من الله سبحانه، ثم أحاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والأنس حتى عن غيره أغفله، فأي استبعاد في أن يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك، وارتكازه في

ج: ١

قلبه أن لا يرى في نظر شهوده إلا هو، ويغيب عنه غيره، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع. ومما يكسر سورة استبعادك: إن المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره وإن العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره، مع تحقق الكثرة عنده، وإن الكواكب موجودة في النهار مع إنها لا ترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس، فإذا جاز أن يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر، فأي استبعاد في أن يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الإمكانية ويقهرها، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة، ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر.

فصل

ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى

إعلم: أنه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الأمور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب، إذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتني عليها التوكل، والأولى مجرد نفاق لا يفيد شيئا، والثانية - أعني مجرد التوحيد بالاعتقاد - لا يورث حال توكل كما ينبغي، فإنه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم.

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد، وهو أن ينكشف للعبد بنور الحق أن لا فاعل إلا الله، وإن كل موجود: من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وعز وذل، وحياة وموت.. إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم، فالمتفرد بإبداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه، وإذا انكشف له هذا لم ينظر إلى غيره، بل كان منه خوفه وإليه رجاؤه، وبه ثقته وعليه اتكاله، فإنه الفاعل بالانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض وإذا انفتح له أبواب المعارف اتضح له هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات

إلى بعض الوسائط التي يتراءى في بادي النظر منشئيتها لبعض الأمور، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض، وكالالتفات إلى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الأفعال، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له: كيف ترى الكل من الله تعالى، وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء منع، وهذا الشخص قادر على حز رقبتك بسيفه فإن شاء حز رقبتك وإن شاء عفى عنك، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟

ولا ريب في أن أمثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الأمور، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بأبواب المعارف، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه، علم أن السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان.. وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له، فيعلم أن الريح مثلا هواء، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر.. وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه.

وكذا الحال في توسط غيره من الأفلاك ونجومها، وكائنات الجو، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان.

فالتفات العبد في نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الإنسان أو الحيوان يضاهي التفات من أخذ لتنجز رقبته، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعا بالعفو عنه وتخليته، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب، ويقول: لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محركه - أعني الكاتب - أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب وإن الكاتب لا حكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك،

لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن أن يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب.
ولا ريب في أن جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان، بل هذا تمثيل في حق العبد أن الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى:
" وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " (٢٩).
فمن انكشف له أن جميع ما في السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق، لم ير في الوجود مؤثر إلا هو، وانصرف عنه الشيطان خائبا، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك.
وأما من لم ينشرح بنور الله صدره، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل، فوقف في الطريق على بعض المسخرات، وهو جهل محض. وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد، ولم يمتد بصرها إلى الأصابع واليد، فضلا عن صاحب اليد، وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها.
فصل
مناجاة السر لأرباب القلوب
قال بعض العارفين (٣٠): أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي أنطق بها كل شئ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي، وليس فيه حرف وصوت، ولا يسمعه أحد إلا

----

(٢٩) الأنفال، الآية: ١٧.
(٣٠) المقصود به (أبو حامد الغزالي) في إحياء العلوم، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢، وسترى أن هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير. وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير، وصاحب الكتاب اعترف - فيما سيأتي - باقتباس هذه الفصول من الغزالي.

بالسمع العقلي الملكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي، وهذا النطق الذي لكل ذرة من الأرض والسماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر)، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فإنها كلمات تستمد (٣١) من بحر كلام الله الذي لا نهاية له:

" قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا " (٣٢).

ثم إنها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت، وليس كل أحد موضعا للسر، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب. وهم أيضا لا يحكون هذه الأسرار لغيرهم، إذ إفشاء السر لؤم، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فينادي بها على الملأ من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سر لما نهى النبي (ص) عن إفشاء سر القدر، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام ببعض الأسرار، ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا "، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون.

فأذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان: (أحدهما) المنع عن إفشاء السر، (وثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية. ونحن نحكي في فعل الكتابة قدرا يسيرا من مناجاة بعض ما يرى أسبابا ووسائط، وإقرارها بالعجز على أنفسها، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله، ويفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه، ونرد لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن أصواتا وحروفا، فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد، وقد رأى وجهه اسود بالحبر: " لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرفا؟ ".

فقال: " ما سودت وجهي، وإنما سوده الحبر، فاسأله لم فعل كذا؟ "

فسأل الحبر عن ذلك، فقال: " هذا السؤال على القلم الذي

---

(٣١) وفي نسختنا الخطية: (لأنها كلام يستمد). ولكن الموجود في المطبوعة وفي نسخة إحياء العلوم كما أثبتناه في المتن.

(٣٢) الكهف، الآية: ١٠٩.

أخرجني من مستقري ظلما ".
فسأل القلم، فأحاله إلى اليد والأصابع، وهي إلى القدرة والقوة، وهي إلى الإرادة، معترفا كل واحد منهم بعجز نفسه، وبكونه مقهورا مسخرا تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته.
ولما سأل الإرادة، قالت: " ما انتهضت بنفسي، بل بعثت على أشخاص القدرة وإنهاضها، وبحكم رسول قاهر ورد علي من حضرة القلب بلسان العقل، وهذا الرسول هو العلم، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم ".
ولما سألها قال (العقل): " أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني أشعلت ".
وقال (القلب): " أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت ".
وقال (العلم): " أما أنا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري، فسل القلم الذي نقشني ورسمني على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل ".
وعند هذا تحير السائل وقال: " ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج؟ فإني لا أعلم قلما إلا من القصب، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطا إلا بالحبر، ولا سراجا إلا من النار. وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج، ولا أشاهد من ذلك شيئا ".
فقال له (العلم): " فإذن بضاعتك مزجاة، وزادك قليل، ومركبك ضعيف، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة، فإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة: (أولها) عالم الملك والشهادة، وقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد والأصابع من هذا العلم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل، وهو يشبه السفينة التي بين الأرض والماء، فلا هي حد اضطراب الماء، ولا هي في حد الأرض وثباتها، والقدرة والإرادة والعلم من منازل هذا العالم. (وثالثها عالم الملكوت الأعلى، وهو من ورائي، فإذا

جاوزتني انتهيت إلى منازله. وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب. وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ".

فقال له السائل السالك: " قد تحيرت في أمري ولست أدري أني أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكني على قطع هذا الطريق؟ ".

فقال: " نعم! افتح بصرك، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي، قال ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق، فإن كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم. أما ترى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كوشف به وأنزل عليه قوله تعالى -:

" اقرأ بأسم ربك الذي خلق... إلى قوله: اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " (٣٣).

وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب. أوما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت؟ وقد علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه سائر الأقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الأعلى، فليست يده من لحم وعظم ودم، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه من صوت وحرف، ولا خطه من نقش ورسم ورقم، ولا حبره من زاج وعفص. فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك، إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والأصوات، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها؟ ".

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته، بعد الابتهال إلى ربه، فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو

----

(٣٣) العلق، الآية: ١، ٣ - ٥.

كما وصفه العلم، ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر أصناف العلم، فشكر العلم وودعه، وسافر إلى حضرة القلم الإلهي، وقال له:
" أيها القلم! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إنهاض القدرة وأشخاصها وصرفها المقدورات؟ ".
فقال له (القلم الإلهي): " أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحالك إلى اليد؟ فجوابي مثل جوابه، فإني مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة ب (يمين الملك)، فاسأله عن شأني فإني في قبضته وهو الذي يرددني، وأنا مقهور مسخر، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة ".
فقال السائل: " من يمين الملك؟ ".
قال القلم: " أما سمعت قوله تعالى ":
والسماوات مطويات بيمينه؟ (٣٤) ".
قال: " نعم! سمعته ".
قال: " والأقلام أيضا في قبضته وهو الذي يرددها ".
فسافر السائل من عند القلم إلى اليمين، حتى شاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ورأى أنه يمين لا كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وإصبع لا كالأصابع، فرأى القلم متحركا في قبضته، فسأله عن سبب تحريكه القلم.
فقال: " جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها، وإنما محركها القدرة ".
فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لأجلها ما قبلها، فسألها عن سبب تحريكها اليمين.
فقالت: " إنما أنا صفة فاسأل القادر، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة ".
وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل، وينطلق بالجرأة لسان السؤال،

---

(٣٤) الزمر، الآية: ٦٧.

فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة:
" لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " (٣٥).
فغشيته دهشة الحضرة، فخر صعقا في غشيته مدة، فلما أفاق قال:
" سبحانك! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك، تبت إليك وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك، وأقول:
(إشرح في صدري) لأعرفك، (واحلل عقدة من لساني) ٣٦) لاثني عليك.
فنودي من وراء الحجاب: " إياك أن تطمع في الثناء، فإن سيدا الأنبياء – صلى الله عليه وآله وسلم – ما زاد في هذه الحضرة على أن قال:
(سبحانك لا أثني ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك). وإياك أن تطمع في المعرفة، فإن سيد الأوصياء قال: (العجز عن درك الإدراك إدراك، والفحص عن سر ذات السر إشراك). فيكفيك نصيبا من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا، وقاصر عن إدراك دقائق حكمنا وأفعالنا ".
فعند هذا رجع السائل السالك، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: " أقبلوا عذري فإني كنت غريبا جديد العهد بالدخول في هذه البلاد. والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته، وهو الأول بالإضافة إلى الوجود، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه، فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى حضرته، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة، وهو الظاهر بالإضافة إلى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، وهو الباطن

----

(٣٥) الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٣٦) طه، الآية: ٢٥، ٢٧.

بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس ".
وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت، وهو موقوف على الإيمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة إليه واستماع الكلام من أهله.
ومن كان أجنبيا من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول إليه ولم يمكنه أن يسلك السبيل الذي ذكرناه، فينبغي أن يرد مثله إلى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة، وهو أن يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل، مثل أن يقال له: إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين، فإله العالم ومدبره واحد، إذ:
" لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " (٣٧).
فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقه واستعداده، وقد كلفوا الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم.
ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادي إذا قوي يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه، إذ الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب، فيحتاج إلى من يحرسه بكلامه، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه، فلا يخاف عليه شئ من ذلك، بل لو كشف له الغطاء لما أزداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا.
(تنبيه) إعلم أن ما يبتني عليه التوحيد المذكور، أعني كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر. وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا " ولا إشكال فيه إلا في أفعال الإنسان وحركاته " (٣٨).
فإن البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له، لأنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء، مع أنه لو كان مسخرا مقهورا في جميع أفعاله وحركاته، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب. ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر،

---

(٣٧) الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٣٨) هكذا في المطبوعة وفي نسختنا الخطية والنسخة الأخرى: " ولا ريب في لزوم الإشكال في أفعال الإنسان وحركاته ".

ولا يليق ذكرها هنا. والحق أن كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع (٣٩).

ومنها:

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

إعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الأفكار فإن كان مذموما داعيا إلى الشر سمي (وسوسة)، وإن كان محمودا داعيا إلى الخير سمي (إلهاما).

وتوضيح ذلك: إن مثل القلب بالنسبة إلى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب، أو حوض تنصب إليه مياه مختلفة من الجداول، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة، أو مرآة منصوبة تجتاز إليها صور متباينة. فكما أن هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر. فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضمار لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها، إلى أن يقطع ربطها عن البدن ولذاته، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحياته.

ثم لما كان الخاطر أمرا حادثا فلا بد له من سبب، فإن كان سببه شيطانا فهو الوسوسة، وإن كان ملكا فهو الإلهام. وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواء وخذلانا، وما يتهيأ به لقبول الإلهام يسمى لطفا وتوفيقا. وإلى ذلك أشار سيد الرسل (ص) بقوله: " في القلب لمتان (٤٠): لمة من الملك

---

(٣٩) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التأريخية في سر الخلق، والحل الذي لم يسبق إليه البشر حتى عند فلاسفتهم الأقدمين والمتأخرين ما قاله إمامنا الصادق (ع): " لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين ". فإن الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك له في خلقه، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله.

(٤٠) روى الحديث في إحياء العلوم ج ٢ ص ٢٣ هكذا: " في القلب لمتان: لمة من المالك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله. سبحانه وليحمد الله. ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم "، ثم تلا قوله تعالى: " الشيطان يعدكم الفقر... " الآية.
تلا قوله تعالى: " الشيطان يعدكم الفقر... " الآية. وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا، وكذا الحديث الآتي:

في نهاية ابن الأثير " في حديث ابن مسعود: لابن آدم لمتان: لمة من الملك ولمة من الشيطان. اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب، أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه ".

إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة من الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ".
وبقوله (ص): " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ".

فصل

أقسام الخواطر ومنها الإلهام

الخاطر ينقسم إلى ما يختلج بالبال من دون أن يكون مبدأ للفعل: وهي الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة، وإلى محرك الإرادة والعزم على الفعل، إذ كل فعل مسبوق بالخاطر أولا، فمبدأ الأفعال الخواطر، وهي تحرك الرغبة، والرغبة العزم، والعزم النية، والنية تبعث الأعضاء على الفعل،
(والثاني) كما عرفت إن كان مبدأ للخير يكون إلهاما ومحمودا، وإن كان مبدأ للشر يكون وسواسا ومذموما. (والأول) له أنواع كثيرة:
(منها) ما يرجع إلى التمني، سواء كان حصول ما يتمناه ممكنا أو محالا، وسواء كان المتمني حسنا محمودا أو قبيحا مذموما، وسواء كان عدمه مستندا إلى قضاء الله وقدره أو إلى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه يا ليت لم يفعل كذا أو فعل كذا.
(ومنها) ما يرجع إلى تذكر الأحوال الغالبة، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيستر به، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والأسقام واختلال أمر المعاش وسوء الانتظام، أو يذهب وهمه إلى حساب المعاملين أو جواب المعاندين وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة.
(ومنها) ما يرجع إلى التطير، وربما بلغ حدا يتخيل كثيرا من الأمور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به، ويضطرب بذلك، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالبا إلى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب إلى ما يريده ويسره، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والأسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه، وربما حصل لنفسه نوع إذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة. فيعتريه نوع اضطراب وانكسار، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول

التوسعة في الأموال والأولاد، بحيث يحصل لنفسه نوع إذعان لها، فتنبسط وتهتز. وهذا شر الوساوس وأردؤها، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ. وجميع الأنواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله.
(ومنها) ما يرجع إلى التفاؤل، وهذا ليس مذموما. وقد ورد من رسول الله (ص): إنه يحب التفاؤل، وكثيرا ما يتفاءل ببعض الأمور.
(ومنها) الوسواس في العقائد، بحيث لا يؤدي إلى الشك المزيل لليقين، فإنه قادح في الإيمان كما تقدم. ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالإيمان ولا يؤاخذ به - كما يأتي -.
" تذنيب " قد ظهر مما ذكر: إن أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر، وكيف كان هو تضييع لوقته، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله أو عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله، فهو مغبون، وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات، مع أن الغالب ليس كذلك، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفا لغرضه، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالفه في رأيه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون في مخالفتهم، فلا يزال في شغل دائم مضيع لدينه ودنياه.

فصل

المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس، والإلهام عمل الملائكة الكرام. ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي، وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالا فيدخل بالوسوسة، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالإلهام. فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس.

لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية، إلى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس، وحصول الغلبة إنما هو بغلبة الهوى أو التقوى، فإن غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه، وإن غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
" خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، قال الله تعالى:
" لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها " (٤١).
وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ".
ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الأجلة.
والسر فيه: أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الإنسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه، كما أن الشهوات ممتزجة بجميع ذلك، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم "، وقال الله سبحانه - حكاية عن لسان اللعين -:
" لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم " (٤٢).
فالخلاص من أيدي الشياطين يحتاج إلى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقه فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفا لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم.

فصل

تسويلات الشيطان ووساوسه

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة، فالأبواب المفتوحة للشيطان إلى القلب كثيرة، وباب الملائكة واحدة، ولذا روي أن النبي صلى

----

(٤١) الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٤٢) الأعراف الآية: ١٦، ١٧.

الله عليه وآله وسلم خط يوما لأصحابه خطا وقال: " هذا سبيل الله "، ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله فقال: " هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه "، ثم تلا قوله سبحانه:

" وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " (٤٣).

ثم لسهولة ميل النفس إلى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية إلى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبدا، والطرق المؤدية إلى الحق التي هي باب الملائكة خفية، فكان باب الملائكة مسدودا دائما، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح بابا واحدا خفيا مسدودا.

على أن اللعين ربما يلبس بين طريقي الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه، لا وسوسة الشيطان وإغواؤه، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم، كما يلقى في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك، وهم من الجهل موتى، ومن الغفلة هلكى، أما لك رحمة على عباد الله؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير و لسان ذلق ولهجة مقبولة! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها؟! فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه، إلى أن يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ، فيدعوه إلى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ، والسرور بتملق الجماعة، والفرح بمدحهم إياه، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه، ولا يزال في أثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة، ولذة الجاه وحب الرياسة، والتعزز بالعلم والفصاحة، والنظر إلى الخلق بعين الحقارة، فيهدي الناس ويضل نفسه، ويعمر يومه ويخرب أمسه، ويخالف الله ويظن أنه في طاعته ويعصيه ويحسب أنه في عبادته، فيدخل في جملة من قال الله فيهم:

---

(٤٣) الأنعام، الآية: ١٥٣.

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " (٤٤).
ويكون ممن قال رسول الله (ص) فيهم: " إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم "، " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ". فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة.

فصل

العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الإلهام والوسوسة وقد قيل إن إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات: (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس. وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها. (وثانيها) كالنظر إلى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والأحكام المزيل للشكوك والأوهام، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الأيمن من النفس ويقابله النظر إليها على سبيل الاشتباه والغفلة والإعراض عنها، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الأيسر منها، فإن الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية، لأنها مبادئ العلوم اليقينية، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية، لأنها مبادئ المقدمات السفسطية. (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الأطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار. فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور. (ورابعها) كتحصيل العلوم والإدراكات التي هي في الموضوعات العالية والأعيان الشريفة، كالعلم بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر، وللبعث، وقيام

---

(٤٤) الكهف الآية ١٠٣ - ١٠٤.

الساعة، ومثول الخلائق بين يدي الله تعالى، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، في مقابلة تحصيل العلوم والإدراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات، فإن الأول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هن سكان عالم الملكوت السماوي، والثاني يشبه الأبالسة المطرودة عن باب الله الممنوعة من ولوج السماوات، المحبوسة في الظلمات، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم.

فصل

علاج الوساوس

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي، فالعلاج في دفعها أن يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه، ويتذكر أن الصبر عما تدعو إليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذفت شرارة منها إلى الأرض أحرقت نبتها وجمادها، فإذا تذكر هذه الأمور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والإيمان، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الأمور الحقة، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه، بحيث يرجع هاربا خائبا. فإن التهاب نيران (٤٥) البراهين بمنزلة رجوم الشياطين، فإذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحمر من الأسد.

وإن كانت مختلجة بالبال بلا إرادة واختيار، من دون أن تكون مبادئ الأفعال، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والإشكال، وقد أعترف أطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة، وربما قيل بتعذره ولكن الحق إمكانه، لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: " من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيها بشئ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر "، ولولا إمكانه لم يتصور ذلك.

والسر في صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين: جندا يطير وجندا يسير، والواهمة جنده الطيار، والشهوة جنده السيار، لأن غالب ما خلقتا

---

(٤٥) وفي نسختنا الخطية هكذا: " فإن نيرات البراهين ".

منه هي النار التي خلق منها الشيطان، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له.
ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك، بل لا تزال تتحرك بطبعها، فشأن كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شئ آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما - أعني النار - شئ من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة، إلا أنهما استعدتا لقبول الحركة منه، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما. ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الإنسان فيها، فيسكن بالكلية عن الهيجان.
وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها، فيمتنع قطع وسواسه عن الإنسان، إذ لو أمكن قطعه أيضا بالمرة، لصار اللعين منقادا للانسان مسخرا له، وانقياده له هو سجوده له، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والإطاعة، ووضع الجبهة حالته وعلامته، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم (ع) مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجدا له معللا بقوله:
(خلقتني من نار وخلقته من طين " (٤٦).
فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة، بل هو من المنظرين لإغوائهم إلى يوم الدين، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد، فيكون قلبه مشتغلا بالله وحده، فلا يجد الملعون مجالا فيه، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء (٤٧) عن سلطنة هذا اللعين، فلا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فإنك إن أردت أن تخلي القدح عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يدخل فيه

----

(٤٦) الأعراف، الآية: ١٢.
(٤٧) إشارة إلى قوله تعالى: " قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " الحجر، الآية: ٤٠.

الماء يخلو عن الهواء، فكذلك القلب إذا كان مشغولا بفكر مهم في الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، كما قال سبحانه:
" ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين " (٤٨).
وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " إن الله يبغض الشاب الفارغ " لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لا بد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض يفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد الحيوانات، لأن الشيطان طبعه من النار، والشهوة في نفس الشاب كالحلفاء (٤٩) اليابسة، فإذا وجدها كثر تولده وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلا.
فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل إنسان من جانب إلى جانب، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية، وجعل الهموم هما واحدا هو الله. وهذا أيضا غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله، فإن استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والأذكار والأدعية والقراءة. ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، إذ الأوراد الظاهرة لا تستغرق القلب، بل التفكير بالباطن هو الذي يستغرقه، وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر، كمرض أو خوف أو إيذاء وطغيان، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه في الاستعانة في بعض أسباب المعيشة.

---

(٤٨) الزخرف، الآية ٣٥.
(٤٩) الحلفاء: ثبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوض، ينبت في مغايض المياه. الواحدة (حلفة وحلفاء).

فصل

ما يتم به علاج الوسواس

لو أمكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فإنما يتم بأمور ثلاثة:

(الأول) سد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب، وهي الشهوة، والغضب، والحرص، والحسد، والعداوة، والعجب، والحقد، والكبر، والطمع، والبخل، والخفة، والجبن، وحب الحطام الدنيوي الدائم، والشوق إلى التزين بالثياب الفاخرة، والعجلة في الأمر، وخوف الفاقة والفقر، والتعصب لغير الحق، وسوء الظن بالخالق... وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات، فإنها أبواب عظيمة للشيطان، فإذا وجد بعضها مفتوحا يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به، وإذا سدت لم يكن له إليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز.

(الثاني) عمارة القلب بأضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف، والملازمة للورع والتقوى، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى.

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان. فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الأبواب العظيمة للشيطان، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته، سوى خطراته واجتيازاته، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية، ولو لم يسد أبوابه أو لا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل، ولولاهما لم يظهر على القلب سلطانه، بل كان بمجرد قولك: إخسأ، وإن كان عندك شئ منها لم يندفع عنك بمجرد مثل كلب جائع، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب، ومثل الذكر مثل قولك له: إخسأ. ولا ريب في أن الكلب إذا قرب إليك ولم يكن عندك شئ من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك: أخسا، وإن كان عندك شئ منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل إلى مطلوبه. فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر إلى حواشيه، ولا يستقر في سويدائه، لاستقرار الشيطان فيه. وأيضا الذكر بمنزلة الغذاء

المقوي فكما لا تنفع الأغذية المقوية، ما لم ينق البدن عن الأخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة، كذلك لا ينفع الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مورد مرض الوساوس، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان مطهرا عن شوائب الهوى ومنورا بأنوار الورع والتقوى، كما قال سبحانه:
" إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون " (٥٠).
وقال سبحانه:
" إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب " (٥١).
ولو كان مجرد الذكر مطردا للشيطان لكان كل أحد حاضر القلب في الصلاة، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة. مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضمارا لجولاتهم، ويقلبونه شمالا ويمينا بحيث لا يجد فيه إيمانا ولا يقينا، ويجاذبونه إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها. ومع ذلك كله لا تظنن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلا، فإن الأمر ليس كذلك، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة:
(الأولى) اللساني فقط.
(الثانية) اللساني والقلبي، مع عدم تمكنه من القلب، بحيث أحتاج القلب إلى مراقبته حتى يحضر مع الذكر، ولو خلي وطبعه استرسل في أودية الخواطر.
(الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة، بل أحتاج ذلك إلى سعي وتكلف، كما احتيج في الثانية

----

(٥٠) الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٥١) ق آ، الآية: ٣٦.

إليهما في قراره معه ودوامه عليه.

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر، فلا يلتفت القلب إلى نفسه ولا الذكر، بل يستغرق بشراشره في المذكور، وأهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات إلى الذكر حجابا شاغلا.

وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات. والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض، لكونها طرقا إلى ما هو المطلوب بالذات.

فصل

ما يتوقف عليه قطع الوساوس

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولا،

ثم المواظبة على ذكر الله: إن بعد حصول هذه الأمور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت إلى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقا، بل لم يخطر فيها إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الأنوار القدسية من مشكاة الربوبية، ويشملها خطاب:

" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية " (٥٢).

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها، وتقابلها النفس المنكوسة المملؤة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة، ويتصاعد منها دخان مظلم إليها، فتملأ جوانبها ويطفئ نور اليقين ويضعف سلطان الإيمان، حتى

----

(٥٢) الفجر، الآية: ٢٧ - ٢٨.

تخمد أنواره بالكلية، ولا يخطر فيها خاطر خير أبدا، وتكون دائما محل الوساوس الشيطانية، ومثلها لا يرجع إلى الخير أبدا، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ، ولو أسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع، وإلى مثلها أشير بقوله سبحانه:

" أرأيت من اتخذا إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا " (٥٣).

ويقوله تعالى:

" ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة " (٥٤).

وبقوله سبحانه:

" إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا " (٥٥).

وبقوله تعالى:

" وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون " (٥٦).

وبقوله عز وجل:

" لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون " (٥٧).

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان، فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة، فتارة يبتدئ فيها خاطر الهوى فيدعوها إلى الشر، وتارة يبتدئ فيها خاطر الإيمان فيبعثها على الخير، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين، إلى أن تصل إلى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر. ثم النفس الأولى في غاية الندرة، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم، والثالثة نفوس أكثر المسلمين، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الأولى، وآخرهما بالثانية.

----

(٥٢) الفرقان، الآية: ٤٣.

(٥٤) البقرة، الآية: ٧.

(٥٥) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٥٦) يس، الآية: ١٠.

(٥٧) يس، الآية: ٧.

فصل
حديث النفس لا مؤاخذة عليه

قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة في إحداث ظلمة وكدرة في النفس، إلا أن مجرد الخواطر - أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا اختيار كالميل وهيجان الرغبة - لا مؤاخذة عليهما، ولا يكتب بهما معصية، لعدم دخولهما تحت الاختيار، فالمؤاخذة عليهما ظلم، والنهي عنهما تكليف بما لا يطاق، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي بأنه يفعل هذا فيؤاخذ به، لكونه اختياريا. وكذا الهم بالفعل والعزم عليه، إلا أنه إن يفعل مع الهم خوفا من الله وندم عنه كتبت له حسنة، وإن لم يفعل لمانع منه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة.

والدليل على هذا التفصيل: أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر فما روي في الكافي: " إنه جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله هلكت، فقال له هل أتاك الخبيث فقال لك من خلقك؟ فقلت: الله تعالى، فقال لك: الله من خلقه؟ فقال له: أي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال رسول الله (ص): ذاك والله محض الإيمان ". ومثله ما روي: إن رجلا أتى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله! نافقت، فقال: " والله ما نافقت! ولو نافقت ما أتيتني تعلمني، ما الذي رابك؟ أظن أن العدو الحاضر أتاك، فقال: من خلقك؟ فقلت: الله تعالى خلقني، فقال لك: من خلق الله؟ فقال: أي والذي بعثك بالحق لكان كذا، فقال: إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده ". وقريب منه ما روي: إن رجلا كتب إلى أبي جعفر (ع) يشكو إليه لمما يخطر على باله، فأجابه في بعض كلامه: " إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقا. قد شكى قوم النبي (ص) لمما يعرض لهم لأن تهوي بهم الريح أو يقطعوا أحب إليهم من أن يتكلموا به، فقال رسول الله: أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم! قال: والذي نفسي بيده إن ذلك لصريح الإيمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله " وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة

وإن كثرت، فقال: " لا شئ فيها، تقول لا إله إلا الله ". وعن جميل بن دراج قال: قلت للصادق (ع): إنه يقع في قلبي أمر عظيم، فقال: " قل لا إله إلا الله "، قال جميل: فكلما وقع في قلبي قلت: لا إله إلا الله، فيذهب عني.

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روي: إنه لما نزل قوله تعالى:

" وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " (٥٨).

جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله (ص) وقالوا: كلفنا ما لا نطيق، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه، ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله (ص): " لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى:

" لا يكلف الله نفسها إلا وسعها " (٥٩).

وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه:

" وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ": " إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقبلها رسول الله (ص) وعرضها على أمته فقبلوها. فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها، قال: أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمتك، فحق على أن أرفعها عن أمتك، وقال عز من قائل: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وما روي عن النبي (ص) أنه قال: " وضع على أمتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمونه، وما لا يطيقونه، وما اضطروا عليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد ". وما روي أنه سئل الصادق (ع) عن رجل يجيئ منه الشئ على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى؟ فقال (ع): " إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق

---

(٥٨) البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٥٩) البقرة، الآية: ٢٨٦.

على عبده "، والمراد من الغضب فيه: الغضب الذي سلب الاختيار.
وبالجملة: القطع حاصل بعدم المؤاخذة والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق، وإن لم ينفك عن إحداث خباثة في النفس.
وأما (٦٠) على أنه يكتب سيئة على الاعتقاد والهم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله، فهو إن كلا من الاعتقاد والهم بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب، وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختياريا، قال الله سبحانه:
" إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا " (٦١).
وقال سبحانه:
" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم " (٦٢).
وقال رسول الله (ص): " إنما يحشر الناس على نياتهم ". وقال (ص):
" إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار "، قيل: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: " لأنه أراد قتل صاحبه ". وقال (ص): " لكل امرئ ما نوى ". والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة، وإطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفا من الله لما يأتي من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة، وكيف لا يؤاخذ على أعمال القلوب مع أن المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع، معت كونها أفعالا قلبية، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظانا أنها أجنبية كان عاصيا وإن كانت زوجته.
وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفا من الله، فما روي عن النبي (ص) أنه قال: " قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر، فقال: راقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلي ". وما روي عن الإمام محمد

---

(٦٠) أي وأما الدليل على أنه يكتب سيئة.
(٦١) بني إسرائيل، الآية: ٣٨.
(٦٢) البقرة، الآية: ٢٢٥.

ابن علي الباقر (ع): " إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة "، وقوله: " لم يكتب عليه " محمول على صورة عدم العمل خوفا من الله، لما تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة.
وما روي عن الصادق (ع) أنه قال: " ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زمانا ثم يلم به وذلك قوله تعالى:
" إلا اللمم " (٦٣).
وقال: " واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه "، وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر.

وصل

الخاطر المحمود والتفكر

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعا وعقلا، لأن القلب إذا كان مشغولا بشئ لا يمكن أن يشغله شئ آخر، فإذا كان مشغولا بشئ من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة إليه، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود، إذ عند الغفلة لا يتحقق شئ منهما، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجا في غاية الندرة، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وإن كان مشغولا بالوساوس الباطلة، كما يأتي تحقيقه.
ثم الخاطر المحمود إن كان قصدا ونية لفعل جميل معين كان متعلقا بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها، وإلا كان راجعا إما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته، أو إلى التدبر الإجمالي الكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه تعالى، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا.
وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة

---

(٦٣) النجم، الآية: ٣٢.

ضده الذي هو الخاطر المحمود، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس. وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة عن الأفعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضا كما يأتي ذكرها في باب النية، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر.

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والإشارة إلى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد إلى الله تعالى وفيما يبعده عنه، فلنشر إلى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية، فنقول:

التفكر: هو سير الباطن من المبادئ إلى المقاصد، والمبادئ: هي آيات الآفاق والأنفس، والمقصد: هو الوصول إلى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان إلى أوج الكمال إلا بهذا السير، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار، ومنشأة الاعتبار ومبدأ الاستبصار، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية، وهو أجنحة النفس للطيران إلى وكرها القدسي، ومطية الروح للمسافرة إلى وطنها الأصلي، وبه تنكشف ظلمة الجهل وأستاره وتنجلي أنوار العلم وأسراره، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه:

أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق (٦٤).

وقوله تعالى:

" أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ " (٦٥).

وقوله تعالى:

" فاعتبروا يا أولي الأبصار " (٦٦).

وقوله تعالى:

" قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " (٦٧).

---

(٦٤) الروم، الآية: ٨.

(٦٥) الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٦٦) الحشر، الآية: ٢.

(٦٧) العنكبوت، الآية: ٢٥.

وقوله تعالى:
" إن في خلق السماوات والأرض لآيات لأولي الألباب " (٦٨).
وقوله تعالى:
" وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون " (٦٩).
وقوله تعالى:
" الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض " (٧٠).
وقول رسول الله (ص): " التفكر حياة قلب البصير "، وقوله (ص) " فكرة ساعة خير من عبادة سنة "، ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة، وقوله (ص): " أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته " (٧١)، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب أفعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته، لا التفكر في ذاته، لكونه ممنوعا عنه في الأخبار، ومعللا بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وقد ورد: " إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه ". واشتهر عن النبي (ص) أنه قال: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره " وقول أمير المؤمنين (ع): " التفكر يدعو إلى البر والعمل به "، وقوله عليه السلام: " نبه بالتفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك "، وقول الباقر (ع): " بإجالة الفكر يستدر الرأي المعشب "، وقول الصادق عليه السلام: " الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات، وضياء للقلوب وفسحة للخلق، وإصابة في صلاح المعاد، واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها "، وقول الرضا (ع): " ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل ".

---

(٦٨) آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٦٩) الذاريات، الآية: ٢٠ - ٢١.
(٧٠) آل عمران، الآية ١٩١.
(٧١) روى هذه الأحاديث في الكافي في (باب التفكر) عن أبي عبد الله - عليه السلام - كما هنا.

تكملة

مجاري التفكر في المخلوقات

الموجودات بأسرها مجاري التفكر ومطارح النظر، إذ كل ما في الوجود سوى واجب فهو ممن رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادي، فلكي أو عنصري، بسيط أو مركب، فعل الله وصنعه، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الأعصار لاستنباطها، انقضت أعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها.

ثم إن الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكر فيه، وإلى ما يعرف أصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة مخالفه. وهو إلى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى ب (الملكوت)، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلا موجدها، وإلى ما يدرك به، وله أجناس ثلاثة: عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وأنهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع، ويتشعب كل نوع إلى أقسام وأصناف غير متناهية، مختلفة في الصفات والهيئات، واللوازم والآثار والخواص، والمعاني الظاهرة والباطنة، وليس شئ منها إلا وموجده هو الله سبحانه، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى.

وكل ذلك مجاري التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته، فمن قدم قدم حقيقته، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته، وشاهد مملكة ربه الودود، لظهر له في

كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة، بهر منها عقله ووهمه، وحسر دونها لبه وفهمه.

ثم لا ريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم، مبتدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف، حتى ينتهي إلى أسفل العوالم وأخسها، وهو عالم الأرض بما فيه، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة إلى ما فوقه، فلا قدر للأرض بالنظر إلى عالم الجو، ولا للجو بالقياس إلى عالم السماوات، ولا للسماوات بالنسبة إلى عالم المثال، ولا للمثال بالنظر إلى عالم الملكوت، ولا للملكوت بالقياس إلى الجبروت، ولا للجميع بالنسبة إلى ما لا سبيل لنا إلى دركه تفصيلا وإجمالا من عوالم الألوهية، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة، ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان وأصحاب المشاهدة والعيان.

ثم أخس العوالم الذي عرفت حاله - أعني الأرض - لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد، بالنظر إلى نفسها، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية. وأضعف أنواع الحيوان البعوضة والنحل، وأشرف أنواعه الإنسان. فنحن نشير إلى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها، وكيفية التفكر فيها، ليقاس عليها البواقي إجمالا. فإن بيان مجاري التفكر بأسرها في حيز المحال، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجله العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجاري التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه، فسطروا فيه الأساطير وملأوا منه الطوامير، وخاضوا في عمرات بحار الأفكار وغاصوا في تيار لجج الأنظار، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر إلى ما هو الواقع الأصفر اليدين ورجعوا آخر الأمر (يخفي حنين). ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من أعضائها على التفصيل، لخرجنا عن وضع الكتاب، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الإطناب، فنشير إجمالا إلى بعض ما فيها من الحكم والعجائب، تنبيها للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الإلهية، فنقول:

أما (البعوض) فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، إذ خلق له خرطوما كخرطومه، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين، فقسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه أعضاء الغذاء، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات العظيمة - كما يأتي في الإنسان - ثم هداه إلى غذائه الذي هو دم الإنسان وغيره من الحيوانات، فأنبت له آلة الطيران إلى الإنسان، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس، وهداه إلى الامتصاص من مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه، وخلق خرطومه - مع دقته - مجوفا حتى يجري فيه الدم الصافي الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر أعضائه، وعرفه أن الإنسان يقصده بيده فعله حيلة الهرب، وخلق له السمع الذي يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه، فيترك المص ويهرب، وإذا سكنت اليد عاد، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجمهم وجهه. ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرها عن الغبار والقذى، أولا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه؟. وأما الإنسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميها إلى أطراف الأهداب. فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها.
أما " النحل " - فانظر كيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت:
" من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون " (٧٢).
واستخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء والآخر

----

(٧٢) النحل، الآية: ٦٨.

شفاء. وانظر في عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم، وأكبرهم شخصا، وهو أميرهم. وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والإنصاف بينهم، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة. ثم انظر إلى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس، فلا يبنى مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين، وهو أن أوسع الأشكال وأجودها المستدير، ثم ما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، فهذه خاصية هذا الشكل. فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفا بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها، فسبحانه ما أعظم شأنه. وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الإحاطة به.

وأما " الإنسان " - فنقول: لا ريب في أن أول كل إنسان قطرة من ماء قذرة، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها، وكانت متفرقة في جميع أجزاء بدن الذكر، فألقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الأنثى وقادهما بسلاسل الشهوة إلى الاجتماع، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة، ولرحم الأنثى قوة جاذبة، حتى جذبتها من فم الإحليل إلى نفسها، وامتزجت بمني الأنثى بحيث صارتا واحدة، واستقرت في الرحم، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر، ومبدأ انعقادها في مني الأنثى، فهما بالنظر إلى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس إلى الجبن، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة، إلا أن الأولى في الذكوري والثانية في الأنوثي أقوى، وإلا لم يتحدا شيئا واحدا، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزأ من الولد. فلو كان مزاج

ج: ١

الأنثى ذكوريا كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حارا، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيرا من المنفصل عن كليتها اليسرى، فإذا اجتمعا في الرحم، وكان مزاج الرحم قويا في الامساك والجذب، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد، والمنفصل من اليسرى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد،
والمنفصل من اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد، فيختلق الولد،
وبهذا تصحح ولادة مريم البتول عليها السلام حيث تمثل لها روح القدس بشرا سويا حسن الصورة، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به - أي بروح القدس - وسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن، وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس
ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم، وشبه بالعجين إذا ألصق بالتنور، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا. كالبذر إذا نبت من الأرض، فصارت نطفة، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق إليها، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة. ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيها بالدم الجامد، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة. ثم أظهر فيها رسوم الأعضاء وشكلها وصورها، فأحسن تصويرها، فقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم
ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب،
فدور الرأس، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد إليه والرجل، وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء وغيرها من الأعضاء على شكل مخصوص، وجعل لكل واحد منها عملا معينا وفعلا مخصوصا، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الأحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس، منضم في صرة، كفاه على خديه، ومرفقاه على حقويه، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه، وهو كشبه نائم، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء، ووجهه إلى وجهها إن كان أنثى وإلى ظهرها إن كان ذكرا. فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم، ولا للأب والأم، ولا يرى داخل

النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل إليه أثر نقشه، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها: تصوروني في ظلمة الأحشاء مغموسا بدم الحيض، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش أجفاني وحدقتي، ويصور المصور خدي وشفتي، ولا يزال يظهر علي نقش بعد نقش وصورة بعد صورة، ولا أرى نقاشا ولا مصورا، أولا تتعجبون من هذا النقاش الذي لا يحتاج إلى تماس ومزاولة ولا يفتقر إلى آلة ومباشرة، أولا تنتقلون من عجيب صنعه إلى عظيم قدرته وجسيم عظمته، أوليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون، فكيف تنظرون إلى تكون أعضائي وعجائبها ولا تعتبرون؟!

فانظر الآن – يا حبيبي – في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة، وجعلها قواما ودعامة للبدن، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت، على ما اقتضته الحكم والمصلحة، ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة، تارة بجملة بدنه، وتارة ببعض أعضائه، لم يخلقه من عظم واحدا، بل جعل له عظاما كثيرة بينها مفاصل، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عمادا للبدن خلقه مصمتا، وإن جعل فيه المسام والخلل التي لا بد منها، وما يحتاج إليه للحركة أيضا، زاد في تجويفه ليكون أخف، وجعل تجويفه في الوسط واحدا لئلا يحتاج في وصول الغذاء إليه إلى التجاويف والخلل المتفرقة، فيصير رخوا، بل صلبه مع تجويفه، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة، وما كانت الحاجة فيه إلى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل، وما كان الاحتياج فيه إلى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائما، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة.

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين

وألصقها بالآخر، كان كالرباط، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد، ليدخل فيها وينطبق عليها، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرك جزأ من بدنه دون سائر أعضائه لم يتعسر عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب، ليحسن اتصال الصلب باللين، فلا يتأذى منه، وخصوصا عند الضربة والضغطة، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة، فلا تتراض لصلابتها.

ثم انظر - يا أخي - في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم، فإنها خلقت على نوعين: (أحدهما) الشرايين: وهي العروق الضوارب المتحرك، ومنبتها القلب. ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لإيصال الروح والحياة منه إليها، ولها حركتان، إنقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب، وانبساطية يجذب بها صافي النسيم إليه، ليستريح، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح، فأوجبت الحكمة الإلهية زيادة أحكامها حفظا لها عن الانشقاق، لقوة حركة الروح، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية، لئلا يتحلل شئ منها يتحلل محلها. وواحد من هذه الشرايين، ويسمى الشريان الوريدي، لما كان حاملا لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب، فيغوص فيها ويصير شعبا، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته. فلم تكن حاجة إلى زيادة استحكامه، على أن الرية تحتاج إلى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة، وكثرة الصلابة منافيه لذلك. (وثانيهما) العروق الساكنة: وتسمى الأوردة، وشأنها جذب الغذاء من المعدة إلى الكبد ومنه إلى سائر الأعضاء، وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة، فلا يخشى انشقاقها. وجعل واحد منها ويسمى الوريد

الشرياني ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الأيمن من القلب، فكان اللازم زيادة وثاقته، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته، وهو الذي يأتي بغذاء الرية إلى القلب، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدي منه ويذهب به إلى الرية.

فانظر - يا أخي - إلى عجيب حكمة ربك، فإن حامل غذاء الرية ما دام نافذا في القلب ومصادما لحركته خلق صلبا ذا صفاقين، وإذا خلص عنه إلى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخوا ذا صفاق واحد، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه.

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه، حيث ركبه من عظام مختلفة الأشكال والصور، وألف بعضها إلى بعض حتى استوت كرة كما تراه، وجعله مجمع الحواس، ولذا جعله مستديرا، لأن المستدير أبعد من الآفات بالقياس إلى ذي الزاوية، وأعظم مساحة منه مع تساوي إحاطتهما، وجعل استدارته إلى طول، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت، وألف قحفه (٧٣) من ستة أعظم: اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤون، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذي هو السقف، لأن الصدمات عليها أكثر، وتخلخل اليافوخ مما لا بد منه لخروج الأبخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) (٧٤) وفائدة الدروز أن تخرج منها الأبخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكثها إلى الصداع وغيره من الأمراض الدماغية، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لأنه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج إلى زيادة وثاقه.

وخلق فيها الدماغ لينا دسما، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة، ولتكون الأعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر، وجعل مزاجه رطبا باردا لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات

---

(٧٣) القحف: العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال في القاموس: " ولا يدعى قحفا حتى يبين أو ينكسر منه شئ "

(٧٤) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الأخرى.

الفكرية، وجعل مقدمه الذي هو منبت الأعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة، لأن الحركة لا تحصل إلا بالقوة، والقوة إنما تحصل بالصلابة. ثم جلل الدماغ بغشاءين: (أحدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره، و (ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف إلى ظاهره، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه، وجعل بين جزئي الدماغ المقدم والمؤخر حجابا لطيفا ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجه (٧٥) شبيهة بالشباك، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد إلى الدماغ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح، ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج، ثم يتخلص إلى الدماغ على التدريج، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي الكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ، ولم يناسبا جوهره، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها.

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة. ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها، وكان اللازم إيصالهما منه إليهما، ولم يكن ذلك ممكنا بدون واسطة في الايصال، فخلق (الأعصاب) من جوهره، ووصلها منه إلى سائر الأعضاء من العظام وغيرها، ليفيدها الدماغ بتوسطها حسا وحركة، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن، وأيضا لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط، لئلا يتأذى من صلابته.

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التي يحتاج إليها من الدماغ موجبا لثقل الرأس وعظمه، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شئ به وهو (النخاع) وجعل في أسفل القحف ثقبا وأخرجه منها، وخصه بالعنق والصلب، وأخرج منه كثيرا من الأعصاب المحتاج إليها إلى الأعضاء. فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة، والنخاع بمثابة النهر النهر العظيم الجاري منه

---

(٧٥) الموجود في نسختنا الخطية " فسحة " بل (تسيجة).

والأعصاب كالجداول. والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول.
ثم انظر - يا حبيبي - كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص، لو تغير شئ منها عما عليه لاختل أمر الأبصار، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها، وحماها بالأجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقذاء عنها، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع إليها عند انطباقها، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه، وأما الأسفل فغير متحرك، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئا من الحدقة دائما، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل.
ثم زين الأجفان ب (الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الأشياء التي لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين - كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالأقذاء - فيفتح العين أدنى فتح، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية، فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه، فتحصل الرؤية مع دفع القذى.
ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذي، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الأصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموجه - كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شئ - حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع، فيدرك الصوت. وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها وخلق فيها جرما نتنا عفنا لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها.
ثم تأمل كيف زين الوجه ب (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل.
وزين وجه الرجل ب (اللحية) ووجه المرأة بعدمها، والمتأمل يعرف إن اللحية زين للرجل وشين للمرأة، وهذا من عجائب الحكمة.
وزين الوجه برفع (الأنفس) من وسطه، وحسن شكله وفتح منخريه، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته،

وليستنشق الهواء الطيب الصافي، ويدفع الهواء الحار الدخاني، ترويحا لقلبه، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالبا إلى أحدهما، ويبقى الآخر مفتوحا، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها.

ثم أنظر إلى (الفم) وعجائبه وإلى اللسان وغرائبه، فإنه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفهم، وأودعه اللسان وجعله ناطقا معربا عما في القلب، ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الأصوات وإخراج الحروف المتباينة، وجعل له قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها. وخلق (الفكين) وركب فيهما الأسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر، فأحكم أصولها، وحسن لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب، كالدرر المنظومة، مختلفة الأشكال باختلاف الأغراض والمقاصد، متفاوتة الأوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة إلى الكسر وتارة إلى القطع وأخرى إلى الطحن. فقسم الأضراس إلى عريضة طواحن كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات، وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب. والأضراس التي في الفك الأعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو أربعة، والتي في الفك الأسفل اكتفى في أصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج، وجعل لسائر الأسنان أصلا واحدا لعدم ثقل فيها. ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، وهو ثابت لا يتحرك، فيتم الطحن بذلك. فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الأسفل. منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية، لدوران الأعلى منها على الأسفل. والحكمة في تحرك الأسفل دون الأعلى: إن الأعلى مجمع الدماغ والحواس، فتحركه كان موجبا لأذيتهما واضطرابهما، وأيضا هو مفصل الرأس والعنق، فلو تحرك لم يستحكم، مع أن الوثاقة فيه لازمة. ثم لما كان مضغ الطعام محتاجا إلى تحركه فيما تحت الأسنان، فأعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة. ولما كان الطعام يابسا فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة، فخلق تحت اللسان عينا جارية يفيض منها اللعاب وينصب

بقدر الحاجة، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه.
ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الأصوات، وجعلها مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته، حتى اختلفت بها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة.
ثم مد (العنق) وجعله مركبا للرأس، وركبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان أكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسلة، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب، لتكون حركاته أسرع، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به.
ثم انظر إلى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الأكل، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد، حتى يحصل أولا نوع انهضام بالمضغ، ثم هيأ (المرئ) (٧٦) والحنجرة، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوي الطعام من دهليز المرئ إلى المعدة، وإذا ورد عليها لا يصلح لأن يصير عظما ولحما ودما على هذه الهيئة، بل لا بد أن ينطبخ انطباخا تاما تتشابه أجزاؤه، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الأبواب، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم، حتى يصير كيلوسا (٧٧) أي جوهرا سيالا ليشبه ماء الكشك (٨٧) الثخين.
ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ما طبخ في المعدة إلى الكبد قسمين من العروق: (أحدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة

---

(٧٦) هو الخرطوم المتصل بالأوداج الأربعة إلى الحنجرة.
(٧٧) كلمة يونانية، المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخا ناقصا
(٧٨) ماء الكشك: هو ماء الشعير.

بالمعاء المسماة ب (ماساريقا) (٧٩)، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها، و (ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في أجزائه، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد فإذا انصب خالص الكيلوس في الماساريقا يوصله إلى باب الكبد، وينصب منه إلى العروق الليفية المتفرقة في جهر الكبد، فتستولي قوة الكبد على هذا الكيلوس، بحيث يلاقي كله كله، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع، فيمتصه ويجذبه إلى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة، حتى ينصبغ بلون الدم، ومن هذا الطبخ يحصل شئ كالرغوة وهي (الصفراء)، وشئ كالدودي وهو (السوداء)، وشئ كبياض البيض وهو (البلغم)، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول أيضا، وقد يصير شئ من هذا البلغم إلى الكبد مع عصارة الطعام، ويبقى المتصفي من هذه الجملة دما ناضجا ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال، وجعل لكل منهما عنقا ممدودا في الكبد، وجعل عنقي الآخرين داخلا في تجويف الكبد، ولم يجعل عنقي الكليتين داخلا في تجويفه، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية. ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه إلى الكليتين، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحا كما وكيفا لغذائهما فتتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية، ويندفع باقيها إلى المثانة ومنها إلى الإحليل. وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد، وتقذفها من منفذ آخر لها إلى الأمعاء، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الأثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه إلى الكبد، فينضغط حتى تندفع منها الأثقال، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية، وصفرتها لذلك. وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل

---

(٧٩) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء. والكلمة يونانية.

بمحدب الكبد منه الرسوب السوداوي ويحيله حتى يكتسب قبضا وحموضة ثم يرسل منه في كل يوم شيئا إلى فم المعدة لتتنبه بالجوع، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه، ثم يخرج بخروج الثفل أيضا. وأما (الدم) فيتوجه إلى الأعضاء ويتوزع عليها في شعب العرق الأجوف العظيم الثابت من محدب الكبد، فيسلك في الأوردة المتشعبة منه في جداول، ثم في سواقي الجداول، ثم في رواضع السواقي، ثم في العروق الشعرية الليفية، ثم يترشح من فوهاتها في الأعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء.

ومما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة، فسد الدم وحصلت أمراض الخلط الذي يجذبه من الكبد، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية، ولو حلت آفة بالطحال حصلت أمراض سوداوية، ولو لم تندفع المائية إلى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء.

وأما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير إليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دما، وما بقي منه في الأمعاء ولم ينحدر إلى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه إليه في حركة المفاصل وترطيب الأمعاء ومنه ما يخرج من الفم بالقئ والبصاق أو ينحدر من الرأس إلى الفم ويخرج منه بالتنخع.

ثم انظر – يا أخي – في (القلب) وعجائبه، حيث خلقه جسما صنوبريا وجعله منبعا لروح الحياة، ولذا خلقه صلبا ليكون محفوظا من الوارادت، وجعل هذا الروح جرما حارا لطيفا نورانيا شفافا، وجعله مطية للنفس وقواها، وأناط به حياة الإنسان وبقاءه، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه، فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حيا، وإلا كان ميتا، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته. ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه إلى سائر الأعضاء العالية والسافلة، بوساطة سفراء الشرايين والأوردة. فما يصعد منه إلى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ، ثم يفيض على الأعضاء المدركة

والمتحركة منبثا في جميع البدن، يسمى (روحا نفسانيا). وما ينزل بصحابة أمناء الأوردة إلى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية، ومنه يتفرق إلى سائر الأعضاء، يسمى (روحا طبيعيا). وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الأمشاج الأربعة، كما خلق الأعضاء من كثائفها. وهذا الروح مثاله جرم نار السراج، والقلب الذي محله كالمسرجة له، والدم الأسود الذي في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضواء للسراج في جملة البيت، وكما إن السراج إذا انقطع زيته انطفأ، فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه، وكما إن الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت، فكذلك الدم الأسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به، وكما إن السراج ينطفئ تارة بسبب من داخل - كما ذكرنا - وتارة بسبب من خارج، كهبوب ريح أو إطفاء إنسان، فكذلك انطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج، كالقتل، وكما إن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك انطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الإنسان، وهو أجله الذي أجل له في أم الكتاب.

وكما إن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا انطفأ أظلم البدن كله، وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح، وهي أنوار الاحساسات والقدرة والإرادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة.

ثم انظر - يا حبيبي - إن كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما، حيث طولهما لتمتدا إلى المقاصد، وعرض الكهف ووضع عليها الأصابع الخمس، وقسم كل إصبع بثلاث أنامل، وجعل الإبهام في جانب، والبواقي في جانب، ليدور عليها، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهان آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام من الأربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر، على أن يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والإعطاء، فإن بسطتها كانت

لك طبقا تضع عليها ما تريد، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض، وإن ضممتها ضما غير نام كانت لك مغرفة، وإن وضعت الإبهام على السبابة كانت لك مخرقة، وإن بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة. وإن بسطت الكف وجمعت عليها الأصابع كانت لك محرزة، إلى غير ذلك من المنافع.

ثم خلق (الأظفار) على رؤوسها، زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها، حتى لا تنفت، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم، ثم هدى (اليد) إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في حالة النوم والغفلة، من غير حاجة إلى فحص وطلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك.

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص، ليتحرك بهما الإنسان إلى أي موضع أراد، ولو تغير شئ من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساسا له وحاملين لثقله، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة إليه، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك. فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساسا وحاملا للأثقل والأغلظ والأكبر، مع إن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته.

ثم خلق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف عنها الغطاء وامتد إليها البصر، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا، ولا يرى المصور ولا آلته، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج إلى مباشرة آلة ولا افتقار إلى مكادحة عمل.

تذنيب

ثم تأمل - أيها المتأمل - في عجائب حكم ربك: إنه لما كبر الصبي

وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل إلى الخروج حتى تنكس وتحرك، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير، ولما خرج وكان محتاجا إلى الغذاء ولم يحتمل بدنه الأغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف، واستخرجه من بين الفرث والدم، خالصا سائغا، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي، وهداه إلى التقامها، وفتح فيها ثقبا ضيقة جدا، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجا، لأن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه لا يحتاج فيهما إليها لتغذيه باللبن، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء، لتسيل به تلك الرطوبة، فلا تنزل إلى بصره أو إلى غيره من أعضائه فتفسده. ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن السخيف وافتقر إلى الأغذية الغليظة المحتاجة إلى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزا عن تدبير نفسه. ثم رزقه الإدراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ، وأودع في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسرارا عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها نواقب الأنظار والفهوم. فانظر إلى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب إلى المشرق في آن واحد، وإلى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة، وتأخذها من حواق الأشياء، وإلى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد.

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها: من إحاطتها بالبدن كله وتدبيرها له، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الإحاطة على حقائق الأشياء بأسرها، وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها، ومن تطوراتها في الأطوار المختلفة، وتقلبها في النشآت المتباينة، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة إلى صيرورتها عالما ربانيا

محيطا بحقائق الأشياء متصلا بالملكوت الأعلى، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه (٨٠)، وإطاعة جميع الموجودات له، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن، وعلمه بصناعة الموسيقى، واستنباطه أنواع صنائع الأرض، وقد يتعدى إلى عالم العجيبة والحرف الغريبة.

ومنها أمر الرؤيا وإخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية، وتأثيره في مواد الأكوان ينزع صورة وإلباس أخرى، فيؤثر فانقطاعه إلى الله في استحالة الهواء إلى الغيم ونزول الأمطار، وإزالة أنواع الأمراض، وإهلاك قوم وإنجائهم، وتمكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله، وإمساك عن القوت مدة غير معتادة، واقتداره على إظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد، وإحضاره ما يريده من المطاعم والملابس، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم. فانظر - يا أخي - إن كنت من أهل اليقظة إلى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكا شديد الهمة والبطش مسخرا للربع المسكون، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الأرض، وقد يتعدى إلى عالم الأفلاك، فينشق القمر ويرد الشمس.

وليت شعري إن الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حيا، مع أنه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب التي عرفتها، وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة لو نظروا بعين العبرة والبصيرة، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع، فهما في بلوغ النطفة إلى المراتب المذكورة أقوى وأشد من إحياء ميت، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليهم، فلا ريب أيضا في

---

(٨٠) تذكير الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الإنسان، وتقدم مثله ص (١١).

إن دلالة الأول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم أن بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر، فهذا في أمر النطفة أظهر، وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة إلى المراتب المذكورة أشد وأحرى من التعجب في إحياء ميت أو إبراء أكمه أو أبرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات، فالنظر الذي لا يقتضي منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يقظان. وبالجملة: الحكم والعجائب المودعة في النشأة الإنسانية أكثر من أن تحصى، وإنما أشرنا إلى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر، وتنبيها على كيفية التفكر في سائر مجاري الفكر والنظر
قال الإمام أبو عبد الله الصادق (ع): " إن الصورة الإنسانية أكبر حجة لله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي الحجة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار ".

* * *

وإذ عرفت نبذا من عجائب نفسك وبدنك، فقس عليه عجائب الأرض التي هي مقرك: بوهادها وتلالها وسهلها وجبالها وأشجارها وأنهارها بحارها وأزهارها وبرارها وعمارها ومدنها وأمصارها ومعادنها وجمادها وحيوانها ونباتها، فإن كل ما نظرت إليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعة وحجة قاطعة على جلالة موجده.
فانظر - أولا - إلى (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها، فانفجرت من هذه الأحجار اليابسة والتربة الكدرة عذبة صافية، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس إلى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي، وخلق في الأرض معادن

يحتاج إليها نوع الإنسان، ولو فقد واحدا منها لم يتم انتظامه، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن، وجعل ما يكون الاحتياج إليه أشد وأكثر أعم وجودا وأقرب مسافة، كالملح ومثله.

ثم انظر إلى (أنواع النبات) بكثرتها واختلافها في الأشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع، فهذا يغذي، وهذا يقوي، وهذا يقتل، وهذا يحيي، وهذا يسخن، وهذا يبرد، وهذا يجفف، وهذا يرطب وهذا يسهر، وهذا ينوم، وهذا يحزن، وهذا يفرح.. إلى غير ذلك من المنافع المختلفة والقوائد المتباينة، مع اشتراكها في السقي من ماء واحد، والخروج من أرض واحدة. (فإن قلت): اختلافها لاختلاف بذورها، (قلنا): متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ وانظر إلى كل شجره ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو وخضر وينمو بجميع أجزائه من الأصول والأغصان والأوراق والأثمار على نسبة واحدة، من غير زيادة لجزء على آخر، لوصول الماء إليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية، فمن هذا القاسم العدل في فعل ما ليس له شعور ولا إدراك؟ فتبا لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة إلى ما لا خبر له بوجوده وذاته ولا بأفعاله وصفاته!

ثم انظر إلى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها: من الطيور والوحوش والسباع والبهائم، كيف هدى الله كل واحد منها إلى ترتيب المنزل وتحصيل القوت، وجعل ما لا يتم معاش الإنسان بدونه من الأنعام والبهائم مأنوسا به غير متوحش عنه، وغيره وحشيا عنه غير ألف به، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول، فمن ذا الذي يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة - بل البقة والنملة - وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها إلى حوائجها؟ فأي مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسي؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب.

ج: ١

وبالجملة: كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه، وكل أحد إنما يدرك قدر ما يصل إليه فهمه.

ثم انتقل من عالم الأرض إلى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس، فإن العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الأرض، كما أن سعته أضعاف سعته، وكل حيوان يوجد في الأرض يوجد فيه، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير في البر أصلا، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة، وكثيرا ما ينزل الركبان عليه فيتحرك. ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء، وإنبات المرجان من صم الصخور تحته، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية... وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. وبالجملة: عجائب البحر أضعاف عجائب البر، وقد صنف جماعة فيها مجلدات من الكتب، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير، ولم يذكروا إلا قليلا من كثير.

ثم انتقل إلى (عالم الجو) وعجائبه من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود، فانظر إلى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك إلا أن يأذن الله سبحانه في إرساله الماء، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتا لحيوان معين، ولو كنت - يا حبيبي - ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطا إلهيا مكتوبا بقلم إلهي: إنه يصيب الجزء الفلاني من الأرض، أو رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني.

* * *

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الأخضر) قائلا: سبحانك! ما خلقت هذا باطلا. وانظر إلى هذه الأجرام النورية وعجائبها، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها: من الشمس وإضاءتها عالم الأكوان، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان، وسائر الأنجم الدائرة، والكواكب الثابتة والسائرة، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها

وأوضاعها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، وتباين منازلها ومواضعها، واجتماعها واتصالها، وتفرقها وانفصالها، وطلوعها وأفولها، وكسوفها وخسوفها، وانتظام حركاتها واتساق دورانها، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات: من العقرب والحمل والثور والجدي والانسان والحوت والسرطان، بل صور غير الحيوان: من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك، حتى ما من صورة في الأرض إلا ولها تمثال في السماء، أيظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون: ككمودة زحل، وحسرة المريخ، وقلب العقرب، وصفرة عطارد، ورصاصية الزهرة والمشتري بمجرد الاتفاق، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة؟ فما أشد جهلا وحمقا من توهم ذلك!

ثم انظر إلى حركة (الشمس) يسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير في سنة، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم، وتتم الدور بيوم وليلة فلولا سيرها الأول الموجب لغاية قربها إلى وسط السماء مدة، وغاية بعدها عنه تارة، وتوسطها بين الغايتين مرتين، ولم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها إلى غاياتها المطلوبة، ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام. وتأمل في أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية، لم يتم شئ من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من أمور العالم السفلي.

ثم انظر إلى عظم أقدار هذه الأجرام السماوية، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة إليها، فلا يمكن أن يقال جميع ذلك بالنسبة إليها، بل بالنسبة إلى فلك الشمس فقط - مثلا - كنسبة قطرة إلى البحر المحيط، وقد قال المهندسون: إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها، بل قال بعضهم أكثر من ذلك، ومع ذلك بينوا أن ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك

الشمس، مع ما فيه من أفلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الأربعة، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مثلا للأرض.

ثم انظر مع هذا العظم إلى سرعة حركتها وخفتها، فإن شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها، إلا أنك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه في غاية القلة. وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة، والأقل قدرا أن يكون مثلها ثماني مرات، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة. وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك، إذ قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم -: " هل زالت الشمس؟ " قال: لا. نعم! فقال له: " كيف تقول لا. نعم! " فقال: من حيث قلت: لا، إلى أن قلت نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام.

فتيقظ - يا أخي - من نوم الطبيعة، وتأمل من الذي حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين يصغرها، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها، فقل: (بسم الله مجريها ومرسيها)، ولو نظرت إليها بعين البصيرة لعلمت أنها عباد طائعون خاضعون، وعشاق إلهيون والهون، وبإشارة من ربهم إلى يوم القيامة رقاصون دائرون.

وبالجملة: لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها، ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة، قائلة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها، ومنادية لأرباب القلوب بنغماتها: أوما تنظرون إلى خلقي وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي

في أطواري وتقلباتي؟ أولا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي؟ أتظنون أني تكونت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف، فتجزمون أنها صنعة آدمي مريد عالم ومتكلم قادر، ثم تنظرون إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون؟!

تتميم

قد دريت إجمالا أن التفكر محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب أفعاله، والتفكر في ما يقرب العبد إلى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه. وغير ذلك من الأفكار ليس نافعا ولا متعلقا بالدين. مثال ذلك: أن حال السائر إلى الله الطالب للقائه، كحال العاشق المستهتر، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وأفعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه إليه ليتصف بها، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق، كذلك المحب الخالص لله ينبغي أن يحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه إليه أو يبعده عنه، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب.

ثم التفكر في ذات الله، بل في بعض صفاته مما لا يجوز، وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الأفهام، أو مرمى لسهام الأوهام، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو أطاقوا إليه مد البصر فإنما هو كالبرق الخاطف، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه.

وحال الصديقين في ذلك كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فإنه وإن قدر على مد البصر إليها، إلا أن إدامته يورث الضعف والعمش، بل لا مشابهة بين الحالين، وإنما هو مجرد تقريب وتفهيم، فإن المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور

الأنوار القاهر على كل نور بالإحاطة والغلبة، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره، فكل نور في مرتبة نوره زائل، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل.

ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموما، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه – وقد تقدم – وفي ما يرقب العبد إلى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة. وهذه الملكات والأفعال هي المعبرة عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الأخلاق، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ومجتنبا عن الرذائل الباطنة، ووجد أعضاءه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة إليها، فليشكر الله على عظيم توفيقه، وإن وجد في قلبه شيئا من الرذائل أو رآه خاليا عن بعض الفضائل، فليبادر إلى العلاج بالقوانين المقررة، بعد التفكر في سوء خاتمته وأدائه إلى مقت الله وهلاكه، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة.

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة: من البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحقد، والحسد، والجبن، وشدة الغضب والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع، وحب المال، وحب الجاه، والنفاق، وسوء الظن، والغفلة، والغرور... وغير ذلك. وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه، ويتفقد منها هذه الصفات، فإن وجدها بظنه خالية عنها، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية، فإن النفس قد تلبس الأمر على صاحبها: فإن ادعت البراءة من الكبر، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب

في السوق، فإن ادعت البراءة من الغضب فليجرب بإيقاعها في معرض إهانة السفهاء، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها أنفسهم، حتى يطمئن بانقطاع أصولها وفروعها من قلبه. ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئا منها في قلبه، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة، أو ملازمة أولي الأخلاق الفاضلة ومجالسة أصحاب الورع والتقوى، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك. فإن نفع شئ منها في الإزالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده.

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية: كاليقين، والتوكل، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والشجاعة والسخاء والزهد والورع، والاخلاص في العمل، وستر العيوب، والندم على الذنوب، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله والخشوع له... وغير ذلك، فإن وجد قلبه متصفا بالجميع فليجزيه بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس - كما علمت طريقه - وإن وجد قلبه خاليا من شئ منها فليفكر في طريق تحصيله - كما أشير إليه -. ثم يتوجه إلى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به، مثل أن ينظر في لسانه، ويتفكر في أنه هل صدر منه شئ من الغيبة، أو الكذب، أو الفحش، أو فضول الكلام، أو النميمة، أو الثناء على النفس، أو غير ذلك. ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام أو شبهة، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك... وهكذا يفعل في كل عضو عضو.

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل، فإن وجد - بعد التفكر - عدم صدور شئ من المعاصي عن شئ منها، وإتيانها بالطاعات المفروضة عليها بأسرها وبالنوافل المرغبة إليها بقدر اليسر والاستطاعة، فليحمد الله على ذلك، وإن عثر على صدور شئ من المعاصي أو ترك شئ من الفرائض، فليتفكر أولا في الأسباب الباعثة على ذلك، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران

السوء أو غير ذلك، فليبادر إلى قطع السبب، ثم التدارك بالتوبة والندم، لئلا يكون غده مثل يومه. وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل دين معتقد بالنشأة الآخرة، وقد كان ذلك عادة وديدنا لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة، ويدعون الفكر فيها، ثم يقبلون على البواقي، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ومن كان أقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة، من أكل الحرام، والشبهة، وإطلاق اللسان، والكذب، والغيبة والمراء، والنميمة، والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وغير ذلك، ويفعلون بمثل ما مر.

وبالجملة: كان إخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر، ويرونه من لوازم الإيمان بالحساب، فأف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقدوة، وخضعنا في غمرات الغفلة، ولعمري أنهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم إيماننا بيوم الحساب، كيف وأعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار. فإن من خاف شيئا هرب منه، ومن رجا شيئا طلبه، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم أن الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها، وندعي الشوق إلى الجنة ونعلم أن الوصول إليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها.

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين، وأما تفكر الصديقين فأجل من ذلك، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والأنس، منقطعون بشراشرهم إلى جناب القدس، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به، بحيث فنى عن نفسه ونسي صفاته وأحواله، فحالهم أبدا كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق، ولا تظنن أن هذا التفكر - بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله - ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية، فإن حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالأخلاق الرذيلة، كحال العاشق الذي خلي

بمحبوبه، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى، فتمنعه عن لذة المشاهدة والأنس. ولا يتم ابتهاجه إلا بإخراجها عن ثيابه. ولا ريب أن الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه إلى مناجاة ربه وكان في نفسه شئ منها، يجد أنه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهورا بينا للمنهمكين في علائق الطبيعة، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى.

نصيحة

تيقظ - يا حبيبي - من نوم الغفلة، وتفكر اليوم لغدك، قبل أن تنشب مخالب الموت في جسدك، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في صفاتك وأحوالك، واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بإزائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية، واسمع قول سيد الرسل (ص) ولو كنت ذا قلب لكفاك إيقاظا وتنبيها، حيث قال: " إن روح القدس نفث في روعي: أحب ما أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ". ولعمري أنك إن كنت مؤمنا بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظا وحائلا بينك وبين الالتفات إلى الدنيا وأهلها. وبالجملة: ينبغي للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن التفكر في صفاته وأفعاله، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكر وبرهة أخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه، وصار ذلك معتادا له، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول إلى ما خلقنا لأجله.

(ومنها) - أي ومن رذائل القوة العاقلة - استنباط وجوده:

المكر والحيل

للوصول إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة. وأعلم أن المكر، والحيلة، والخدعة، والنكر، والدهاء: ألفاظ مترادفة، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الأمور

من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة، ولذا جعلوها ضدا للذكاء وسرعة الفهم، والعرف خصصها باستنباط هذه الأمور إذا كانت موجبة لإصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم، وربما فسر بذلك في اللغة أيضا، وهذا المعنى هو المراد هنا.

ولتركبه من إصابة المكروه إلى الغير ومن التلبيس عليه، يكون ضده استنباط الأمور المؤدية إلى الخيرية، والنصيحة لكل مسلم، واستواء العلانية للسريرية.

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وأمثالها، إما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها. أو بتخصيص الأولى بنفس استنباط الأمور المذكورة والثانية بارتكابها، ولذا عدت الأولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور، والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعمالهما على الترادف، وأطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى.

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له أدنى شعور، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء. ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل، ثم التهجم عليه بالإيذاء والمكروه، والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم ونفائسهم إليه على سبيل الوديعة أو المتشاركة أو المعاملة، ثم أخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر. وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس إياه إماما أو أميرا فيفسد عليهم باطنا دينهم ودنياهم. وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع.

ثم المكر من المهلكات العظيمة، لأنه أظهر صفات الشيطان، والمتصف به أعظم جنوده، ومعصيته أشد من معصية إصابة المكروه إلى الغير في العلانية، إذ المطلع بإرادة الغير إيذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه، فربما دفع أذيته، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط، لظنه أن هذا المكار المحيل محب وناصح له، فيصل إليه ضره وكيده في لباس الصدقة والمحبة. فمن أحضر طعاما مسموما عند الغير مريدا إهلاكه فهو أخبث نفسا وأشد

معصية ممن شهر سيفه علانية مريدا قتله، إذ الثاني أظهر ما في بطنه وأعلم هذا الغير بإرادته، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره، فربما تمكن من دفعه، وأما الأول فظاهره في مقام الإحسان وباطنه في مقام الإيذاء والعدوان، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه، فيقطع بأنه يحسن إليه، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط، بل في مقام المحبة والوداد، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن إليه، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه.

وبالجملة: هذه الرذيلة أخبث الرذائل وأشدها معصية، ولذلك قال رسول الله (ص): " ليس منا من ماكر مسلما ". وقال أمير المؤمنين (ع): " لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس "، وكان عليه السلام كثيرا ما يتنفس الصعداء ويقول: " واويلاه يمكرون بي يعلمون أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا ".

وطريق علاجه - بعد اليقظة - أن يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته، وفي تأديته إلى النار ومجاورة الشياطين والأشرار، ويتذكر أن وبال وشهدت به التجربة والاعتبار. ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده، أعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في أفعاله وأقواله - كما يأتي في محله - وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقا على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب، وينبغي أن يقدم التروي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة، وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتبا لنفسه، وإذا تكرر منه ذلك نزول عن نفسه أصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه.

المقام الثاني

فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

التهور والجبن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم وأقسامه - الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بم يتحقق الخوف - الخوف من الله أفضل الفضائل - الخوف إذا جاوز حده كان مذموما - طرق تحصيل الخوف الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله - التلازم بين الخوف والرجاء - - مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر - العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف - مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف أمراضهم - صغر النفس وكبرها وصلابتها - الثبات - دناءة الهمة وعلوها - الغيرة والحمية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم والأولاد - العجلة - الأناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن الظن - الغضب - الإفراط والتفريط والاعتدال في قوته - ذم الغضب - إمكان إزالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ - الانتقام والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداراة - سوء الخلق بالمعنى الأخص - طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد - العداوة الظاهرة - الضرب والفحش واللعن والطعن - العجب - ذمه - آفاته - علاجه إجمالا وتفصيلا - انكسار النفس - الكبر - ذمه - التكبر على الله والناس - درجات الكبر - علاجه علما وعملا - التواضع - الذلة - الافتخار - البغي - تزكية النفس - العصبية - كتمان الحق - الإنصاف والاستقامة على الحق - القساوة.

فنقول: أما جنسا رذائلها (٨١) " فأحدهما ":

التهور

كما علم، وهو من طرف الإفراط: أي الإقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف. ولا ريب في أنه من المهلكات في الدنيا والآخرة. ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي

---

(٨١) أي القوة الغضبية.

المنع عن إلقائها في المهالك، كقوله تعالى:
" ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " (٨٢).
وغير ذلك من الآيات والأخبار، والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة، أو وقع (٨٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية. كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب، فهلك، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة، وهو يوجب الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية.
وعلاجه - بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة - أن يقدم التروي في كل فعل يريد الخوض فيه، فإن جوزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه، وإلا تركه ولم يقدم عليه. وربما أحتاج في معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه، حتى يقع في طرف التفريط، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة.
" وثانيهما ":
الجبن
وهو سكون النفس عن الحركة إلى الانتقام أو غيره، مع كونها أولى.
والغضب إفراط في تلك الحركة، فله ضدية للغضب باعتبار، وللتهور باعتبار آخر. وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة، ويلزمه من الأعراض الذميمة: مهانة نفس، والذلة، وسوء العيش، وطمع الناس فيما يملكه، وقلة ثباته في الأمور، والكسل، وحب الراحة، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله، واستماع القبائح من الشتم والقذف، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار، وتعطيل مقاصده ومهماته، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد قال رسول الله (ص): " لا ينبغي للمؤمن
.

---

(٨٢) البقرة، الآية: ١٩٥.
(٨٣) كذا في النسختين، ولعل الصحيح (أو أوقع نفسه)

أن يكون بخيلا ولا جبانا "، وقال (ص): " اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ".

وعلاجه - بعد تنبيه نفسه عن نقصانها وهلاكها - أن يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن، فإن القوة الغضبية موجودة في كل أحد، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن، وإذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر. وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعا لهذه الرذيلة. ومما ينفع من المعالجات أن يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله، تحريكا لقوة الغضب، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الإفراط.

وصل

الشجاعة

قد عرفت أن ضد هذين الجنسين هو (الشجاعة)، فتذكر مدحها وشرافتها، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها، حتى يصير ما تكلفته طبعا وملكة، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية. وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الإقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها. ولا ريب في أنها أشرف الملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية، والفاقد لها بريئ عن الفحلية والرجولية، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله:
" أشداء على الكفار " (٨٤).
وأمر الله نبيه بها بقوله:
" وأغلظ عليهم " (٨٥).
إذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها. قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن: " نفسه

---

(٨٤) الفتح، الآية: ٢٩.
(٨٥) التوبة، الآية: ٧٣.

أصلب من الصلد ". وقال الصادق عليه السلام: " المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستفل (٨٦) منه والمؤمن لا يستفل من دينه ".

* * *

وأما الأنواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمنها:

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع، فلو علم أو ظن حصوله سمى توقعه انتظار مكروه، وكان تألمه أشد من الخوف، وكلامنا في كليهما. وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدهما ظاهر، فإن الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعا وعقلا من الحركة إلى الانتقام أو شئ آخر، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف، مثلا من لا يجترئ على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم له بالفعل، فمثله جبان وليس بخائف. ومن كان له ملكة الحركة إلى الانتقام وغيره من الأفعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره، كما إذا أمر السلطان بقتله، فمثله خائف وليس بجبان.

ثم الخوف على نوعين: (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب، ولا من معاصي العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الأمور التي يأتي تفصيلها. وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط، ومن نتائج الجبن.

و (ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته، وهو من فضائل القوة الغضبية، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه، فهو حاصل من انقيادها لها. ولنفصل القول في أقسام النوعين، وبيان العلاج في إزالة أقسام الأول وتحصيل الثاني:

---

(٨٦) استقل الشئ: أخذ منه أدنى جزء كعشره.

فصل

الخوف المذموم وأقسامه

للنوع الأول أقسام يقبحها العقل بأسرها ولا يجوزها، فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها إلى نفسه. بيان ذلك: إن باعث هذا الخوف يتصور على أقسام:

(الأول) أن يكون أمرا ضروريا لازم الوقوع، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر. ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية. والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن إدراكا لراحة العاجل وسعادة الأجل.

(الثاني) أن يكون أمرا ممكنا لم يجزم بشئ من طرفيه، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولا وقوعه. ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون جزم بحصوله، ف:

" لعل الله يحدث تعد ذلك أمرا " (٨٧).

وهذا القسم مع مشاركته للأول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب، لعدم مدخليته لاختياره فيه، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه، فهو بعدم الخوف أولى منه.

(الثالث) أن يكون أمرا ممكنا فاعله هذا الشخص، وهو ناشئ عن سوء اختياره، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته، فإنه إما فعل غير قبيح من شأنه التأدي إلى ما يضره، ولا ريب في أن ارتكاب مثله خلاف حكم العقل، ولو ظهر التأدي بعد إيقاعه فيكون من الثاني، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذة، وإنما فعله ظنا منه أنه لا يظهر، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة، ولا ريب في أن هذا الظن ناشئ عن الجهل، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذة. والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع، ولو حكم عليه بما يقتضي

---

(٨٧) الطلاق، الآية: ١.

ذاته أمن من الخوفين.
(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع، بلا داع عقلي ولا باعث نفس أمري، كالميت والجن وأمثالهما، (لا) سيما في الليل مع وحدته.
ولا ريب في أن هذا ناشئ عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم. وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج.
ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هذا النوع وأعمها، فلنشر إلى علاجه بخصوصه، فنقول: باعث خوف الموت يحتمل أمورا:
(الأول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدما محضا بالموت.
ولا ريب في كونه ناشئا عن محض الجهل، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه، وهي باقية أبدا، كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية، ولعل ما تقدم يكفي لإثبات هذا المطلوب.
ومع قطع النظر عن ذلك نقول: كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الإنسان بحذافيرهم، كأهل الوحي والإلهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف.
(الثاني) تصور إيجابه ألما جسمانيا عظيما لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه. وهذا أيضا من الخيالات الفاسدة، فإن الألم فرع الحياة، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل إنسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده، إذ كل جسماني إدراكه بواسطة الحياة، وبعد انقطاعها لإدراك، فلا ألم.
(الثالث) تصور عروض نقصان لأجله. وهو أيضا غفلة عن حقيقة الموت والانسان، إذ من علم حقيقتهما بعلم أن الموت متمم الإنسانية وآثارها، والمائت جزء لحد الإنسان. ولذا قال أوائل الحكماء: (الإنسان حي ناطق مائت)، وحد الشئ يوجب كماله لا نقصانه، فبالموت تحصل التمامية

دون النقصان " نشنيده اي كه هر كه بمرد أو تمام شد " (٨٨) فالإنسان الكامل يشتاق إلى الموت، لاقتضائه تماميته وكماله، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الأشرار إلى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة، وأي عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب وأصناف الأسقام والنوائب!

فيا حبيبي! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك إلى النصيحة: حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك إلى عالمك الحقيقي ومقرك الأصلي، وانسلخ عن القشورات الهيولانية، وانفض عن روحك القدسي ما لزقه من الكدورات الجسمانية، وطهر نفسك الزكية عن أدناس دار الغرور وأرجاس عالم الزور، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر بجناح همتك إلى وكرك القدسي النوراني، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان إلى أوج العزة والعرفان، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لا ثبات له ولا وفاء؟!.

زد سحر طائر قدسم زسر سدره صفير * كه در أين دامگه حادثة آرام مگير (٨٩)

(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والأحباب، ومعلوم أن هذا ليس خوفا من الموت في نفسه بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية. وعلاجه أن يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق

---

(٨٨) هذه الجملة ممن الكلمات الحكمية القصار، ومعناها: (أما سمعت بأن كل من مات صار إنسانا كاملا).

(٨٩) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) وهو من أبيات العرفان. وأراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها، و (بالطائر القدسي) ما يرمز إليه العرفاء المسمى عندهم أيضا (البيضائي)، وهو أحد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات، و (بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات. وحاصل معنى البيت المطابقي: قد صفر الطائر القدسي المنسوب إلى من على السدرة في السحر، ويقول في صفيره: لا تستقر في المصيدة المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات)، والمراد أن يذهب عنها إلى عالم المجردات النوراني حرا طليقا.

بالعاقل أن يرتبط بها قلبه، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن إليها، مع علمه بأنه قريب يفارقها، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم.

(الخامس) تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته. وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضررا في إيمانه ودينه، ولا ألما في روحه وجسمه، على أن ذلك لا يختص بالموت، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة أيضا من البلايا والمحن، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد.

(السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال، وهلاك الأعوان والأنصار. وهذا أيضا من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته، ومدخليته في قوته وثروته، وذلك ناشئ من جهله بالله وبقضائه وقدره، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم إلى ما يليق بها وإبلاغها إلى ما خلقت لأجله، وليس لأحد أن بغير ذلك أو يبدله. ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلا، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة ونخرج عن أيديهم في مدة قليلة، وترى كثيرا من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدراج الكمال، أو يحصلون ما لا حصر له من الأموال. والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبي تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين نشأوا في حجر الآباء. والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذي قوة يفوض إليه أمورهم اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة، وربما صار ذلك سببا لهلاكهم وانقراضهم. ومن فرض أمورهم إلى رب الأرباب وخالق العباد أزداد لهم بعده عزا وقوة وكثرة وثروة. فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا أمور الأولاد وغيرهم من الأقارب والأنصار إلى من خلقهم ورباهم، ويوكلهم إلى موجدهم ومولاهم، وهو نعم المولى ونعم الوكيل. وقد ظهر أن

الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له.
ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد البتة، كما تقرر في الحكمة. وهو من الكائنات. والفساد ضروري له فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها. بل يعلم يقينا أن ما يوجد في النظام الكلي هو الأصلح الأكمل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة. ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها، فليعلم أن الثيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلا عن غيرها، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم، وتتراجع جميع أحواله، فتتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل، وكذا سائر أحواله، كما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله تعالى:
" ومن نعمره ننكسه في الخلق " (٩٠).
ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شفيق، ومهاجرة قريب أو رفيق. وربما ابتلى بأنواع المصيبات، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات. وإن كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية إلى أن أدركه الشيب، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره، فإني يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن.
ولذا ورد في الآثار: " أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع إلى الخير، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال: بأبي وجه من لا يفلح أبدا ". على أن الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها، ومن جملتها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره،

---

(٩٠) يس، الآية: ٦٨.

ويكون سعيه أبدا في تحصيل الكمالات بقدر الإمكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل إلى الحياة واللذات الباقية، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي إلى أوج عالم الحقيقة، فيتفق له الموت الإرادي الموجب للحياة الطبيعية، كما قال (معلم الاشراق): " مت بالإرادة تحيى بالطبيعة "، فينقل إلى مقصد صدق هو مستقر الصديقين، ويصل إلى جوار رب العالمين، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيره، ولا يركن إلى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلا، ينطق بلسان الحال:

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم
راحت جان طلبم وزپي جانان بروم
بهواي لب أو ذره صفت رقص كنان
تالب چشمه خورشيد درخشتان بروم (٩١)

(السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الأعمال وقبائح الأفعال. ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح، وهو معدود من أقسام النوع الثاني، إلا أن البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة، إذ هذا الخوف ناشئ من سوء الاختيار، وقد بعث الله الرسل وأوصياءهم لاستخلاص الناس عنه. فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الأخلاق. ومعلوم أن المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق، ولا ريب في أن إزالة هذا الخوف باختياره، فليترك

---

(٩١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي). ومعنى الأول: " إن سروري يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلبا لراحة نفسي ولقاء الحبيب ". وبقصد بحبيبه: الحق الأول، وبراحة نفسه: النعيم الأبدي، وبالرحيل عن الدار الخربة: انتقال نفسه من بدنه بالموت.
ومعنى البيت الثاني: " إني لشوقي إلى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكي أصل إلى لقاء عين الشمس المتوهجة ". ويقصد بعين الشمس: خالق الكائنات.

المعاصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه، واهتمام أكابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم، فهو في الحقيقة ناشئ منك ومن سوء اختيارك، فبادر إلى تقليله بالمواظبة على صوالح الأعمال وفضائل الأفعال. وقد يأتي أن هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل، ومعه لو كان مفرطا فليعالج بأسباب الرجاء، وبدونه فلا بد أن يكون حتى يبعثه عليه، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن ييأس من روح الله، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر.

فصل

الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته

وللنوع الثاني من الخوف أقسام: (الأول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف أرباب القلوب. (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي. (الثالث) أن يكون منهما جميعا. وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب نفسه وجناياته، ازداد الخوف، إذ إدراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة، يوجب الاضطراب والدهشة. ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له. وأتى لأحد من أولي المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه، فإن المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة. نعم، لبعض المدارك العالية أن يدركه على الإجمال. مع أن ما يظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته، بل هو غاية ما تتأدى إليه عقولهم ويتصور كما لا. ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوي العقول وأعلى المدارك، لاحترق من سبحات وجهه، وتفرقت أجزاؤه من نور ربه. ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة، أن يتصور عدم

تناهيها في الشدة والقوة، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر، كما هو الشأن في ذاته سبحانه. وإدراك هذه الغاية أيضا يختلف باختلاف علو المدارك، فمن كان في الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف، ومن كان به أعرف كان منه أخوف، ولذا قال تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (٩٢).

وقال سيد الرسل: " أنا أخوفكم من الله ". وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الأولياء والعارفين، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف، إذ كمال المعرفة يوجب احتراق القلب. فيفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء، وإلى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط في جنب الله ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس على شئ من الخوف، ولذا قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال بعض الحكماء " من خاف شيئا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه "، وقال بعض العرفاء: " لا يكون العبد خائفا حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام ". وإلى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العمل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف كونه مسموما، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة، وتفارقه ذمائم الصفات، ويصير مستوعب الهم يخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره، وكما أن من وقع في مخالب ضاري السبع يكون مشغول الهم به ولا شغل له بغيره. وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين

----

(٩٢) الفاطر، الآية: ٢٨.

ومن يحذوهم من السلف الصالحين.
فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقة القلب وتألمه، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.
وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يكف عن المحظورات، ويسمى الكف منها (ورعا)، فإن زادت قوته كف عن الشبهات، ويسمى ذلك (تقوى)، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به يأس، وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة، وصار ممن لا يبني ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقها، ولا يصرف إلى غير الله نفسا عن أنفاسه فهو (الصدق)، ويسمى صاحبه (صديقا)، فيدخل في الصدق التقوى، وفي التقوى الورع، وفي الورع العفة، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات.
فإذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والأقدام.

فصل

بم يتحقق الخوف

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار، أو مكروها لإفضائه إلى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية إلى المكروه لذاته في الآخرة، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروه من أحد القسمين، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة:
فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته، فإما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياء من كشف سريرته، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلالها، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله إلى الملك المقيم

أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه، وهذا أعلاها رتبة، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق، والمطلعين على سر قوله: " ويحذركم الله نفسه " (٩٣)، وقوله: " اتقوا الله حق تقاته " (٩٤).

وقيل: ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين.

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره، فإما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة، أو نقضها قبل انقضاء المدة، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو من الميل عن الاستقامة، أو إلى أتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة، أو تبديل رقة القلب إلى القساوة، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة، أو من الاشتغال عن الله بغيره، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله ما لم يعلم، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية، أو من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل، وتوجهه إلى غيره وهو إليه ناظر، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة، أو مما سبق له في الأزل من السابقة. وهذه كلها مخاوف العارفين.

ولكل واحد منها خصوص فائدة، هو الحذر عما يفضي إلى الخوف، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها، ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس. وهكذا في بقية الأقسام.

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة، وهو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الأمر فيه مخطر - كما يأتي - وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة، ولذا قال العارف الأنصاري: " الناس يخافون

---

(٩٣) آل عمران، الآية: ٢٨.

(٩٤) آل عمران، الآية: ١٥٢.

من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول ". فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب. وإليه أشار النبي (ص) في المنبر، حيث رفع يده اليمنى قابضا على كفه، ثم قال: " أتدرون أيها الناس ما في كفي؟ "، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ". ثم رفع يده اليسرى وقال: " أيها الناس! أتدرون ما في كفي؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: " أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ". ثم قال: حكم الله وعدل، حكم الله " فريق في الجنة وفريق في السعير " (٩٥).

وقال (ص): " يسلك بالسعيد في طريق الأشقياء حتى يقول الناس: ما أشبهه بهم بل هو منهم، ثم تتداركه السعادة. وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس: ما أشبهه بهم، بل هو منهم، ثم يتداركه الشقاء. إن من كتبه الله سعيدا وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة " (٩٦).

فصل

الخوف من الله أفضل الفضائل

الخوف منزلة من منازل الذين ومقام من مقامات الموقنين، وهو أفضل الفضائل النفسانية، إذ فضيلة الشئ بقدر إعانته على السعادة، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه، ولا وصول إليها إلا بتحصيل محبته والأنس به. ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف - كما مر -.

---

(٩٥) الشورى، الآية: ٧.

(٩٦) هذا الحديث مروي في أصول الكافي في (باب السعادة والشقاوة) عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام -.

وقيل: من أنس بالله، وملك الحق قلبه، وبلغ مقام الرضا، وصار مشاهدا لجمال الحق: لم يبق له الخوف، بل يتبدل خوفه بالأمن، كما يدل عليه قوله سبحانه:

" أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " (٩٧).

إذ لا يبقى له التفات إلى المستقبل، ولا كراهية عن مكروه، ولا رغبة إلى محبوب، فلا يبقى له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى منها. نعم، لا يخلو عن الخشية - أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته - وإذا صار متجليا بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضا. لأنه من لوازم التكثر وقد زال. ولذا قيل: " الخوف حجاب بين الله وبين العبد ". وقيل أيضا: " إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء ". وقيل أيضا: " المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات ".

وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا إليها، فلنرجع إلى ما كنا بصدده من بيان فضيلة الخوف. فنقول: الآيات والأخبار الدالة عليه أكثر من أن تحصى، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان، فقال:

" إنما يخشى الله من عباده العلماء " (٩٨). وقال: " هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون " (٩٩). وقال: " رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه " (١٠٠).

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الإيمان، كقوله تعالى:

" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " (١٠١).

وقوله: " وخافون إن كنتم مؤمنين " (١٠٢).

ومدح الخائفين بالتذكر في قوله:

---

(٩٧) الأنعام، الآية: ٨٢.

(٩٨) الفاطر، الآية: ٢٨.

(٩٩) الأعراف، الآية: ١٥٤.

(١٠٠) البينة، الآية ٨.

(١٠١) الأنفال، الآية: ٢.

(١٠٢) آل عمران، الآية: ١٧٥.

" سيذكر من يخشى " (١٠٣).
ووعدهم الجنة وجنتين، بقوله:
" وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى " (١٠٤). وقوله: " ولمن خاف مقام ربه جنتان " (١٠٥).
وفي الخبر القدسي: " وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له آمنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ". وقال رسول الله (ص): " رأس الحكمة مخافة الله " وقال (ص): " من خاف الله أخاف الله منه كل شئ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شئ " (١٠٦)، وقال لابن مسعود: " إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي " وقال: (ص) " أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ".
وعن ليث بن أبي سليم قال: " سمعت رجلا من الأنصار يقول: بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر، إذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي ظهره مرة، وبطنه مرة، وجبهته مرة، ويقول: يا نفس ذوقي، فما عند الله أعظم ما صنعت بك. ورسول الله ينظر إليه ما يصنع. ثم إن الرجل ليس ثيابه، ثم أقبل، فأومى إليه النبي (ص) بيده ودعاه، فقال له: يا عبد الله! رأيتك صنعت شيئا ما رأيت أحدا من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرجل: حملني على ذلك مخافة الله، فقلت لنفسي: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك. فقال النبي (ص): لقد خفت ربك حق مخافته، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء، ثم قال لأصحابه: يا معشر من حضر! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم. فدنوا منه، فدعا لهم، وقال: اللهم أجمع أمرنا على الهدى، واجعل التقوى زادنا، والجنة مآبنا ".
وقال (ص): " ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة، وإن كانت مثل

---

(١٠٣) الأعلى، الآية: ١٠.
(١٠٤) النازعات، الآية: ٤٠ - ٤١.
(١٠٥) الرحمن، الآية: ٤٦.
(١٠٦) روي الحديث في أصول الكافي في باب الخوف والرجاء من الصادق - عليه السلام -.

رأس الذباب، من خشية الله، ثم يصيب شيئا من حر وجهه، إلا حرمه الله على النار "، وقال: " إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها "، قال: " لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ". وقال سيد الساجدين (ع) في بعض ادعيته: " سبحانك! عجبا لمن عرفك كيف لا يخافك ". وقال الباقر عليه السلام: " صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم، فبكى وأبكاهم من خوف الله، ثم قال: أما والله لقد عهدت أقواما على عهد خليلي رسول الله (ص): وإنهم ليصبحون ويمسون شعثا غيرا حمصا بين أعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجدا وقياما، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون "، وفي رواية أخرى، " وكأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنما القوم باتوا غافلين "، ثم قال (ع): " فما رئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكا حتى قبض ". وقال الصادق عليه السلام: " من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا "، وقال عليه السلام: " إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى يقول: " إنما يخشى الله من عباده العلماء ". وقال:
" فلا تخشوا الناس واخشون " (١٠٧). وقال: " ومن يتق الله يجعل له مخرجا " (١٠٨).
وقال: " إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب "، وقال (ع): " المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى ما يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفا ولا يصلحه إلا الخوف " وقال عليه السلام: " خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك، فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك "، وقال عليه السلام: " لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا

---

(١٠٧) المائدة، الآية: ٤٤.
(١٠٨) الطلاق، الآية: ٢.

راجيا، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو "، وقال عليه السلام: " مما حفظ من خطب النبي (ص) أنه قال: أيها الناس! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار ".

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق المسبب، إذ العلم سبب الخوف، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه - كما ظهر مما سبق - والبكاء ثمرته ولازمه، والرجاء يلازمه ويصاحبه، إذ كل من رجا محبوبا فلا بد أن يخاف فوته، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر، إذ من شرطهما تعلقها بالمشكوك، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف، والتقديران يتقابلان. نعم، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الأسباب، ويسمى ذلك ظنا، ومقابله وهما، فإذا ظن وجود المحبوب قوي الرجاء وضعف الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال الله سبحانه: " ويدعوننا رغبا ورهبا " (١٠٩). وقال: " يدعون ربهم خوفا وطمعا " (١١٠).

وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته، وكذا ما ورد في ذم الأمن من مكر الله يدل على فضيلته، لأنه ضده، وذم الشئ مدح لضده الذي ينفيه. ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة

----

(١٠٩) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(١١٠) السجدة، الآية: ١٦.

خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى - عليهم السلام - كخوف جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وحملة العرش، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين. وكخوف نبينا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود ويحيى ... وغيرهم. وخوف أمير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة، فليرجع إليها من أراد، ومن الله العصمة والسداد.

فصل

الخوف إذا جاوز حده كان مذموما

إعلم أن الخوف ممدوح إلى حد، جاوزه كان مذموما. وبيان ذلك: إن الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب إليه تعالى ولذة المحبة والأنس به، وكما أن السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي، له حد من الاعتدال، لو قصر عنه لم يكن نافعا في السوق والتأديب، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموما لأدائه إلى إهلاك الدابة والصبي، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط وهو ما يوصل إلى المطلوب، فإن كان قاصرا عنه كان قليل الجدوى، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية، فلا يسوقها إلى المقصد. ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شئ محزن يورث ففيهن البكاء، وبمجرد انقطاعه يرجعن إلى حالهن الأولى، أو مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة. فهذا خوف قاصر قليل الجدوى. فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح يكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا. ولو كان مفرطا ربما جاوز إلى القنوط وهو ضلال:

" ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " (١١١).

أو إلى اليأس وهو كفر:

----

(١١١) الحجر، الآية: ٥٦.

" لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " (١١٢).
ولا ريب في أن الخوف المجاوز إلى اليأس والقنوط يمنع من العمل، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل، وإيجابهما كسالة الأعضاء المانعة من العمل. ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران، ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقا، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفا لما مر من أن الخوف هو ما كان مشكوكا فيه، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالا بالإضافة إلى نقص أعظم منه، وباعتبار رفعه المعاصي وإفضائه إلى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة إلى قرب الله وأنه، ولو لم يؤد إليها كان في نفسه نقصا لا كمالا، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به، كالعلم والقدرة وأمثالهما، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالا في ذاته، وربما صار محمودا بالإضافة إلى غيره وبالنظر إلى بعض فوائده، فما لا يفضي إلى فوائده المقصودة منه لإفراطه فهو مذموم، وربما أوجب الموت أو المرض أو فساد العقل، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها. وإنما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى اليأس أو إلى أحد الأمور المذكورة. فالخوف المحمود ما يفضي إلى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل، فإن تجاوز إلى إزالة شئ منها فهو مرض يجب علاجه، وكان بعض مشايخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أياما كثيرة: " احفظوا عقولكم، فإنه لم يكن الله تعالى ولي ناقص العقل " وما قيل: " إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيدا " معناه إن موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه، فهو بالنسبة إليه فضيلة، لا بالنظر إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف، إذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل

---

(١١٢) يوسف، الآية: ٨٧.

لحظة ثواب شهيد أو شهداء، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان.

فصل

طرق تحصيل الخوف الممدوح

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق:

(الأول) أن يجتهد في تحصيل اليقين: أي قوة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، والحساب، والعقاب. ولا ريب في كونه مهيجا للخوف من النار والرجاء للجنة. ثم الخوف والرجاء يؤديان إلى الصبر على المكاره والمشاق، وهو إلى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويقوي دوام الذكر على الأنس، ودوام الفكر على كمال المعرفة، ويؤدي الأنس وكمال المعرفة إلى المحبة، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات. وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدها مقام سوى الصبر، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة، ولا بعدهما سوى الأنس والمحبة. ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته، وهو التوكل. فاليقين هو سبب الخوف، فيجب تحصيل السبب ليؤدي إلى المسبب.

(الثاني) ملازمة التفكر في أحوال القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة، واستماع المواعظ المنذرة، والنظر إلى الخائفين ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم. وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى، وهو خوف عموم الخلق، وهو يحصل بمجرد أصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية، وإنما يضعف للغفلة أو ضعف الإيمان، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر، وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال، وهو خوف أرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف والهيبة، المطلعين على سر قوله: " ويحذركم الله نفسه " (١١٢). وقوله: " اتقوا الله حق تقاته " (١١٤).

---

(١١٣) آل عمران، الآية: ٢٨.

(١١٤) آل عمران، الآية: ١٠٢.

ج: ١

فالعلاج في تحصيله الارتقاء إلى ذروة المعرفة، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء، فإنه لا يخلو عن تأثير.

(الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال، وإن الإحاطة بكنه الأمور ليس في مقدرة البشر، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطا يخرج عن حد المعقول والمألوف. ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم إن الحكم على أمر من الأمور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس، فضلا عن القطع والتحقيق، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه، وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة، وإلى الله بشراشرها ملتفتة، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإنه أشد تقلبا من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب:

" إن عذاب ربهم غير مأمون " (١١٥).

فأنى للناس أن يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر، ولذا قال بعض العرفاء:

" لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فما لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب " (١١٦).

فصل

خوف سوء الخاتمة وأسبابه

قد أشير إلى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة، وله أسباب مختلفة ترجع إلى ثلاثة:

(الأول) وهو الأعظم، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الجحود أو الشك فتقبض الروح في تلك الحالة، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجابا بينه وبين الله تعالى، وذلك يقتضي البعد الدائم، والحرمان اللازم، وخسران الأبد، والعذاب المخلد.

---

(١١٥) المعارج، الآية: ٢٨.

(١١٦) نقل هذه الكلمة في إحياء العلوم (ج ٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه أيضا.

ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية، كالتوحيد وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة. وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة.

أو يتعلق بجميعها إما أصالة أو سراية، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع، إما برأيه ومعقوبه، أو بالتقليد، فإذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا، إذ حال الموت حال كشف الغطاء، ويكون ذلك سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها، وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع، إذ لم يكن عنده أولا فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة، فإذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي. كما نقل أن (الفخر الرازي) بكى يوما، فسألوه عن سبب بكائه، قال: " اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه، فما أدراني أن لا تكون سائر عقائدي كذلك ".

وبالجملة: إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك، أعاذنا الله منه، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه، وهم المقصودون من قوله:

" وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون " (١١٧). ومن قوله: " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " (١١٨).

والبله: أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا، بمعزل عن هذا الخطر، ولذلك ورد: إن أكثر أهل الجنة البله.

وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام، والأخذ بظواهر الشرع مع اعتقاد كونه تعالى منزها عن النقص متصفا بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال. والسر في ذلك: أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به، يثبتون عليه لقصور أذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم

---

(١١٧) الزمر، الآية: ٤٧.

(١١٨) الكهف، الآية: ١٠٣ - ١٠٤.

بالتشكيك، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت.
وأما الخائضون في غمرات البحث والنظر، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة، فليس لهم تثبت على عقائدهم، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الأصولية على ما هي عليه قاصرة، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة وأبواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة. فأذهانهم دائما محل تعارض العقائد والشكوك، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله، فيحصل لهم فيها طمأنينة، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها، فهم دائما في غمرات الحيرة والاضطراب. فإذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت، فأي استبعاد في أن يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم. ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، والغالب في مثله الهلاك، وإن اتفق نادرا أن يرميه موج إلى الساحل. وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) - وهو من أعاظم المتكلمين - أنه قال: " إني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى، ولم يظهر لي منها شئ سوى أن لهذا المصنوع صانعا، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقينا مني ". فالصواب تلقى أصل الإيمان والعقائد من صاحب الوحي، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق، والاشتغال بالطاعات وصوالح الأعمال، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة، وأشرق نور الحكمة في قلبه. وشمله خفي الألطاف من ربه، فله الخوض في غمرات العلوم. وأما غيره فينبغي أن يأخذ منه أصول عقائده الواردة من الشرع، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات أنفاسه، فإن العاجز عن المجاهدة في صفه القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وإن كان فاقدا لدرجتهم.
(الثاني) ضعف الإيمان في الأصل، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا في القلب، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس، فلا يظهر له أثر في مخالفة

النفس والشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات، حتى يظلم القلب ويسود، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه، ولا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان حتى ينطفئ بالكلية، فإذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفا، وربما عدم بالمرة، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه، وهو الدنيا، فيتألم ويرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بإنكار ما قدره الله من الموت، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب، لما يرى أن موته من الله، كما إن من يحب ولده حبا ضعيفا، إذا أخذ ما لا له هو أحب إليه منه وأتلفه، انقلب حبه بعضا. فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء. نعود بالله من ذلك.

وقد ظهر أن السبب المفضي إلى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر، وإن أحب الدنيا أيضا، ومن وجد في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر. والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به، إذ لا يحب الله إلا من عرفه، وإلى هذا القسم من سوء الخاتمة أشير في الكتاب الإلهي بقوله:

" قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره " (١١٩).

فمن فارقته روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، ولا يخفي ما يلقاه من الفرح والسرور.

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات، وإن قوى الإيمان. وبيان ذلك: أن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة

----

(١١٩) التوبة، الآية: ٢٤.

الألف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته، فإن كان أكثر ميله إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله، وإن كان أكثر ميله إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده، وإن كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك، وهكذا الحال في جميع الأشغال والأعمال الغالبة في عمره، فإنها تغلب على قلبه عند موته، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيعتقد بها قلبه، ويصير محجوبا عن الله تعالى.

وهو المراد بالختم على السوء. فالذي غلبت عليه المعاصي والشهوات، وكان قلبه أميل إليها منه إلى الطاعة، فهذا الخطر قريب في حقه، ولا يميل إليها أصلا، فهو بعيد منه جدا. ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادرا، فلعل الراجح في حقه النجاة منه، وإن أمكن حصوله. ومن لم يغلب شئ من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر إلى الله، ولا يمكن لنا الحكم بشئ من القرب والبعد في حقه.

والسر في ذلك: أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم، فكما إن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره وألفها، حتى أنه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة، وحتى أن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية، لكونه شبيها بالنوم وإن كان فوقه، فيقتضي ذلك تذكر المألوفات وعودها إلى القلب، فربما يكون غلبة الألف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه إليها وتقبض عليها روحه، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله. وكما إن ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله، فكذلك ما يرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له أسباب عند الله لا نعرف بعضها، وربما تتمكن من معرفة بعضه، فإنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشئ إلى ما يناسبه، أما بالمشابهة، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر، وأما بالمضادة، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا، وأما بالمقارنة، بأن ينظر إلى

فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان. وقد ينتقل الخاطر من شئ إلى شئ، ولا يدري وجه المناسبة له، وربما ينتقل إلى شئ لا يعرف سببه أصلا. وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور. ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصي والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها، وفي قمع الشهوات عن قلبه، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه إلى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، إذ المرء يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، كما ورد في الخبر (١٢٠). وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره، حيث يظهر منه عنده ذلك، وإنما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر، ومنه عظم خوف العارفين، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كليا، وإن كان لطول الألف والعادة تأثير ومدخلية، ولذا إذا أراد الإنسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه. وبالجملة: اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة. وبذلك يعلم أن أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة، ولذلك قال رسول لله (ص): " إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة، فيختم له بما سبق به الكتاب " ومعلوم إن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر

---

(١٢٠) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا في (الحقائق) - ص ٨٨ طبع إيران - للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له.

خطور البرق الخاطف. ومن هنا قيل (١٢١): " إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا "، وورد (١٢٢): " إن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن، وقد مات على الخير والإسلام، تعجبت الملائكة منه، وقالوا: كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا ". ولذلك قيل (١٢٣): من وقعت سفينته في لجة البحر، وهجمت عليه الرياح العاصفة، واضطربت الأمواج، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر، ومقلب القلوب هو الله.

ومن هنا يظهر سر قوله: " الناس كلهم هلكى ألا العالمون، والعالمون، كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم " (١٢٤).

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروها، إذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب.

وأما الشهادة في سبيل الله فإنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب غير حب الله، وخرج حب الدنيا والمال والولد. فإن من هجم على صف القتال بأمر الله وأمر رسوله يكون موطنا نفسه على الموت لرضا الله وحبه، بائعا دنياه بآخرته، راضيا بالبيع الذي بايعه الله به في قوله:

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " (١٢٥).

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر، وإن كان ظلما، وإن كان في الجهاد، إذا لم تكن

---

(١٢١) القائل هو (مطرف بن عبد الله) كما في إحياء العلوم: ج ٤ ص ١٥٥.

(١٢٢) يظهر من كلمة (ورد) أن هذا حديث. وفي إحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٥ - كلام ينقله عن (حامد اللفاف).

(١٢٣) القائل هو (الغزالي) في إحياء العلوم، في الصفحة المتقدمة.

(١٢٤) جاء نص هذا الكلام في أثناء كلام (الغزالي) في إحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٦ - وكأنه من كلام نفسه. إلا أنه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠، عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مرسلا. وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب إلى الصادق - عليه السلام - في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص. فماذا تظن أراد المؤلف بقوله: (سر قوله) هل أراد الغزالي يا ترى؟.

(١٢٥) التوبة، الآية: ١١١.

هجرته فيه إلى الله ورسوله، بل إلى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها.
وقد ظهر مما ذكر: أن سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع إلى أحوال القلب، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يكن الحكم بأنه ختم على خير أو سوء، بل أمره إلى الله، وإن كانت النجاة له أقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة:
" فقد ضل ضلالا بعيدا "، و " خسر خسرانا مبينا " (١٢٦).
ومن زهق روحه على خاطر خير وهو أن يكون قلبه في حالة الموت متوجها إلى الله ممتليا من حبه وأنسه " فقد فاز فوزا عظيما ". وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية، وإخراج حب الدنيا عنها رأسا. الاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم، بل عن مباحات الدنيا بالكلية، وتخلية السر عما سوى الله، والانقطاع بشراشره إليه، وإخراج محبة كل شئ سوى محبته عن قلبه، حتى يصير حبه سبحانه والأنس به ملكة راسخة، ليغلب على القلب عند سكرة الموت، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حبا لله وأنسا به وتوجها إليه، بل لا يخطر ببالك أن لك ربا متصفا بالصفات الكمالية، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة، فإن زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشئ من الأمور الدنيوية، ولم يكن متوجها إلى الله ومستحضرا معرفته ومبتهجا بحبه وأنسه، لبقيت على تلك الحالة أبدا، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى.
فتيقظ - يا حبيبي - من سنة الغفلة، وتنبه عن سكر الطبيعة، واخرج حب الدنيا عن قلبك، وتوجه بشراشرك إلى جناب ربك، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك، واقنع من الطعام ما يقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك، وارض من اللباس بما

---

(١٢٦) النساء، الآية ١١٦، ١١٩.

يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حر الشمس ويرد الأمطار، فإن جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك، وأحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك. وبعد ذلك راقب قلبك في جميع الأوقات، وإياك أن تهمله لحظة من اللحظات، واحفظه من أن يكون محلا لغير معرفة الله وحبه، وليكن القرب إلى الله والأنس به غاية همك، إذ العاقل إنما يميل ويشتاق إلى ما هو الأشرف والأكمل، ويسر ويرتاح بما له أحسن وأنفع، ولا ريب في أن أشرف الموجودات وأكملها هو سبحانه، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال، إن معرفته وحبه أحسن الأشياء وأنفعها لكل أحد، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمية، فلا ينبغي للعاقل أن يترك ذلك اشتغالا بفضول الدنيا وخسائسها، بل يلزم عليها أن يترك حبلها على غاربها، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها، ويتوجه بكليته إلى جناب ربه، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وأنسه.

فصل

الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة، ولا ريب في كونه فضيلة وكما لا، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال، ونقيضه نقص ورذيلة.

وأما الخوف الممدوح، فضده الأمن من مكر الله، وهو من المهلكات ود ورد به الذم في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٢٧).

وقد ثبت بالتواتر: أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره، كما روي: " أنه لما ظهر على إبليس ما ظهر، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله إليهما: ما لكما تبكيان؟ فقالا: يا رب! لا نأمن مكرك، فقال

----

(١٢٧) الأعراف، الآية: ٩٩.

الله: هكذا كونا، لا تأمنا مكري ". وروي: " أن النبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى، فأوحى الله إليهما:
لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟ " وكأنهما لم يأمنا أن يكون
قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحانا. حتى أن سكن خوفهما (١٢٨)
ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما، كما أن إبراهيم (ع) لما وضع في
المنجنيق قال: حسبي الله. وكان هذا القول منه من الدعاوي العظيمة،
فامتحن وعورض بجبرئيل (ع) في الهواء حتى قال: أنك حاجة؟ قال:
أما إليك فلا. وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله، فأخبر الله تعالى عنه وقال:
" وإبراهيم الذي وفى " (١٢٩).

وبالجملة ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه، كنا لم يأمن منه
الملائكة والأنبياء، وإذا لم يأمن منه كان خائفا منه دائما.

تتميم

التلازم بين الخوف والرجاء

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب، وهو يلازم الخوف، إذ
الخوف - كما عرفت - عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول،
وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضا، وما كان حصوله مكروها كان
عدم حصوله محبوبا، فكما إنه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم
حصوله أيضا، فالخوف عن الشئ وجودا يلزمه الرجاء عدما، وعنه عدما
يلزمه الرجاء وجودا. وقس عليه استلزام الرجاء للخوف، فهما متلازمان،
وإن أمكن غلبة أحدهما نظرا إلى كثرة حصول أسبابه. وإن تيقن الحصول
أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفا ورجاء، بل سمي انتظار مكروه أو
انتظار محبوب.

ثم كما إن الخوف من متعلقات قوة الغضب، وإن الممدوح منه من
فضائلها، لكونه مقتضى العقل والشرع، وباعثا للعمل من حيث الرهبة،

---

(١٢٨) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان، يعني: إنهما يخشيان إذا
سكن خوفهما أن يظهر إنهما قدامنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحانا لهما.

(١٢٩) النجم، الآية: ٣٧.

فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها، لكونه مقتضاهما وباعثا للعمل من حيث الرغبة. إلا أن الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التفريط، والرجاء لترتبه على قوته يكون أقرب إلى طرف الإفراط وإن كان كلاهما ممدوحين. ثم لا بد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذرا جيدا في أرض طيبة يصلها الماء. وأما انتظار ما لم يحصل شئ من أسبابه فيسمى غرورا وحماقة، كتوقع من ألقى بذرا في أرض سبخة لا يصلها الماء. وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنيا، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء.

وتفصيل ذلك: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر، والطاعات هي الماء الذي تسقي به الأرض، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والأحجار والنباتات الخبيثة، ويوم القيامة هو وقت الحصاد. فينبغي أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية)، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة، وساق إليها الماء في وقته، ونقاها الشوك والأحجار، وبدل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملا أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلا، سمي انتظاره رجاء ممدوحا فكذلك العبد إذا طهر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الردية وبث فيه بذر الإيمان بماء الطاعات، ثم انتظر من فضل الله تثبيته إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه. وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة، أو ألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر وإصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع، ثم جلس منتظرا إلى أن ينبت له زرع يحصده سمى انتظاره حمقا وغرورا. كذلك من لم يلق بذر الإيمان في أرض قلبه أو ألقاه مع كونه مشحونا برذائل الأخلاق منهمكا في خسائس الشهوات واللذات، ولم يسق إليها ماء الطاعات، ثم انتظر المغفرة، كان انتظار حمقا وغرورا. وكما أن من بث البذر في أرض طيبة لا ماء لها، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار، وإن لم يمتنع أيضا، سمي انتظاره

تمنيا. كذلك من ألقى بذر الإيمان في أرض قلبه، ولكنه لم يسق إليه ماء الطاعات، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله، كان انتظاره تمنيا.

فإذن، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات. فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته. إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد. فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل. وانظر إلى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلا ونهارا، أما كانوا يرجون عفو الله ورحمته؟ بلى والله! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم.

ونحن نشير (أولا) إلى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والأخبار، ثم نورد نبذا مما يدل على أنه لا معنى للرجاء بدون العمل، ليعلم أن إطلاق الأول محمول على الثاني. فنقول: الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من أن تحصى، وهي على أقسام:

(الأول) ما ورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى: " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " (١٣٠).

وقول علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: " أيا هذا! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك ". وما روي: " أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم. فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: إن ربك يقول: لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم ". وما ورد: " أن رجلا من بني إسرائيل

----

(١٣٠) الزمر، الآية: ٥٢.

كان يقنط الناس ويشدد عليهم، فيقول الله له يوم القيامة: اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها ".
(الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة كما ورد في أخبار يعقوب من " أنه تعالى أوحي إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لقولك:
" وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون " (١٣١).
لم خفت الذئب ولم ترجني أو لم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي؟ " وقول أمير المؤمنين - عليه السلام - لرجل قال عند النزع: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي: " ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجاه وأمنه مما يخاف " (١٣٢). وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: " إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإن لقنه الله حجته، قال: رب رجوتك وخفت الناس، فيقول الله: قد غفرته لك ". وما روي عنه - صلى الله عليه وآله وسلم -: " إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان، فيقول الله لجبرئيل: إذهب فأتني بعبدي، فيجئ به، فيوقفه على ربه، فيقول الله له: كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان، فيقول: رده إلى مكانه. قال: فيمشي ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عز وجل، إلى أي شئ تلتفت؟ فيقول: لقد رجوت ألا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة ". وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -؟ " قال الله تعالى: لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادي، فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع الدرجات العلي في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، وفضلي فليرجوا (١٣٣)،

----

(١٣١) يوسف، الآية: ١٣.
(١٣٢) روي (إحياء العلوم: ج ٤ ص ١٢٥) هذا الحديث عن النبي (ص).
(١٣٣) في الكافي في (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا، فقد جاء فيه: " وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا ".

فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت ". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: " وجدنا في كتاب علي (ع) أن رسول الله (ص) قال وهو على منبره: والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحيي (١٣٤) أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه ".

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى:
" والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض " (١٣٥).
وقوله (ص): " حياتي خير لكم وموتي خير لكم، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي، فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه، وما رأيت منها سيئا استغفرت الله لكم ".

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب إلى أن يستغفر، كقول الباقر (ع):
" إن العبد إذا أذنب أجل من غدوة إلى الليل، فإن استغفر لم يكتب عليه " (١٣٦).
وقول الصادق (ع): " من عمل سيئة أجل فيها سبع ساعات من النهار، فإن قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات، لم تكتب عليه ".

(الخامس) ما ورد في شفاعة النبي (ص) كقوله تعالى:
" ولسوف يعطيك ربك فترضى " (١٣٧).
وقد ورد في تفسيره أنه لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار،

---

(١٣٤) في الكافي في (باب حسن الظن): (يستحي).
(١٢٥) الشورى، الآية: ٥.
(١٣٦) روى الكافي في (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق - عليه السلام -.
(١٣٧) الضحى، الآية: ٥.

وقوله (ص): " ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي "، وكذا ما ورد في شفاعة الأئمة والمؤمنين.
(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار، ومن أن حب النبي (ص) والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب، وإن فعلوا ما فعلوا.
(السابع) ما دل على أن النار إنما أعدها الله لأعدائه من الكافرين، وإنما يخوف بها أولياءه، كقوله تعالى:
" لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده " (١٣٨)، وقوله " واتقوا النار التي أعدت للكافرين " (١٣٩) وقوله: " لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى " (١٤٠).
(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته، كقوله: " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " (١٤١)
وما روي في تفسير قوله تعالى:
" يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه " (١٤٢).
" إن الله أوحى إلى نبيه: إني أجعل حساب أمتك إليك، فقال: لا يا رب! أنت خير لهم مني (١٤٣)، فقال: إذن لا أخزيك فيهم ". وما روي: " إنه (ص) قال يوما: يا كريم العفو! فقال جبرئيل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ هو: إنه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه " (١٤٤).
وما ورد: أن العبد إذا أذنب فاستغفر، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا، فعلم أنه له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب: أشهدكم أني قد غفرت له. وما ورد في الخبر القدسي: " إنما خلقت الخلق ليربحوا علي، ولم أخلقهم لأربح عليهم ". وما ورد من " أنه لو لم يذنبوا، لخلق الله تعالى خلقا يذنبون ليغفر لهم " وقوله (ص): " والذي نفسي بيده. الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها ". وما ورد

---

(١٣٨) الزمر، الآية: ١٦.
(١٣٩) آل عمران، الآية: ١٣١.
(١٤٠) الليل، الآية: ١٥ - ١٦.
(١٤١) الرعد، الآية: ٦.
(١٤٢) التحريم، الآية: ٨.
(١٤٣) في (إحياء العلوم: ج ٤ ص ١٢٨) هكذا: " أنت أرحم بهم مني " وكذا بدل لا أخزيك: " لا نخزيك ".
(١٤٤) في (إحياء العلوم: ص ١٢٩ من ج ٤) هكذا: " هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه ".

من " أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى أن إبليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه ". والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر.
(التاسع) ما دل على أن ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه، كقوله (ص): " الحسى من قيح جهنم، وهي حظ المؤمن من النار ".
(العاشر) ما ورد في أن الإيمان لا يضر معه عمل، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل، وفي أنه قد يغفر الله عبدا ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الإيمان أو عمل جزئي من الأعمال الصالحة.
(الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله، كقوله (ص): " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله "، وقوله (ص): " يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ". وقول الرضا (ع): " أحسن الظن بالله، فإن الله عز وجل بقول: أنا عند ظن عبدي لي، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ". وقول الصادق (ع): " حسن الظن بالله: ألا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا ذنبك ". وقد تقدم بعض أخبار أخر في هذا المعنى. ثم إيجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه.
(الثاني عشر) ما دل على أن الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة، كما روي أنه (ص) قال: " أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة، وعجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب، فقيل هذا فداؤك من النار ". وعن أهل البيت عليهم السلام: " إن النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم إياهم ووقيعتهم فيهم ". وعن الصادق (ع): " سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله، بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق إخوانه، ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب، فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار، وذلك ما قال الله تعالى: " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " (١٤٥).

---

(١٤٥) الحجر، الآية: ٢.
ج: ١

في الدنيا منقادين للإمامة، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم ".
وأما (الثاني) - أعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل - فأكثر من أن يحصى، كقوله تعالى:
" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله " (١٤٦). وقوله: " فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا " (١٤٧).
وقول النبي (ص): " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة ". وما روي عن الصادق (ع) أنه قيل له: " قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: " هؤلاء قوم يترجحون في الأماني كذبوا ليسوا براجين، " إن " (١٤٨) من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شئ هرب منه ". وعن علي بن محمد، قال: قلت له عليه السلام: إن قوما من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجو، فقال: " كذبوا، ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجحت بهم الأماني. من رجا شيئا عمل له، ومن خاف شيئا هرب منه ". وعنه قال: " لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا واجبا، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو ".
وصل
(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)
قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان، لكونهما باعثين على العمل ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب، ففضل كل منها إنما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض.
وهذا يختلف باختلاف الأشخاص: فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل أكثر من تأثير الرجاء فيه، فالخوف له أصلح من الرجاء، ومن كان بالعكس فبالعكس. ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف له أصلح. ومن غلب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء له أصلح،

---

(١٤٦) البقرة، الآية: ٢١٨.
(١٤٧) الأعراف، الآية: ١٦٩.
(١٤٨) روي الحديث في الكافي (باب الرجاء)، وليس فيه كلمة " إن ".

ومن انهمك في المعاصي، فالخوف له أصلح. ومن ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه.
والوجه في ذلك، أن كل ما يراد به المقصود، ففضله إنما يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شئ من المذكورات، فالأصلح اعتدالهما، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده: " يا بني! خف الله خوفا ترى إنك إن أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء كأنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ". وقال الباقر عليه السلام: " ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم، فقال: يدعون ربهم خوفا وطمعا، وقال: يدعوننا رغبا ورهبا ". وعن الحارث بن المغيرة قال: قلت للصادق (ع): ما كان في وصية لقمان؟ قال: " كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك "، ثم قال عليه السلام: " كان أبي عليه السلام يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا ".
وقال عليه السلام: " الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفا كان من الله خائفا وإليه راجيا، وهما جناحا الإيمان، يطير العبد المحلق بهما إلى رضوان الله، وعينا عقله، يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده، والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده، والرجاء داعي فضل الله، وهو يحيي القلب، والخوف يميت النفس.. ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل، ويصل إلى مأموله، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته، ولا له عمل يتوسل به استحقاقا، ولا قدرة له على شئ ولا مفر، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه، من حيث لا تحصى ولا تعد، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر (١٤٩)، والزاهد يعبد على

---

(١٤٩) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار، ولم نعثر على استعمال كلمة (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة.

الخوف " (١٥٠).
وقد ظهر مما ذكر: أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين: (أحدهما) في حق من تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، وكان الرجاء باعثا له على التشمير والنشاط للطاعات، ومثله ينبغي أن يرجي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين، حتى ينبعث من رجائه نشاط العباد. (وثانيهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة، فيقنطه الشيطان من رحمة الله، ويقول له كيف تقبل التوبة من مثلك؟ فعند هذا يجب عليه أن يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه، كقوله تعالى:
" لا تقنطوا من رحمة الله " (١٥١). وقوله: " وإني لغفار لمن تاب " (١٥٢).
ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها، إذ لو توقع المغفرة مع الإصرار كان مغرورا. والرجاء الأول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة.

فصل

(العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد أحبهم إليه، والحب يغلب بالرجاء. واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لعطائه، ولذلك غير الله أقواما يظنون السوء بالله، قال:
" وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم " (١)
وقال: " وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا " (٢).
وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد - كما تقدم - وفي الخبر:
" إن الله تعالى أوحى إلى داود: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي،

---

(١٥٠) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة. وقد تقدم رأي صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقتنا. وهذه الرواية ظاهرة أنها ليست من أسلوب كلام الإمام - عليه السلام -.
(١٥١) الزمر، الآية: ٥٣.
(١٥٢) طه، الآية: ٨٢.
(١) فصلت، الآية: ٢٣.
(٢) الفتح، الآية: ١٢.

فقال: يا رب! كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، وأذكر آلائي وإحساني، وذكرهم ذلك، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل ".
ورأى بعض الأكابر في النوم - وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء - فقال: " أوقفني الله بين يديه، فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك. فقال: قد غفرت لك ".
هذا مع أن الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر إلى مطلعهما، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب. ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي الغضب، فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء. نعم، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، (لا)
سيما على الموجودين في هذا
الزمان، فالأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط ألا يخرجهم إلى اليأس وقطع العمل، بل يحثهم على العمل، ويكدر شهواتهم، ويزعج قلوبهم عن الركون إلى دار الغرور، ويدعوهم إلى التجافي عن عالم الزور، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف، (لا) سيما أن الآفات الخفية: من الشرك الخفي، والنفاق، والرياء، وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة، فمن عرف حقائق هذه الأمور، فإن كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه. وأما أن يغلب رجاؤه فلا، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر، كما في غالب الناس، بل الأصلح لهم غلبة الخوف، ولكن قبل الإشراف على الموت، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل، وقد انقضى وقته، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته. وأما روح الرجاء فيقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه.

وينبغي أن لا يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله، ليكون محبا للقائه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن أحب الله ولقاءه وعلم أنه تعالى أيضا يحب لقاءه، اشتاق إليه تعالى، وكان فرحانا بالقدوم عليه، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره يقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا، فكانت الدنيا جنته، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب، فكان موته خروجا عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه. وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والأغلال. وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وأنسه، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب، فالدنيا أول سجنه، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول إلى محابه، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محبا لله غير محب للدنيا وما فيها، فضلا عما أعده الله له مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف أمراضهم)

قد عرفت أن المحتاج إلى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة، أو غلب عليه الخوف فأسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله. وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف - كأكثر أبناء زماننا - فأدوية الرجاء بالنسبة إليهم سموم مهلكة، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تماديا في طغيانهم وفسادا في فسادهم وعصيانهم، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف أمراضهم وينظر إلى مواقع عللهم، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس، فينتقل إلى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس

فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم.
وبالجملة: الطريق إلى تحصيل الرجاء لمن يحتاج إليه: أن يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته - كما تقدم شطر منها - ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود، بل لم يترك لهم شيئا جزئيا يحتاجون إليه نادرا يفوت بفقده ما هو الأصلح الأولى لهم من الزينة والجمال. فإذا لم تقصر العناية الإلهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا - وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار النعمة والراحة - ولم يرض أن يفوته شئ من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم إلى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد، مع أنه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه؟! وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلا، وفياض على الإطلاق، وإنما أوجد الخلق لإفاضة الجود والاحسان عليهم، فلا بد أن يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم.
از خير محض جز نكوئى نآيد * خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد (١)
ومنها:
صغر النفس
وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات، وهو من نتائج الجبن، ومن خبائث الصفات. وتلزمه الذلة والمهانة، وعدم الاقتحام في معالي الأمور، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، والاضطراب بعروض أدنى شئ من البلايا والمخاوف. وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن برئ عن ذلة النفس، قال الصادق عليه السلام: " إن الله عز وجل فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلا: أما تسمع الله تعالى يقول: " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "؟ (٢)

---

(١) وحاصل معنى هذا البيت: (إن الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل فكن مطمئنا أن عاقبتك ستكون إلى الجميل).
(٢) المنافقون، الآية: ٨.

فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه (٣) بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شئ ". وقال عليه السلام: " إن الله فوض إلى المؤمن كل شئ إلا إذلال نفسه ". وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر. وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن.

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها)، وقد عرفت أنه ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان. وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة، وكل ذلك فرع كبر النفس. قال الباقر عليه السلام: " المؤمن أصلب من الجبل "، وقال عليه السلام: " إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والآخرة، والفلح في الدنيا والآخرة: والمهابة في صدور الظالمين ". وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والإعسار، بل الصحة والمرض والمدح والذم، ولا يتأثر بتقلب الأمور والأحوال. وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد، ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد، بل لا يحوم حولها إلا أوحدي من أفاضل الحكماء، أو ألمعي قوي القلب من أماثل العرفاء. وطريق تحصيلها - بعد تذكر شرافتها - أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها، حتى تحصل بالتدريج.

تتميم

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس، وهو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام، بحيث لا يعتريه الانكسار، وإن زادت وكثرت. وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد،

---

(٣) تقدم في صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث، ورجحنا فيه كلمة (يستفل) بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في أصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) - بالقاف - وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك وجاء في البحار (الجزء الأول المجلد ١٥ - باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) في شرح هذا الحديث هكذا: " الجبل يستقل منه: من القلة، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما ".

ومن جملة الثبات الثبات في الإيمان، وهو اطمئنان النفس في عقائدها، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات، قال الله تعالى:
" يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة " (٤).
وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتا ومواظبا على شئ من الأعمال الفاضلة، بل هو:
" كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران " (٥)
والمتصف به مواظب لها دائما من غير فتور. وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس. فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب، وعدمه من رذائل إحداهما أو كليهما.
ومنها:
دناءة الهمة
وهو قصور النفس عن طلب معالي الأمور وقناعتها بأدانيها، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها. وضده (علو الهمة)، وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الأمور، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالهما. وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت، والموت تحفة له، وأعظم سرور يصل إليه، كما ورد في الأخبار. وهو الذي يقول:
آن مرد نيم كز عدمم بين آيد * كان بيم مرا خوشتر از أين بيم آيد
جاني است مرا بعاريت داده خدا * تسليم كنم چو وقت تسليم آيد (٦)

---

(٤) إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٥) الأنعام، الآية: ٧١.
(٦) الأبيات كلها ل (حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره. ومعنى البيتين:
(لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه، فإن ما أخشى منه - وهو الموت - أحسن عندي من نفس الخوف منه، لأن نفسي قد أعارنيها الله تعالى فعلي أن أسلمها عندما يطلب تسليم العارية).

ويقول:
مرگ اگر مرد است گو نزد من آي * تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ
من از آن عمرى ستانم جاودان * آن زمن دلقى ستاند رنگ رنگ (٧)
ويقول:
أين جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست * روزى رخش ببينم وتسليم وى كنم (٨)
وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها، وهي أعظم الفضائل النفسانية، إذ كل من وصل إلى المراتب العظيمة والأمور العالية فإنما وصل إليها لأجلها، إذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والأمور المتعالية، وفي جوهر الإنسان وجبلته أن يصل إلى كل ما يجتهد في طلبه:
" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (٩).
من طلب الشئ وجد وجد. ومن أفراد علو الهمة الشهامة، وهو الحرص على اقتناء عظائم الأمور توقعا لجميل الذكر على مر الدهور.
ومنها:
عدم الغيرة والحمية
وهو الإهمال في محافظة ما يلزم محافظته: من الدين، والعرض، والأولاد، والأموال. وهو من نتائج صغر النفس وضعفها، ومن المهلكات العظيمة، وربما يؤدي إلى الدياثة والقيادة. قال رسول الله (ص): " إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب ". وقال (ص): " إذا غير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله إليه طائرا يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه، ثم يمهله أربعين يوما، ثم يهتف به: إن الله غيور يحب كل غيور، قال هو غار وغير وأنكر ذلك فأكبره، وإلا

---

(٧) معنى البيتين: (لو أن الموت رجل، فقال له: يأتيني حتى أحتضنه شوقا إليه، وألزه لزا. وذلك لأني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه الزخارف الفانية للوارث).
(٨) معنى البيت: (إن هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ - ويعني نفسه - لا بد أن أسلمها في يوم من الأيام عندما أرى وجه الحبيب - يعني بالحبيب: الله تعالى -).
(٩) العنكبوت، الآية: ٦٩.

طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه، فينزع الله منه بعد ذلك روح الإيمان، وتسميه الملائكة: الديوث ". وقال (ص): " كان إبراهيم غيورا وأنا أغير منه، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين ". وقال أمير المؤمنين
عليه السلام: " يا أهل العراق! نبئت
أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق، أما تستحيون؟ ". وقال (ع): " أما تستحيون ولا تغارون، نساؤكم يخرجن إلى الأسواق ويزاحمن العلوج؟ ".

وصل

(الغيرة والحمية)

وضده (الغيرة والحمية)، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها، وهي شرائف الملكات، وبها تتحقق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال. قال رسول الله (ص): " إن سعدا لغيور، وأنا أغير من سعد، والله أغير مني ".
وقال (ص): " إن الله لغيور، ولأجل غيرته حرم الفواحش " وقال: " إن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه ".
وقال الصادق عليه السلام: " إن الله تعالى غيور ويحب الغيرة، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها ".

فصل

(الغيرة على الدين والحريم والأولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وقصاص المرتدين وإهانة من يستخف به من المخالفين، ورد شبه الجاحدين، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه، ولا يتسامح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، فيحفظهن عن أجانب الرجال، ويمنعهن عن الدخول في الأسواق قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع): " أي شئ خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل. فضمها إليه، وقال: ذرية بعضها من بعض ".
وكان أصحاب النبي (ص) يسدون الثقب والكوي في الحيطان، لئلا تطلع

النساء على الرجال. وقال (ص): " من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار ". وما روي أنه (ص): أذن للنساء في حضور المساجد، وقال " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله "، فالظاهر أنه كان مختصا بنساء عصره (ص)، لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها. والصواب اليوم أن يمنعن من حضور المساجد والذهاب إلى المشاهد إلا العجائز منهن، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر إلى أي موضع كان.
وسئل الصادق (ع) عن خروج النساء في العيدين، فقال: " لا! إلا العجوز عليها منقلاها ". يعني الخفين. وفي رواية أخرى أنه (ع): " سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة، فقال: لا! إلا امرأة مسنة ".
وبالجملة: من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل أن يؤدي إلى فتنة وفساد، سواء كان في نفسه محرما، كالنظر إلى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة، أولا، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا أبي عبد الله الحسين عليه السلام، إذ ذلك وإن كان في نفسه راجحا إلا أن الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا، فإن أقل ما في الباب أنه لا ينفك عن نظرهن إلى الأجانب واستماع كلامهم، بل عن نظرهم إليهن واستماع كلامهن، وهذا خروج للطرفين إلى الانحراف عن قانون العفة. مع إنا نعلم قطعا أن خروج أكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح، وما أقل فيهن أن يكون خروجها إلى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب. فالصواب أن يمنعن في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج، إلا إلى سفر واجب، كالحج، أو إلى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل، إذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وإيصالها إليهن. نعم، لو فرض خروجها إلى أحد المشاهد أو إلى مجمع تعزية من مجامع النساء بل إلى مجمع العرس، على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه، فالظاهر جواز الإذن بل رجحانه. وجميع ذلك إنما هو في الشواب

من النساء، وأما العجائز فلا بأس بخروجهن إلى المواضع المذكورة! ومقتضى الغيرة أن يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم لأنهن ناقصات العقل والإيمان، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة، فاستماعهن لشئ من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهن، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الإيمان فربما أدى ذلك إلى فساد عظيم.

ولذلك ورد في الأخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف عليه السلام، إذ استماعهن الأمثال القصة المذكورة فيها ربما أدى إلى انحرافهن عن طريق العفة. قال أمير المؤمنين (ع): " لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فإن فيها الفتن، وعلموهن سورة النور فإن فيها المواعظ ". وقال (ع): " لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور ". وقال رسول الله (ص): " لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور ".

وبالجملة: مقتضى العقل والنقل أن يمنعن عن جميع ما يمكن أن يؤدي إلى فساد وريبة. وعن مبادئ الأمور التي تخاف غوائلها، وينبغي لصاحب الغيرة أن يجعل نفسه مهيبا في نظرها، حتى تكون منه على خوف وحذر، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها، وأن يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الأمور، كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة، أو بكسب من المكاسب، حتى يكون لها دائما شغل شاغل، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الأوقات، إذ لو خلت عن الأشغال وتعطلت عن المهمات أوقعها الشيطان في أودية الأفكار الردية، فتميل إلى الزينة والخروج والتفرج، والنظر إلى أجانب الرجال، والملاعبة والمضاحكة للنسوان، فينجر أمرها إلى الفساد. وينبغي أيضا لصاحب الغيرة أن يعطي امرأته ما تحتاج إليه من القوت واللباس وسائر الضروريات، حتى لا تضطر إلى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والأفعال توصلا إلى أخذ شئ من ذلك من غير زوجها.

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الإفراط فيبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله (ص): " أن يتبع عورات النساء

وأن يتعنت بهن ". وفي الخبر المشهور: " إن المرأة كالضلع، إن أردت أن تقيمه كسرته، فدعه تستمتع به على عوج ". وقال (ص): " من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة ".

وقال أمير المؤمنين (ع): " لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك ". وقال عليه السلام في رسالته إلى الحسن (ع): " إياك والتغاير في غير موضع الغيرة، فإن ذلك يدعوهن إلى السقم، ولكن أحكم أمرهن فإن رأيت عيبا فعجل النكير على الصغير والكبير، بأن تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب ". وبالجملة: لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه، فإن بعض الظن إثم.

وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد): إن تراقبهم من أول أمرهم، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال، إذ الصبي الذي تتكون أعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه إلى الخبائث، لأن طينته انعجنت من الخبث.

وإذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار. ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه، ويقول (باسم الله) عند أكله، ويأكل مما يليه، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل، ولا يسرع في الأكل، ويمضغ الطعام مضغا جيدا، ولا يلطخ ثوبه ولا يده. ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يذم كثير الأكل ويشبه بالبهائم، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل، ويحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بأي طعام اتفق. ثم يؤدب في أمر اللباس، حتى لا يخرج فيه عن زي الأبرار وأهل الورع، فيحبب إليه ثياب القطن والبيض، دون الإبريسم الملون، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين، والرجال يستنكفون منه، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة. ثم يؤدب في الأخلاق والأفعال ويبالغ في ذلك، لأن الصبي إذا أهمل في أول نشوه خرج في الأكثر ردي الأخلاق والأفعال، فيكون كذابا، حسودا، لجوجا، عنودا سارقا، خائفا، ذا ضحك وفضول، وربما صار مخنثا مائلا إلى الفسوق

والفجور، فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء، وهو الأصل في تأديبه. يسلم إلى معلم دين صالح، يعلمه القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار، لينغرس في نفسه حب الصالحين. ويحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر الفسوق وأهله، إذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد. وينبغي أن يعود الصبر والسكوت إذا ضربه المعلم، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل حتى يستريح من تعب الأدب، ولا يموت قلبه، ولا ينقص ذكاه. ويعلم محاسن الأخلاق والأفعال، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الأعمال فيخوف من الحسد، والعداوة، والجبن، والبخل، والكبر، والعجب ويحذر من السرقة، وأكل الحرام، والكذب، والغيبة، والخيانة، والفحش واللعن، والسب، ولغو الكلام.. وغير ذلك. ويرغب في الصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والشجاعة، والسخاء، والصدق، والنصيحة...

وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها. ويمدح عنده الأخيار ويذم الأشرار، حتى يصير الخير عنده محبوبا، ويصير الشر عنده مبغوضا.

وإذا بلغ سن التمييز، يؤمر بالطهارة والصلاة، وبالصوم في بعض الأيام من شهر رمضان، ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج إليه من حدود الشرع. ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس. وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك سره، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، (لا) سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك، فإن عاد ثانيا إلى مثله، فينبغي أن يعاتب عليه سرا ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن يطلع على فعلك هذا أحد فتفتضح عند الناس. ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظا هيبته في الكلام والحركات معه. وينبغي للأم أن تخوفه بالأب. وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك يعود

فعل القبيح. ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والأفعال وعدم كشف أطرافه، والتواضع والاكرام لكل من عاشره، والتلطف معه في الكلام، ويعلم طاعة والديه، ومعلمه، ومؤدبه، وكل من هو أكبر سنا منه، من قريب وبعيد، ويعود النظر إليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم. ويمنع من الفخر على أقرانه بشئ مما تملكه نفسه أو والده. ويخوف من أخذ شئ من الصبيان أو الرجال، أو يذكر له أن الرفعة في العطاء، والأخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة، فإنه دأب الكلب، إذ هو يتبصبص في انتظار لقمة، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، إذ آفة حبهما أكثر من آفة السموم وقد هلك لأجله كل من هلك العالم. ويعود ألا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتمطط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلا على رجل، ولا يضرب كفه تحت ذقنه، لأنه دليل الكسل. ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون. ويمنع من النوم في النهار، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب أعضاؤه، ولا يستخف بدنه، يذكر له أنها خلقت لدفع الضرر والألم لا لأجل اللذة وإن الأطعمة أدوية يتقوى الإنسان بها على عبادة الله، وإن الدنيا كلها لا أصل لها ولا بقاء لها، وإن الموت يقطع نعيمها، وإنها دار ممر لا دار مقر. وإن الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات، والكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة. وينبغي أن يمنع من كثرة الكلام، ومن الكذب، واليمين ولو كان صدقا، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح، ومن أن يبتدئ بالكلام، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر سنا منه، وأن يقوم لمن هو أكبر منه، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه.

فإذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة، فيكون خيرا صالحا. وإن نشأ على خلاف ذلك، حتى ألف اللعب والفحش، والوقاحة، والخرق، وشره الطعام، واللباس، والتزين والتفاخر بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر، وكان وبالا لوالديه، وصدر منه

ما يوجب الفضيحة والعار. فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا، لأنه أمانة الله عنده، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة، وقابل للخير والشر، وأبواه يميلان به إلى أحدهما، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل شقى وهلك، وكان الوزر في رقبة أبيه أو من كان فيما ووليا له.

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية، فيستعمل ما يليق بها، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت، والحجاب، والوقار، والعفة، والحياء، وسائر الخصال التي ينبغي أن تتصف بها النساء.

ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبي أنه مستعد لأي علم وصناعة، فيجعل مشغولا باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة، إذ كل أحد ليس مستعدا لكل صناعة، وإلا لاشتغل الجميع بأشرف الصناعات، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه.

وأما الغيرة على (المال)، فلا تظن أنها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الأخيار، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج إليه، وتحصيل الآخرة أيضا يتوقف عليه. إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات. فلا بد لكل عاقل أن يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه، كإنفاقه للرياء والمفاخرة والتضيف، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سرا، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه إلى أحد، أو إسرافه في بذله، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا. بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف

ج: ١

جميع أمواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها إلى نفسه، ولا يترك شيئا منها لوراثه إلا للأخيار من أولاده، إذ بقاؤهم بمنزلة بقائه، ويترتب على وجودهم - مع حسن حالهم وعيشهم - جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته. وكيف يرضى صاحب الغيرة أن يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة، لزوج امرأته، فيأكله ويجامعها، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية. وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء، من أولاد السوء وأزواج البنات، وسائر الأقارب من الأخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات. وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته، إلا أن ترك الأموال لهم إذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش، كما هو المشاهد في زماننا هذا.

ومنها:

العجلة

وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الإقدام على الأمور بأول خاطر، من دون توقف واستبطاء في أتباعها والعمل بها. وقد عرفت أنه من لوازم ضعف النفس وصغرها، وهو من الأبواب العظيمة للشيطان، قد أهلك به كثيرا من الناس. قال رسول الله (ص): " العجلة من الشيطان، والتأني من الله ". وقد خاطب الله تعالى نبيه (ص) بقوله:
" ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه " (١٠).
وقد روي: " أنه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس، فقالت: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها. فقال: هذا حادث قد حدث،

----

(١٠) طه، الآية: ١١٤.

مكانكم. فطار حتى جاء خافقي الأرض، فلم يجد شيئا، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفت حوله، فرجع إليهم، فقال: إن نبيا قد ولد البارحة. ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها، إلا هذا، فايأسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة ".

والظواهر في ذم العجلة أكثر من أن تحصى، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة. والسر في شدة ذمها: أن الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة، وهما موقوفان على التأمل والمهلة، والعجلة تمنع من ذلك، فمن يستعجل في أمر يلقي الشيطان شره عليه من حيث لا يدري. والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة، بل يكون مرضيا، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ولا وقع له عند القلوب. والمتأمل في الأمور يعلم أن العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها.

وبيان ذلك: أنه لا ريب في أن أحب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء، لأنها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة والسر فيه: أن كل معلول من سنخ علته، ويناسبها في صفاتها وآثارها، وغاية ابتهاجه أن يتصف بمثل كمالاتها، ولذا قيل: " كل ما يصدر عن شئ لا يمكن أن يكون من جميع الجهات هو هو، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو ".

وهذا معنى كلام قدماء الحكمة: (الممكن زوج تركيبي). ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته، إلا أن ما هو في سلسلة الصدور إليه أقرب والواسطة بينهما أقل، تكون مناسبة له أتم وشوقه إلى الاتصاف بكماله أشد. ولا ريب في أن الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الأمر مقتبسة من مشكاة نوره، فلها غاية القرب

إليه في سلسلة الصدور، فتكون شديدة الشوق إلى الإنصاف بنحو كماله.
والنفس الإنسانية لكونها منها ومن عالم الأمر - كما قال الله تعالى -:
" قال الروح من أمر ربي " (١١).
تكون مثلها في القرب إليه تعالى أو في المناسبة له، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء، وليس ذلك مذموما، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له، وسعادة دائمية لا نفاد لها، وبقاء لا فناء فيه، وعزا لا ذل معه، وأمنا لا خوف فيه، وغنى لا فقر معه، وكمالا لا نقصان فيه. وهذه كلها من أوصاف الربوبية وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة.
فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير المعين المبعد عن عالم الأمر، إذ حسدها على كونها من عالم الأمر، فأضلها وأغواها من طريق العجلة، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بأنواع الآلام، لكونه عاجلا، وصده عن الملك المخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع، لكونه آجلا. والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغبا في العاجلة، لما جاءه المطرود من عالم الأمر، وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه، واستغواه بالعاجلة، وأمال قلبه إلى عدم الاعتناء بالآجلة، وزين له الحاضرة، ووعده بالغرور وبالتمني على الله في باب الآخرة، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علوا واستيلاء في الحقيقة، بل هو صفة نقض يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية. مثال ذلك: أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال، ولكن إذا وقع في موقعه، وذلك إذا كان المحبوب شريفا كاملا في ذاته وصفاته، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره، ويختار الملك العاجل الفاني على

----
(١١) الإسراء، الآية: ٨٥.

السلطنة الأجلة الباقية، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره، إذ علم مداخل مكره، فأعرض عن العاجلة واختار الأجلة.

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق، أرسل الله إليهم الأنبياء، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازي الذي لا أصل له ولا دوام أن سلم إلى الملك الحقيقي الذي لا زوال له أصلا، فنادوا فيهم:

" يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل " (١٢).

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية، كما قال سبحانه:

" إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا " (١٣). وقال:

" كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة " (١٤).

فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق إلى الملك المخلد، ليكونوا ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى، ودرك بقاء لا فناء فيه، وعز لا ذل معه، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد. والشيطان يدعوهم من طريق العجلة إلى ملك الدنيا الفاني، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا، مع أنه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات، يفوت به ملك الآخرة، إذ الدنيا والآخرة ضرتان. بل يفوت به الملك الحاضرة الذي هو الزهد في الدنيا، إذ معناه أن يملك العبد شهوته وغضبه، فينقادان لباعث الذين وإشارة الإيمان. وهذا ملك بالاستحقاق، إذ به يصير صاحبه حرا، وباستيلاء الشهوة يصير عبدا لبطنه وفرجه وسائر أعضائه، فيكون مسخرا مثل البهيمة، مملوكا يسخره زمام الشهوة، أخذ المخنقة إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا، وينال الربوبية بأن يصير عبدا. ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة؟. فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا

---

(١٢) التوبة، الآية: ٣٨.
(١٣) الدهر، الآية: ٢٧.
(١٤) القيامة، الآية: ٢٠ - ٢١.

والآخرة هو العجلة.
والطريق في علاجها: أن يتذكر فسادها، وسوء عاقبتها، وإيجابها للخفة والمهانة عند الناس، وتأديتها إلى الندامة والخسران. ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده، وكونه صفة الأنبياء والأخيار، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل والمهلة، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطنا وظاهرا في جميع أفعاله وسكناته، فإذا فعل ذلك مدة، ولو بالتكلف والتعمل، يصير ذلك عادة له، فتزول عنه هذه الصفة، وتحدث صفة الوقار والسكينة.

وصل

(الأناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة (الأناة) (١)، وهو المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الأمور والنظر فيها، والتأني في أتباعها والعمل بها.
ثم (التوقف) قريب من التأني والأناة، والفرق بينهما: أن التوقف هو السكون قبل الدخول في الأمور حتى يستبين له رشدها، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه، وضد التوقف والتعسف.
و (الوقار) يتناول الأناة والتوقف كليهما، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده. وهو من نتائج قوة النفس وكبرها. وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة، ولذا يمدح به الأنبياء والأصفياء، وورد في الأخبار: " إن المؤمن متصف به البتة ". فينبغي لكل مؤمن أن يتكلف آثاره في الحركات والأفعال، حتى يصير بالتدريج ملكة، وتكلف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار، وإذا صارت ملكة سميت سكينة، إذ هي طمأنينة الباطن، والوقار اطمئنان الظاهر.

---

(١) في النسخ (الأناءة)، فصححناه كما هنا.

ومنها:

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه، وقد يترتب عليه الخوف والغم، وهو من المهلكات العظيمة، وقد قال الله سبحانه:
" يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم " (٢).
وقال تعالى: " وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم (٣). وقال: " وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا " (٤).
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا ". ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر، بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه، أو يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه. وكل ذلك من المهلكات، على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته، كما أن حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته، فكل من يسئ الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه، والمنافق يطلب مساويه، وكل إناء يترشح بما فيه. والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لأحد أن يعتقد في حق غيره سوءا إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل، إذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه، فالشيطان ألقاه إليه، فينبغي أن يكذبه، لأنه أفسق الفسقة. وقد قال الله:

---

(٢) الحجرات، الآية: ١٢.
(٣) فصلت، الآية: ٢٣.
(٤) الفتح، الآية: ١٢.

" إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة " (٥).
فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه، وإن حف بقرائن الفساد، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رأيت عالما في بيت أمير ظالم لا تظنن أن الباعث طلب الحطام المحرمة، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم. ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجز من بشرب الخمر ووجوب الحد، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه، أو شربه إكراها وقهرا. فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال، وهو صريح المشاهدة، أو قيام بينة فاضلة. ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم، وجب عليك أن تتوقف في إخباره من غير تصديق ولا تكذيب، إذ لو كذبته لكنت خائنا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضا من سوء الظن، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة، فترد شهادته، ولو صدقته لكنت خائنا على المسلم المخبر عنه، إذ ظننت به السوء، مع احتمال كون العدل المخبر ساهيا، أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون في إخباره بخلاف الواقع آثما وفاسقا. وبالجملة: لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسئ بالآخر، فتذكر المذكور حاله على ما كان في الستر والحجاب، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع، ولا بحجة شرعية يجب قبولها، وتحمل خبر العدل على إمكان تطرق شبهة مجوزة للإخبار، وإن لم يكن مطابقا للواقع.
ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس، بل الشك أيضا، إذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو أن يظن، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس إليه. والأمارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة إلى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها. والدليل على أن المراد هو ما ذكر، قوله (ص): " ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه " أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح.

----

(٥) الحجرات، الآية: ٦.

ثم لكون سوء الظن من المهلكات، منع الشرع من التعرض للتهمة، صيانة لنفوس الناس عنه، فقال (ص) " اتقوا مواقع التهم "، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ". وروي: " أنه (ص) كان يكلم زوجته صفية بنت حي ابن أخطب، فمر به رجل من الأنصار، فدعاه رسول الله، وقال، يا فلان! هذه زوجتي صفية. فقال: يا رسول الله! أفنظن بك إلا خيرا؟ قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يدخل عليك ". فانظر كيف أشفق رسول الله (ص) على دينه فحرسه، وكيف علم الأمة طريق الاحتراز عن التهمة، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيرا، إعجابا منه بنفسه، فإن ما لا جزم بتحققه في حق سيد الرسل وأشرفهم، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ. والسر في ذلك: أن أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن السخط تبدي المساويا

فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط، فيكتم المحاسن ويطلب المساوئ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شرا، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم، لأن البلية إذا عمت هانت، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه. فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن، فيكون شريكا في معصيتهم، إذ كل من كان سببا لمعصية غيره يكون شريكا له في هذه العصية. ولذا قال الله تعالى:

" ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم " (٦).

وقال رسول الله (ص): " كيف ترون من يسب أبويه؟ فقالوا: هل من أحد بسب أبويه؟ فقال: نعم! يسب أبوي غيره فيسبون أبويه ".

ثم طريق المعالجة في إزالته - بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده -: أنه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم: لا تتبعه،

---

(٦) الأنعام، الآية: ١٠٨.

ولا تحققه، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة إليه، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته وإعظامه وتدعو له بالخير، فإن ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خوفا من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام. ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه، لتنظر إليه بعين الحقارة، مع أنه ينظر إليك بعين التعظيم بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الإثم، وتكون محزونا كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب إليك من تركه بنصيحتك، وإذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته وأجر الحزن بمصيبته وأجر الإعانة على آخرته.

وصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما).

ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها، وفوائده أكثر من أن تحصى، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله، ولا يظن أنه لا يرحمه ويعذبه البتة ولا يخلصه من العقاب، وإن ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة، بل ينبغي أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود، فلا بد أن يرحمه في دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله إلى نعيم السرمد، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح، وذخيرة له في يوم المعاد.

وكذا لا يظنن السوء، والشر بالمسلمين، ولا يحملن ما له وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها، ما لم يجزم بفساده، ويكذب وهمه وسائر حواسه، فيما يذهب إليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة، ويكلف نفسه على ذلك، حتى يصير ذلك ملكة له، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية، نعم، الحمل على الوجه الصحيح على

تقدير عدم مطابقته للواقع، لو كان باعثا لضرر ما لي أو فساد ديني أو عرضي، لزم فيه الحزم والاحتياط، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه لئلا يترتب عليه الخسران والأضرار، وتلزمه الفضيحة والعار.

ومنها:

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام، وهو من جانب الإفراط، وإذا اشتد يوجب حركة عنيفة، يمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة. قال بعض علماء الأخلاق: " الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، إلا أنها لا تطلع إلا على الأفئدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين، التي لها عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال:

" خلقني من نار وخلقته من طين " (٧).

فمن شأن الطين السكون والوقار، ومن شأن النار التلظي والاستعار ".

ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما إلى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها، أو إلى التشفي والانتقام إن كان بعد وقوعها، فشهوتها إلى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه، ولا تسكن إلا به. فإن صدر الغضب على من يقدر أن ينتقم منه، واستشعر باقتداره على الانتقام، انبسط الدم من الباطن إلى الظاهر، واحمر اللون، وهو الغضب الحقيقي. وإن صدر على من لا يتمكن أن ينتقم منه لكونه فوقه، واستشعر باليأس عن الانتقام، انقبض الدم من الظاهر إلى الباطن، وصار حزنا. وإن صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى، فيحمر ويصفر ويضطرب.

----

(٧) الأعراف، الآية: ١٢ وص، الآية: ٧٦.

فصل

(الإفراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على إفراط وتفريط واعتدال. فالافراط: أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما، ولا تبقى له فكرة وبصيرة. والتفريط: أن يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعا وعقلا. والاعتدال: أن يصدر غضبه فيما ينبغي ولا يصدر في ما لا ينبغي، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل، بل يكون تابعا لهما في الغضب وعدمه، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما.

ولا ريب في أن الاعتدال ليس مذموما، ولا معدودا من الغضب، بل هو من الشجاعة. والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة، وربما كان أخبث من الغضب، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له، وهو ناقص جدا. ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس، والجور، وتحمل الذل من الأخساء، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء. ولذا قيل: " من استغضب فلم يغضب فهو حمار " (٨). وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة، فقال:

" أشداء على الكفار " (٩)

وخاطب نبيه (ص) بقوله:

" وأغلظ عليهم " (١٠)

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب، ففقد هذه القوة بالكلية، أو ضعفها مذموم. وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الإفراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضبا، بل هو ضد له معدود من الجبن، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة، فانحصر الغضب بالأول.

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ، فيكونان في بعضهم سريعين، وفي بعضهم بطيئين

---

(٨) هذه الكلمة منسوبة للشافعي - على ما في إحياء العلوم: ج ٣ ص ١٤٥ و ١٥٦ -.

(٩) الفتح، الآية: ٢٩.

(١٠) التوبة، الآية: ٨٣.

وفي بعضهم يكون أحدهما سريعا والآخر بطيئا، وفي بعضهم يكون كلاهما أو أحدهما متوسطا بين السرعة والبط، وما كان من ذلك بإشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن.

فصل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة، وربما أدى إلى الشقاوة الأبدية، من القتل والقطع، ولذا قيل: (إنه جنون دفعي). قال أمير المؤمنين (ع): " الحدة ضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم ". وربما أدى إلى اختناق الحرارة، ويورث الموت فجأة. وقال بعض الحكماء: " السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة، أرجى إلى الخلاص من الغضبان الملتهب ". وقد ورد به الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله (ص): " الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل ". وقال الباقر (ع): " إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك ". وقال الصادق عليه السلام: " وكان أبي عليه السلام يقول: أي شئ أشد من الغضب؟ إن الرجل بغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة ". وقال عليه السلام (١١): " إن الرجل ليغضب فما يرضى أبدا حتى يدخل النار ". وقال الصادق عليه السلام: " الغضب مفتاح كل شر ". وقال عليه السلام: " الغضب ممحقة لقلب الحكيم ". وقال عليه السلام: " من لم يملك غضبه لم يملك عقله ".

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة، والأغراض المضرة القبيحة: انطلاق اللسان بالشتم والسب، وإظهار السوء والشماتة بالمساءة

---

(١١) أي: الباقر (ع) وقد روى هذه الأخبار المذكورة هنا الكافي في باب الغضب، فروى هذا الخبر عنه (ع) لا عن الصادق (ع).

وإفشاء الأسرار وهتك الأستار والسخرية والاستهزاء، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء، وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه: الندامة بعد زواله، وعداوة الأصدقاء، واستهزاء الأراذل، وشماتة الأعداء.

وتغير المزاج، وتألم الروح وسقم البدن، ومكافأة العاجل وعقوبة الأجل.

والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية، مع أن ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة، من الشتم والسب بالنسبة إلى الشمس، والقمر، والسحاب، والمطر، والريح، والشجر، والحيوانات والجمادات، وربما يضرب القصعة على الأرض، ويكسر المائدة، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء، وإذا عجز عن التشفي، وربما مزق ثوبه، ولطم وجهه، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير، وربما اعتراه مثل الغشية، أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو. وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله (ص): " الشجاع من يملك نفسه عند غضبه ".

فصل

(إمكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه، فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن، لأنه مقتضى الطبع، إنما الممكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجانه. وأنت خبير بأن الغضب الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم، إذ غيره مما يكون بإشارة العقل والشرع ليس غضبا فيه كلامنا، بل هو من آثار الشجاعة، والاتصاف به من اللوازم وإن أطلق عليه اسم الغضب أحيانا حقيقة أو مجازا، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: " كان النبي (ص) لا يغضب للدنيا، وإذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد، ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له ". ولا ريب أن الغضب الذي يحصل لرسول الله (ص) لم يكن غضبا مذموما، بل كان غضبا ممدوحا يقتضيه منصب النبوة، وتوجيه الشجاعة النبوية، ثم الغضب

المذموم ممكن الزوال، ولولا إمكانه لزم وجوده للأنبياء والأوصياء، ولا ريب في بطلانه.
ثم علاجه يتوقف على أمور، وربما حصل ببعضها:
(الأول) إزالة أسبابه المهيجة له، إذ علاج كل علة بحسم مادتها، وهي العجب، والفخر، والكبر، والغدر، واللجاج، والمراء، والمزاح، والاستهزاء، والتعيير، والمخاصمة، وشدة الحرص على فضول الجاه والأموال الفانية، وهي بأجمعها أخلاق ردية مهلكة، ولا خلاص من الغضب مع بقائها، فلا بد من إزالتها حتى تسهل إزالته.
(الثاني) أن يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته، وما ورد في الشريعة من الذم عليه، كما تقدم.
(الثالث) أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده، ويتأمل فيما وردد من فوائد عدم الغضب، كقول النبي (ص): " من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة " وقول الباقر عليه السلام: " مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي ". وقول الصادق (ع): " أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم! اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي، ولا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك ". وقوله (ع): " سمعت أبي يقول: أتى رسول الله (ص) رجل بدوي، فقال: إني أسكن البادية، فعلمني جوامع الكلم. فقال: آمرك ألا تغضب. فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسأل عن شئ بعد هذا، ما أمرني رسول الله (ص) إلا بالخير ". وقوله عليه السلام: " إن رسول الله (ص) أتاه رجل، فقال: يا رسول الله! علمني عظة أتعظ بها، فقال له: انطلق ولا تغضب، ثم عاد عليه، فقال له: انطلق ولا تغضب ... ثلاث مرات " وقوله عليه السلام: " من كف غضبه ستر الله عورته " ... إلى غير ذلك من الأخبار.
(الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب، أعني الحلم وكظم الغيظ،

وما ورد من المدح عليهما في الأخبار - كما يأتي - ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف، فيتحلم وإن كان في الباطن غضبانا، وإذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس، فتنقطع عنها أصول الغضب.

(الخامس) أن يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه، ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه.

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقولون: نحن لا نصبر على كذا وكذا، ولا نحتمل من أحد أمرا. ويختار مجالسة أهل الحلم، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس.

(السابع) أن يعلم إن ما يقع أنما هو بقضاء الله وقدره، وإن الأشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته، وإن كل ما في الوجود من الله، وإن الأمر كله لله، وإن الله لا يقدر له ما فيه الخيرة، وربما كان صلاحه في جوعه أو مرضه، أو فقره، أو جرحه أو قتله، أو غير ذلك. فإذا علم بذلك غلب عليه التوحيد، ولا يغضب على أحد، ولا يغتاظ عما يرد عليه، إذ يرى - حينئذ - أن كل شئ في قبضة قدرته أسير، كالقلم في يد الكاتب. فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الأصلحية، لا يغضب على أحد، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر. ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الأنبياء، مع أن التفاتهم في الجملة إلى الوسائط مما لا يمكن إنكاره.

(الثامن) أن يتذكر إن الغضب مرض قلب ونقصان عقل، صادر عن ضعف النفس ونقصانها، لا عن شجاعتها وقوتها، ولذا يكون المجنون أسرع غضبا من العاقل، والمريض أسرع غضبا من الصحيح. والشيخ الهرم أسرع غضبا من الشاب، والمرأة أسرع غضبا من الرجل، وصاحب الأخلاق

السيئة والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل. فالرذيل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، والبخيل يغتاظ لبخله إذا فقد الحبة، حتى يغضب لفقد أدنى شئ على أعز أهله وولده. والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأنا من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الأمور، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف، ولذا قال سيد الرسل (ص): " ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ". وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر إلى طبقات الناس الموجودين، ثم ارجع إلى كتب السير والتواريخ، واستمع إلى حكايات الماضين، حتى تعلم: أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكماء وأكابر الملوك والعقلاء، والغضب خصلة الجهلة والأغبياء.

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته، فليحذر، ولم يأمن إذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة، وقد روي: " أنه ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها: (إرحم المساكين، واخش الموت، واذكر الآخرة)، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه ". وفي بعض الكتب الإلهية: " يا ابن آدم! اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق " (١٢).

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوي وتشمر لمقابلته، وجرد عليه لسانه بإظهار معائبه والشماتة بمصائبه، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه.

(الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الغيظ والغضب فإن كان الخوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس، فليتنبه أن الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها.

---

(١٢) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق (ع) بهذه العبارة: " إن في التوراة مكتوبا: يا بن آدم! اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي، فلا أمحقك فيمن أمحق... " وقد تقدم مثله ص ٢٩١.

ج: ١

وأضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها. فدفع الغضب عن نفسه لا يخرجه من كبر النفس في الواقع، ولو فرض خروجه به منه في أعين جهلة الناس فلا يبالي بذلك، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض أرذال البشر أولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر.
وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شئ مما يحبه، فليعلم أن ما يحبه ويغضب لفقده إما ضروري لكل أحد، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن، وهو الذي أشار إليه سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله: " من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها ". أو غير ضروري لأحد، كالجاه والمنصب وفضول الأموال. أو ضروري لبعض الناس دون بعض، كالكتاب للعالم، وأدوات الصناعات لأربابها. ولا ريب أن كل ما ليس من هذه الأقسام ضروريا فلا يليق أن يكون محبوبا عند أهل البصيرة وذوي المروات، إذ ما لا يحتاج إليه الإنسان في العاجل لا بد له من تركه في الآجل، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده، وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم البتة. وأما ما هو ضروري للكل أو البعض، وإن كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج إليه. إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الأشياء الضرورية إن أمكن رده والوصول إليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضا، وإن لم يمكن لم يمكن معهما أيضا. وعلى أي حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل، وحينئذ لا يغضب، وإن غضب يدفعه عن نفسه بسهولة.
(الثاني عشر) أن يعلم إن الله يحب منه ألا يغضب، والحبيب يختار البتة ما يحب محبوبه، فإن كان محبا لله فليطفئ شدة حبه له غضبه.
(الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب.

تتميم

إعلم أن بعض المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده، حتى لا يهيج ولا يصدر، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر

وهاج. ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان، والجلوس إن كان قائما، والاضطجاع إن كان جالسا، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، وإن كان غضبه على ذي رحم فليدن منه وليمسه، فإن الرحم إذا مست سكنت، كما ورد في الأخبار (١٣).

وصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة، فهو الضد الحقيقي للغضب، لأنه المانع من حدوثه وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضا ضدا له. فنحن نشير إلى فضيلة الحلم وشرافته، ثم إلى فوائد كظم الغيظ ومنافعه، ليجتهد طالب إزالة الغضب في الاتصاف بالآل فلا يحدث فيه أصلا، وبالثاني، فيدفعه عند هيجانه. فنقول:

أما (الحلم) فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم، بل لا ينفع العلم بدونه أصلا، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " خمس من سنن المرسلين "... وعد منها الحلم. وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " وابتغوا الرفعة عند الله ". قالوا: وما هي يا رسول الله!؟ قال: " تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " إن الرجل المسلم لدرك بالحلم درجة الصائم القائم ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - " إن الله يحب الحيي الحليم، ويبغض الفاحش البذي ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس ". وقال (ص): " إذا جمع الخلائق يوم القيامة، نادى مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعا إلى الجنة؟ فيقولون: نحن أهل الفضل. فيقولون: ما

---

(١٣) روي ذلك في الكافي في باب الغضب عن الباقر (ع).

كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسئ إلينا عفونا، وإذا جهل علينا حلمنا. فقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العالمين " وقال (ص): " ما أعز الله بجهل قط، ولا أذل بحلم قط ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ". وقال علي بن الحسين (ع): " إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه ". وقال الصادق (ع): " كفى بالحلم ناصرا ". وقال (ع): " وإذا لم تكن حليما فتحلم ". وقال (ع): " إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان، فيقول للسفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت، وستجزي بما قلت، ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر لك إن أتممت ذلك. قال (ع): فإن رد الحليم عليه ارتفع الملكان ". وبعث (ع) غلاما له في حاجة فأبطأ، فخرج على أثره فوجده نائما، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فقال له: " يا فلان! والله ما ذلك لك! تنام الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار ". وقال الرضا (ع): " لا يكون الرجل عابدا حتى يكون حليما ".

وأما (كظم الغيظ) - فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة، لأنه التحلم: أي تكلف الحلم، إلا أنه إذا واظب عليه حتى صار متعادا تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج إلى كظمه، ولذا قال رسول الله (ص) " إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ". فمن لم يكن حليما بالطبع لا بد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه، حتى تحصل له صفة الحلم. وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه، وتوارت الأخبار على شرافته وعظم أجره. قال رسول الله (ص) -: " من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا " (١٤). وقال (ص) - " ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى ". وقال (ص) -: " إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى ". وقال - (ص) " من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه

---

(١٤) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن أبي عبد الله (ع).

دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق، حتى يخبر من أي الحور شاء " (١٥)
وقال - (ص): " من أحب السبيل (١٦) إلى الله تعالى جرعتان: جرعة
غيظ يردها بحلم، وجرعة مصيبة يردها بصبر " وقال سيد الساجدين (ع)
وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها ". وقال الباقر
عليه السلام: " من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه، حشا الله تعالى قلبه
أمنا وإيمانا يوم القيامة ". وقال (ع) لبعض ولده (١٧): " يا بني ما من شئ
أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر، وما يسرني أن لي بذل نفسي حمر
النعم ". وقال الصادق (ع): " نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها، فإن
عظيم الأجر البلاء، وما أحب الله قوما إلا ابتلاهم ". وقال (ع): " ما من
عبد كظم غيظا إلا زاده الله - عز وجل - عزا في الدنيا والآخرة " وقد قال
الله - عز وجل -:
" والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " (١٨).
وأثابه الله مكان غيظه ذلك ". وقال أبو الحسن الأول (ع): " اصبر
على أعداء النعم، فإنك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه "
ومنها:

الانتقام

بمثل ما فعل به، أو بالأزيد منه - وإن كان محرما ممنوعا من الشريعة
وهو من نتائج الغضب، إذ كل انتقام ليس جائزا، فلا يجوز مقابلة الغيبة
بالغيبة، والفحش بالفحش، والبهتان بالبهتان، والسعاية إلى الظلمة بمثلها.
وهكذا في سائر المحرمات. قال سيد الرسل (ص) -: " إن امرؤ عيرك
بما فيك فلا تعيره بما فيه ". وقال (ص): " المستبان شيطانان يتهاتران ". وقد

----

(١٥) صححنا هذا الحديث على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد ١٥
في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي
وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات.

(١٦) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات.
والظاهر أن الأصح (السبل).

(١٧) في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا: " عن أبي
جعفر (ع) قال: قال لي أبي: يا بني! ما من شئ... " إلى آخر الحديث،
فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر - عليهما السلام -.

(١٨) آل عمران، الآية: ١٣٤.

ورد: أن رجلا شتم أبا بكر بحضرة النبي (ص) وهو ساكت، فلما ابتدأ لينتصر منه، قام رسول الله (ص) وقال مخاطبا له: " إن الملك كان يجيب عنك، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان ".

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة إلى غيره ظلما، إن كان له في الشرع قصاص وغرامة، فيجب ألا يتعدى عنه، وإن كان العفو عن الجائر أيضا أفضل وأولى وأقرب إلى الورع والتقوى، وإن لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة، وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ما ليس فيه حرمة ولا كذب، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الأذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة، بقوله: يا قليل الحياء. ويا سئ الخلق. ويا صفيق الوجه... وأمثال ذلك، إذا كان متصفا بها ومثل قوله: جزاك الله وانتقم منك. ومن أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان ومثل قوله: يا جاهل. ويا أحمق. وهذا ليس فيه كذب مطلقا، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق، (أما الأول) فظاهر، (وأما الثاني) فلما ورد من أن الناس كلهم حمقى في ذات الله.

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام، قول النبي (ص) " المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم " (١٩) وقول الكاظم (ع) في رجلين يتسابان: " البادئ منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم " (٢٠). وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادئ من دون وزر ما لم يتعد، ومعلوم أن المراد بالسبب فيهما أمثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة، ولا ريب في أن الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل، ولعل السكوت عن أصل الجواب وحوالة الانتقام إلى رب الأرباب أيسر وأفضل، ما لم يؤد إلى فتور الحمية وللغيرة، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب، لاختلاف حالهم في حدوث

---

(١٩) صححنا الحديث على ما في إحياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية. وفي المطبوعة: " حتى يتعذر إلى المظلوم ".

(٢٠) صححنا الحديث على ما في أصول الكافي في باب السفه. وفي نسختنا الخطية والمطبوعة: " ما لم يعتذر إلى المظلوم ".

الغضب وزواله. قال رسول الله (ص): " ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى منهم بطئ الغضب سريع الفيئ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيئ، فتلك بتلك. ومنهم سريع الغضب بطئ الفيئ، ومنهم بطئ الغضب بطئ الفيئ ألا وإن خيرهم البطئ الغضب السريع الفيئ، وشرهم السريع الغضب البطئ الفيئ ". وقد ورد في خبر آخر: " إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا، فهذه بتلك ".

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام: أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والأجل، ويتذكر فوائد تركه، ويعلم أن الحوالة إلى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى، وإن انتقامه أشد وأقوى، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته، كما يأتي

وصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو)، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه أكثر من تحصى، قال الله تعالى سبحانه:

" خذ العفو وأمر بالمعروف " (٢١). وقال: " وليعفوا وليصفحوا " (٢٢). وقال: " وإن تعفوا أقرب للتقوى " (٢٣).

وقال رسول الله (ص): " ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفا لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ". وقال (ص): " العفو لا يزيد العبد إلا عزا، فاعفوا يعزكم الله ". وقال (ص) لعقبة: " ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك " (٢٤) وقال (ص) " قال موسى: يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفى " وقال سيد الساجدين (ع) " إذا كان يوم القيامة، جمع الله الأولين والآخرين في

---

(٢١) الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢٢) النور، الآية: ٢٢.

(٢٣) البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢٤) في أصول الكافي في باب العفو: " ألا أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة: تصل من قطعك... " إلى آخر الحديث.

صعيد واحد، ثم ينادي مناد: أين أهل الفضل؟ قال فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة، فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم، ادخلوا الجنة ". وقال الباقر (ع): " الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة ". وقال الصادق (ع) " ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك.. إلى آخر الحديث وقال أبو الحسن (ع) " ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفوا ". وكفى للعفو فضلا وشرافة أنه من أجمل الصفات الإلهية، وقد يمدح الله تعالى به مقام الخضوع والتذلل، قال سيد الساجدين عليه السلام: " أنت الذي سميت نفسك بالعفو، فاعف عني ". وقال (ع) " أنت الذي عفوه أعلى من عقابه ".

ومنها:

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الأقوال أو الحركات أيضا، وهو من نتائج الغضب، وضده (الرفق)، أي اللين فيهما، وهو من نتائج الحلم. ولا ريب في أن الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي إلى اختلال أمر المعاش والمعاد، ولذلك نهى الله - سبحانه - نبيه عنه في مقام الإرشاد، وقال: " ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " (٢٥).

وروي عن سلمان: " أنه قال: إذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم يلقه إلا خائنا مخونا، وإذا كان خائنا مخونا نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم يلقه إلا فظا غليظا، فإذا كان فظا غليظا نزعت منه ربقة الإيمان، فإذا نزعت منه ربقة الإيمان لم يلقه إلا شيطانا ملعونا ".

ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة، فيجب على كل عاقل أن يجتنب عن ذلك كل الاجتناب، ويقدم التروي على كل ما يصدر عنه من القول والفعل، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق، ويرتكبه في حركاته، ولو بالتكلف

---

(٢٥) آل عمران، الآية: ١٥٩.

إلى أن يصير ملكة، ونزول عن نفسه آثار العنف بالكلية.

وصل

(فضيلة الرفق)

الأخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصى، ونحن نشير إلى شطر منها هنا، قال رسول الله (ص): " لو كان الرفق خلقا يرى، ما كان فيما خلق الله شئ أحسن منه ". وقال (ص): " إن الرفق لم يوضع على شئ إلا زانه، ولا ينزع من شئ إلا شانه ". وقال (ص): " لكل شئ قفل، وقفل الإيمان الرفق ". وقال (ص): " إن الله رفيق يحب الرفيق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف " (٢٦). وقال (ص): " ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرا وأحبهما إلى الله تعالى، أرفقهما بصاحبه ". وقال (ص): " الرفق يمن، والخرق شؤم ". وقال (ص): " من كان رفيقا في أمره نال ما يريده من الناس ". وقال (ص) " إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق ". وقال (ص): " من أعطى حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة ". وقال (ص): " إذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله ". وقال (ص): " أتدرون من يحرم على النار؟ كل هين لين سهل قريب ". وقال الكاظم (ع): " الرفق نصف العيش ". وقال عليه السلام لمن جرى بيته وبين رجل من القوم كلام: " ارفق بهم، فإن كفر أحدكم في غضبه، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه ".

ثم التجربة شاهدة بأن إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق، فكل ملك كان رفيقا بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه، وإن كان فظا غليظا اختل أمره وانفض الناس من حوله، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان. وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والأمراء وغيرهما، من ذوي المناصب الجليلة، وأرباب المعاملة والمكاسبة، وأصحاب الصنايع والحرف.

---

(٢٦) روي هذان الحديثان في أصول الكافي، في باب الرفق، عن أبي جعفر الباقر - عليهما السلام -.

تكملة

(المداراة)

(المداراة): قريب من الرفق معنى، لأنها ملائمة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمال أذاهم، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى في المداراة دون الرفق، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية أخبار كثيرة كقول النبي (ص): " المداراة نصف الإيمان "، وقوله (ص): " ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل " وقوله (ص): " أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض ". وقول الباقر عليه السلام: " في التوراة مكتوب: فيما ناجى الله - عز وجل - به موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى! أكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي.. إلى آخر الحديث " (٢٧). وقول الصادق عليه السلام: " جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال: يا محمد! ربك يقرئك السلام، ويقول: دار خلقي ". وقوله عليه السلام: " إن قوما من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا (٢٨) من قريش، وأيم الله ما كان بأحسابهم بأس، وإن قوما من غير قريش حسنت مداراتهم فألحقوا بالبيت الرفيع.. ثم قال " من كف يده عن الناس، فإنما يكف عنهم يدا واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة ".

ومنها:

سوء الخلق بالمعنى الأخص

وهو التضجر، وانقباض الوجه، وسوء الكلام، وأمثال ذلك. وهو

---

(٢٧) وتمام الحديث في أصول الكافي في باب المداراة: " ولا تستسب لي عندهم بإظهار مكتوم سري، فتشرك عدوي وعدوك في سبي ". قال في الوافي: " ولا تستسب لي: أي لا تطلب سبي، فإن من لم يفهم السر يسب من تكلم به، فتشرك: أي تكون شريكا له، لأنك أنت الباعث له عليه ".

(٢٨) هكذا في النسخة المطبوعة. وفي بعض نسخ الكافي المصححة " فأنفوا "، وفي بعضها " فألقوا ". قال في الوافي: " فأنفوا، كأنه صيغة مجهول من الآنفة، بمعنى الاستنكاف، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفي، وفي بعض النسخ: فألقوا من الإلقاء، ولعله الأصح ".

أيضا من نتائج الغضب، كما أن ضده - أعني (حسن الخلق بالمعنى الأخص) وهو أن تلين جناحك: وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن - من نتائج الحلم، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الأخبار يراد به هذا المعنى، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سئ الخلق، ويكون دائما أضحوكة للناس، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم، ولذا قال الصادق عليه السلام: " من ساء خلقه عذب نفسه "، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم. هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وأدائه إلى العذاب الأبدي، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة. قال رسول الله (ص): " لما خلق الله الإيمان قال: اللهم قوني، فقواه بحسن الخلق والسخاء. ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوني، فقواه بحسن الخلق والسخاء. ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوني، فقواه بالبخل وسوء الخلق ". وروي أنه قيل له (ص): " إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها. قال: لا خير فيها! هي من أهل النار ". وعنه (ص): " سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل " (٢٩) وعنه (ص): " إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم ". وعنه (ص): " أبي الله لصاحب الخلق السئ بالتوبة " قيل: فكيف ذاك يا رسول الله!؟ قال: " لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه ". وقال (ص): " سوء الخلق ذنب لا يغفر ". وقال الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام: " إذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافرا لم يمت حتى يحبب الله إليه الشر، فيقرب منه، فابتلاه بالكبر والجبروت، فقسى قلبه، وساء خلقه، وغلظ وجهه وظهر فحشه، وقل حياؤه، وكشف الله تعالى سره، وركب المحارم ولم ينزع عنها، ثم ركب معاصي الله، وأبغض طاعته، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه ". وقال بعض الأكابر: " لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد

---

(٢٩) روى هذا الحديث أصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق (ع) ولكن جاء فيه " ليفسد العمل " بدل " يفسد العمل ".

سئ الخلق ".
وطرق العلاج في إزالته: أن يتذكر أولا أنه يفسد آخرته ودنياه، ويجعله ممقوتا عند الخالق والخلق، فيعد نفسه لإزالته، ثم يقدم التروي والتفكر عند كل حركة وتكلم، فيحفظ نفسه عنده - ولو بالتحمل والتكلف - من صدور سوء الخلق، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده - كما يأتي - ويواظب حتى نزول على التدريج آثاره بالكلية.

وصل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص)، فمن معالجاتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية. وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا. أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج إلى بيان، وأما النقل فالأخبار التي وردت به أكثر من أن تحصى، ونحن نورد شطرا منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر، قال رسول الله (ص): " ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق " وقال: " يا بني عبد المطلب! إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه، وحسن البشر ". وقال (ص) " إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما ". وقال (ص): " حسن الخلق خلق الله الأعظم ". وقيل له (ص): أي المؤمنين أفضلهم إيمانا؟ قال: " أحسنهم خلقا ". وقال (ص): " إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم خلقا ". وقال (ص): " ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشئ من علمه: تقوى تحجزه عن محارم الله، وحلم يكف به السيئة وخلق يعيش به في الناس ". وقال (ص): " إن الخلق الحسن يميت الخطيئة، كما تميت الشمس الجليد " (٣٠) وقال (ص): " إن العبد ليبلغ بحسن خلقه

---

(٣٠) روي هذا الحديث في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله الصادق (ع)، وفي نهاية ابن الأثير: " في الحديث: حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد "، ويذيب بمعنى يميت.

عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل، وإنه يضعف العبادة " وقال (ص) لأم حبيبة: " إن حسن الخلق ذهب بغير الدنيا والآخرة " وقال لها - بعد ما سألته أن المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هي؟ -: " إنها لأحسنهما خلقا ". وقال (ص): " إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم " (٣١). وقال (ص): " أكثر ما يلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق ". وقال (ص): " أفاضلكم أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا (٣٢) الذين يألفون ويؤلفون ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ". ولا ريب في أن سئ الخلق تتنفر عنه الطباع، فلا يكون مألوفا. وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليهما السلام: " إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا "، وقال عليه السلام: " أتى رجل رسول الله، فقال: يا رسول الله! أوصني فكان فيما أوصاه أن قال: (إلق أخاك بوجه منبسط) ". وقال الصادق عليه السلام: " ما يقدم المؤمن على الله - عز وجل - بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه ". وقال عليه السلام: " البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار ". وقال عليه السلام: " إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح ". وقال عليه السلام: " ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة: الإنفاق من إقتار، والبشر لجميع العالم، والإنصاف من نفسه ". وقال عليه السلام: " صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار ".

ومن تأمل في هذه الأخبار، ورجع إلى الوجدان والتجربة، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه، يجد أن كل سئ الخلق بعيد من

---

(٣١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله - عليه السلام -.

(٣٢) قال المبرد في الكامل ص ٣: " قوله (ص): الموطئون أكنافا، مثل وحقيقته: إن التوطئة هي التذليل والتمهيد... فأراد القائل بقوله: موطأ الأكناف، إن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذي ولا ناب به موضعه ".

الله ومن رحمته، والناس يبغضونه ويشمئزون منه، ولذا يحرم من يرهم وصلتهم، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته، ومرجعا للمؤمنين بإيصال نفعه وخيره إليهم، وإنجاح مقاصده ومطالبه منهم، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبيا إلا وأتم فيه هذه الفضيلة، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه:

(وإنك لعلى خلق عظيم) (٣٣).

ولعظم شرافته بلغ رسول الله (ص) فيه ما بلغ من غايته، وتمكن على ذروته ونهايته، حتى ورد: " بينا رسول الله (ص) ذات يوم جالس في المسجد، إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم (٣٤) فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي (ص) فلم تقل شيئا ولم يقل لها النبي (ص) شيئا، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات، فقام لها النبي (ص) في الرابعة، وهي خلفه، فأخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت، فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل! (٣٥) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئا ولا هو يقول لك شيئا! ما كانت حاجتك إليه؟ قالت: إن لنا مريضا فأرسلني أهلي لأخذ هدبة من ثوبه يستشفى (٣٦) بها، فلما أردت أخذها رآني فقام، استحييت أن آخذها وهو يراني، وأكره أن أستأمره في أخذها، فأخذتها " (٣٧).

----

(٣٣) القلم، الآية: ٤.

(٣٤) قال في البحار - ج ١٥ في باب حسن الخلق ص ٢٠٧ -: " حال عن بعض الأنصار " أي إن القائم هذا البعض صاحب الجارية؟ النبي (ص).

(٣٥) قال في البحار - في الموضع المتقدم -: " كناية عن كثرة الدعاء عليها بإيذائها النبي (ص) وهذا شائع في عرف العرب والعجم ".

(٣٦) قال في البحار - في الموضع المذكور ص ٢٠٨ -: " في بعض النسخ - بل أكثرها -: ليستشفي ".

(٣٧) صححنا الحديث على أصول الكافي في باب حسن الخلق. وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما أثبتناه، وقد جاء في أصول الكافي في صدر الحديث: " قال أبو عبد الله (ع): يا بحر حسن الخلق يسر... ثم قال: ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة؟ قلت: بلى! قال: بينا رسول الله... إلى آخر الحديث ".

ومنها:

الحقد

وقد عرفت أنه إضمار العداوة في القلب، وهو من ثمرة الغضب، لأن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا، وهو من المهلكات العظيمة. وقد قال رسول الله (ص): " المؤمن ليس بحقود ". والغالب أن الحقد يلزمه من الآفات: الحسد، والهجرة، والانقطاع عن المحقود، وإيذاؤه بالضرب، والتكلم فيه بما لا يحل: من الكذب، والغيبة، والبهتان، وإفشاء السر، وهتك الستر، وإظهار العيوب، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به، والانبساط بظهور عثراته وهفواته، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية، والإعراض عنه استصغارا له، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم. وكل ذلك حرام يؤدي إلى فساد الدين والدنيا. وأضعف مراتبه أن يحترز عن الآفات المذكورة، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به، ولكن يستثقله بالباطن ولا ينتهي قلبه عن بغضه.

وهو أيضا من الأمراض المؤلمة للنفس، المانعة لها عن القرب إلى الله والوصول إلى الملأ الأعلى. ويمنع صاحبه عما ينبغي أن يصدر عنه بالنسبة إلى أهل الإيمان: من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة إلى إعانتهم ومواساتهم... وغير ذلك. وهذا كله مما ينقص درجته في الدين، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين.

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة، فجميع الأخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمه، كقول النبي (ص): " ما كان جبرئيل يأتيني إلا قال: يا محمد! اتق شحناء الرجال وعداوتهم ". وقوله (ص): " ما عهد إلي جبرئيل قط في شئ ما عهد إلي في معاداة الرجال ". وقول الصادق (ع): " من زرع العداوة حصد ما بذر ".. وقس عليها غيرها.

وطريق العلاج في إزالته: أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل، إذ الحقود المسكين لا يخلو من التألم والهم لحظة، ويعذبه في الآجل، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلا، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة

لنفسه ونافعة لعدوه. وبعد هذا التذكر، فليجتهد في أن يعامله معاملة أحبائه. من مصاحبته بالانبساط والرفق، والقيام بحوائجه، وغير ذلك، بل يخصه بزيادة البر والاحسان، مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية. ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة، وحقيقتها اضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر، لا المحبة - كما يتراءى في بادئ الرأي - إذ هي ضد الكراهة دون العداوة - كما يأتي في محله - فمن معالجات الحقد أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها - كما يأتي - ليعين على إزالته.

ومنها:

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد، لأنه إذا قوي قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة. والأخبار الواردة في ذمها كثيرة، وقد تقدم بعضها. وعلاجها كما تقدم في الحقد، وضدها النصيحة الظاهرة، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما فليكلف نفسه عليها حتى تصير ملكة له ويزول ضدها.

ومنها:

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالبا عن العداوة والحقد، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة، إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية، أو النفس لهيجان قوة الغضب، وإن كان الهيجان حاصلا بوساطة فعل قوة الشهوة، وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا، ولذا أدرجناها تحتها فقط.

ثم لا ريب في كون هذه الأمور مذمومة محرمة في الشريعة، وموجبة

لحبط الأعمال وخسران المال. وجميع ما يدل على ذم الإيذاء والإضرار يدل على ذمها، لكونها بعض أفرادهما. والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وإيجابه للهلاك:

أما (الضرب) - فلأنه لا ريب في أن ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل، ويذمه جميع طوائف العالم، حتى نفاة الأديان، والأخبار الواردة في ذمه كثيرة، وفي عدة منها: " إن من ضرب رجلا سوطا لضربه الله سوطا من النار ".

وأما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) - فلا ريب في كونه صادرا عن خباثة النفس. قال رسول الله (ص): " ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذي ". وقال (ص): " إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش ". وقال (ص): " الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها ". وقال (ص): " إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شئ " وقال (ص): " البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق " وروي: أن المراد بالبيان: كشف ما لا يجوز كشفه. وقال (ص): " أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ".. وعد منهم: رجلا يسيل فوه قيحا، وهو من كان في الدنيا فاحشا. وقال (ص): " لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم " (٣٨). وقال (ص): " إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية (٣٩) أو شرك شيطان ". وقال (ص): " إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فإنه - لغية أو شرك شيطان ". وقال (ص): " إن الله ليبغض الفاحش البذي والمسائل الملحف ". وقال (ص): " إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه ". وقال (ص): " سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه ". وقال (ص): " سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة ". وقال (ص): " شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم ". وقال (ص): " المتسابان

---

(٣٨) وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب: (بينهم) بدل (منهم).

(٣٩) قال في القاموس في مادة (غوى): " ولدغية - ويكسر - أي زنية "، فيكون معنى (لغية) أي (لزنية).

شيطانان متعاديان ومتهاتران ". وقال الصادق عليه السلام: " من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشا لا يبالي ما (٤٠) قال ولا ما (٤٠) قيل فيه ". وقال عليه السلام: " البذاء من الجفاء، والجفاء في النار "، وقال عليه السلام: " من خاف الناس لسانه فهو في النار "، وقال: " إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه ". وعن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان: " فقال: البادي منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم " (٤١).

(تنبيه) إعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة. ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما، بأن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز. قال بعض الصحابة: " إن الله حيي كريم يعف ويكنى، كنى باللمس عن الجماع ". فالمس، واللمس، والدخول، والصحبة، كنايات عن الوقاع، وليست بفاحشة، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها. وليس هذا يختص بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما، وكذا التعبير عن المرأة، فهذا أيضا مما يخفى ويستحيي منه، فلا ينبغي أن تذكر ألفاظه الصريحة باللسان، بل يكنى عنها، فلا يقال: قالت زوجك أو امرأتك، بل يقال: قيل في الحجرة، أو قيل من وراء الستر، وقالت أم الأولاد، وأمثال ذلك. وكذلك من به عيوب يستحي منها، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص والقرح والبطن، وأمثال ذلك، بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة، مثل العارض الذي عرض وما يجري مجراه، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش.

ثم ألفاظ الفحش لا ريب - حينئذ - في كونها محظورة بأسرها مذمومة وإن كان بعضها أفحش من بعض، فيكون إثمه أشد، سواء استعمل في الشتم والإيذاء أو لا يستعمل فيه، بل في المزاح والهزل وغيرهما. وحينئذ

---

(٤٠) وفي بعض نسخ الكافي في باب البذاء (بما) في الموضعين.

(٤١) قد مضى في الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما في أصول الكافي في باب السفه. فصححناه هنا أيضا.

لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض، وربما اختلف بعادة البلاد، فيكون بعضها مكروها وبعضها محظورا، فإن من قال لغيره مزاحا أو اعتيادا حاصلا من مخالطة الفساق: (فرج امرأتك ضيق أم لا؟) لا ريب في كونه فحشا محرما مذموما، مع أنه لم يستعمل في الشتم. وبالجملة: أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة.

وأما (اللعن) - فلا ريب في كونه مذموما، لأنه عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله (ص): " المؤمن ليس بلعان ". وعن الباقر عليه السلام قال: " خطب رسول الله (ص)، فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: الذي يمنع رفده ويضرب عبده، ويتردد وحده. فظنوا أن الله لم يخلق خلقا هو شر من ذلك ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: المفتحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه ". وقال الباقر عليه السلام: " إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساغا وإلا رجعت إلى صاحبها ".

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله. (والأول) غيب لا يطلع عليه إلا الله. (والثاني) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه، فينبغي ألا يلعن أحدا إلا من جوز صاحب الشرع لعنه، والمجوز من الشرع إنما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين، كما ورد في القرآن ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين. أو بوصف يخص بعض الأصناف، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى.

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق. (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وأبي جهل، لأن كل شخص معين كان على إحدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها، فيموت مسلما أو تائبا، فيكون مقربا عند الله لا مبعدا عنه (كلام ينبغي) أن يطوى ولا يروى، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام

رسوله (ص) وكلام أئمتنا الراشدين: جواز نسبته إلى الشخص المعين، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات، قال الله سبحانه:

" أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " (٤٢). وقال:

" أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " (٤٣).

وقال النبي (ص): " لعن الله الكاذب ولو كان مازحا ". وقال (ص) في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت: " اللهم إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة ". وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة. وروي أنه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وأبي الأعور الأسلمي، مع إنه أحلم الناس وأشدهم صفحا عمن يسوء به، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات. وروى الشيخ الطوسي: " إن الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال ". ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية وأصحابه وكيف لعنهم، وتتبع ما ورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح بأسمائهم، يعلم أن ذلك من شعائر الدين، بحيث لا يعتريه شك ومرية. وما ورد من قوله عليه السلام " لا تكونوا لعانين "، ومثله: نهى عن اللعن على غير المستحقين، وما روي أن أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشام، فإن صح، فلعله كان يرجو إسلامهم ورجوعهم إليه، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية. وبالجملة: اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز، بل مستحب، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز، إلا أن يتيقن باتصافه بإحدى الصفات الموجبة له. وينبغي ألا يحكم باتصافه بشئ منها بمجرد الظن والتخمين، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق، قال رسول الله (ص): " لا يرمي رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك ".

---

(٤٢) البقرة، الآية: ١٦١.

(٤٣) البقرة، الآية: ١٥٩.

ثم اللعن على الأموات أشد وزرا وأعظم إثما، لقول النبي (ص): " لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا ". ولا ينبغي أن يلعن الجماد والحيوان أيضا. لما روي: " أنه ما لعن أحد الأرض إلا قالت: اللعن على أعصانا لله "، وما روي: " أن النبي (ص) أنكر على امرأة لعنت ناقة، وعلى رجل لعن بعيرا ". ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم، إلا إذا اضطر إليه لشره وأضراره، وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة. وقال علي بن الحسين عليهما السلام: " إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا: بئس الأخ أنت لأخيك! كف أيها المستر على ذنوبه وعورته، وأربع على نفسك، وأحمد الله الذي ستر عليك! " (٤٤).

ثم ضد ذلك - أعني الدعاء للأخ المسلم بما يحب لنفسه - من أحب الطاعات وأقرب القربات، وفوائده أكثر من أن تحصى، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك، قال رسول الله (ص): " إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك ". وقال (ص): " يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه ". وقال علي بن الحسين عليهما السلام: " إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير، قالوا: نعم الأخ أنت لأخيك! تدعو له بالخير وهو غائب عنك، وتذكره بالخير. قد أعطاك الله عز وجل مثلي ما سألت له، وأثنى عليك مثلي ما أثنيت عليه، ولك الفضل عليه " ومثله ورد عن الباقر (ع) أيضا.

والأخبار في فضيلة الدعاء للأخوان أكثر من أن تحصى، وأي كرامة أعظم لك من أن تصل منك إلى المؤمن وهو تحت أطباق الثرى هدايا الاستغفار والأدعية، وهل تدري كيف تسر روحه منك بهذا العمل؟ فإن أهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف، وأنت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل، وقد قال رسول الله (ص): " مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شئ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب، وإنه ليدخل على قبور الأموات

---

(٤٤) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين (ع).

من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال " وهو للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، فيفرح كما يفرح الحي بالهدية (٤٥).

وأما (الطعن) - فهو أيضا من ذمائم الأفعال، ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الأخرى. قال الباقر عليه السلام: " إياكم والطعن على المؤمنين ". وقال (ع): " ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلا مات شر ميتة، وكان قمنا ألا يرجع إلى خير ".

واعلم أن هذه الأمور - أعني الفحش واللعن والطعن وأمثالها مما يأتي في موضعه: من الغيبة والكذب والبهتان والاستهزاء والمزاح والخوض في الباطل والتكلم بالفضول وما لا يعني: من آفات اللسان، ويأتي إن لجميع آفات اللسان ضدا عاما هو الصمت، ويأتي بيان فضيلته وكثرة فوائده، ويأتي أيضا ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان - أعني ما ورد في ذم اللسان، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء - فإنه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور.

ومنها - أي ومن رذائل القوة الغضبية -:

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا. وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا، وقيل: " هو إعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم " وهو قريب مما ذكر، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة، وبذلك يمتاز عن الكبر، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزية على غيره في صفة كمال، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فالكبر يستدعي متكبر عليه ومتكبرا به.

---

(٤٥) هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في إحياء العلوم - ج ٢ ص ١٦٤ - عن بعض السلف، وبمضمونه أحاديث مروية عن آل البيت (ع)، روى منها في الوسائل في أبواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج).

والعجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا، ولا يتصور أن يكون متكبرا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستعظم نفسه، ولكن يرى في غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبر عليه، فهو معجب وليس متكبرا. ولا يكفي أن يستحقر غيره، فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبرا، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره.

والحاصل: أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما إلى الله، فإن لم يكن معه ركون وكان خائفا على زوال النعمة مشفقا على تكدرها أو سلبها بالمرة، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها إلى نفسه لم يكن معجبا، فالمعجب ألا يكون خائفا عليها، بل يكون فرحا بها مطمئنا إليها، فيكون فرحه بها من حيث أنها صفة كمال منسوبة إليه، لا من حيث أنها عطية منسوبة إلى الله تعالى. ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها: زال العجب.

ثم لو انضاف العجب - أي غلب على نفس المعجب - أن له عند الله حقا، وإنه منه بمكان، واستبعد أن يجري عليه مكروه، وكان متوقعا منه كرامة لعمله، سمي ذلك (إدلالا) بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة فهو وراء العجب وفوقه إذ كل مدل معجب، ورب معجب لا يكون مدلا، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الإضافة إلى الله من دون توقع جزاء على عمله، والإدلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه، فالإدلال عجب مع شئ زائد.

وعلى هذا، فمن أعطى غيره شيئا، فإن استعظمه ومن عليه كان معجبا وإن استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه. وكما إن العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطئ فيه ويراه حسنا، كما قال

سبحانه:
" أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا " (٤٦).
وقال أبو الحسن عليهما السلام: " العجب درجات: ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسنا، فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعا. ومنها أن يؤمن العبد بربه، فيمن على الله - عز وجل - ولله عليه فيه المن ".

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة، قال رسول الله (ص): " ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه ". وقال (ص): " إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك ". وقال (ص): " لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب العجب ". وقال (ص): " بينما موسى (ع) جالس (٤٧)، إذ أقبل عليه إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنى منه خلع البرنس، وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس قال أنت! فلأقرب الله دارك، قال: إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به اختطف قلوب بني آدم، فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: " إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه ". وقال (ص): " قال الله - عز وجل -: يا داود! بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: كيف أبشر المذنبين - وأنذر الصديقين؟ قال: بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفوا عن الذنب، وأنذر الصديقين؟ ألا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك ". وقال الباقر (ع): " دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب ". وقال الصادق (ع): " إن

---

(٤٦) الفاطر، الآية: ٨.
(٤٧) وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا: (جالسا) - بالنصب -.

الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلي مؤمنا بذنب أبدا ". وقال عليه السلام: " من دخله العجب هلك ". وقال (ع) " إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه، ويعمل العمل فيسره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك، فلإن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه ". وقال عليه السلام: " أتى عالم عابدا فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي، فقال له العالم: فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدل، إن المدل لا يصعد من عمله شئ ". وقال (ع) " العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله، فقد ضل عن نهج الرشاد، وادعى ما ليس له، والمدعي من غير حق كاذب وإن أخفى دعواه وطال دهره. وإن أول ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنه عاجز حقير، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه أوكد، كما فعل بإبليس. والعجب نبات حبها الكفر، وأرضها النفاق، وماؤها البغي، وأغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، ولا بد أن يثمر " (٤٨). وقيل له عليه السلام: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثم يعمل شيئا من البر فيدخله شبه العجب به، فقال: " هو في حالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه ". وقال عليه السلام: " إن عيسى بن مريم عليهما السلام كان من شرائعه المسيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير، وكان كثير اللزوم لعيسى، فلما إنتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله، بصحة يقين منه، فمشى على ظهر الماء. فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه: بسم الله، بصحة يقين منه، فمشى على الماء، ولحق بعيسى - صلى الله عليه -، فدخله العجب بنفسه فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء، فما فضله علي؟ قال: فرمس في الماء، فاستغاث بعيسى (ع)، فتناوله

---

(٤٨) صححنا هذه الرواية على ما في البحار - الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب - وقد نقلها عن مصباح الشريعة، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات.

من الماء فأخرجه، ثم قال له: ما قلت يا قصير؟! قال قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي، فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله، فمقتك الله على ما قلت، فتب إلى الله عز وجل مما قلت، قال: فتاب الرجل، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها " (٤٩).

فصل

آفات العجب

العجب آفاته كثيرة: (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه - كما يأتي -

(ومنها) إنه يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فلا يتذكر شيئا منها، وإن تذكر بعضا منها يستصغرها ولا يستعظمها، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها، بل يظن أنها تغفر له. وأما العبادات، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، وإذا أعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضل سعيه، إذ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب فلما تنفع، وإنما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب، لأنه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وإن له عند الله حقا بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه وربما يخرجه العجب إلى تزكية نفسه والثناء عليها. وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الأعلم، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتني بخواطر غيره بعين الاستحقار والاستجهال فإن كان رأيه الفاسق متعلقا بأمر دنيوي أضره وفضحه، وإن كان متعلقا بأمر ديني - (لا) سيما في أصول العقائد - أضله وأهلكه. ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة، لكان خيرا له وأحسن، وموصلا له إلى الحق المتيقن. ومن آفاته أنه يفتر في الجد والسعي، لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيه، وهو الهلاك الصريح الذي

---

(٤٩) صححنا أكثر هذه الأحاديث على الكافي في باب العجب والحسد.

لا شبهة فيه.

فصل

(علاج العجب إجمالا وتفصيلا)

إعلم أن للعجب علاجين: إجماليا وتفصيليا (٥٠):

أما العلاج الإجمالي - فهو أن يعرف ربه، وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به، وأن يعرف نفسه حق المعرفة، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة، فما له والعجب واستعظام نفسه، فإنه لا ريب في كونه ممكنا، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشئ، كما ثبت في الحكمة المتعالية، ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعا من الواجب الحق، فالعظمة والكبرياء إنما تليق بمفيض وجوده وكمالاته، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس، فإن شاء أن يستعظم شيئا ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشئ. وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائنا من كان.

وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبني نوعه، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة، وقد مر على ممر البول ثلاث مرات. وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة، وهي قوله تعالى:

" قتل الإنسان ما أكفره. من أي شئ خلقه. من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره " (٥١).

فقد أشارت الآية إلى أنه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي، ثم خلقه من أقذر الأشياء الذي هو نطفة مهينة، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة.

وأي شئ أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم، وخلقته من أنتن الأشياء وأقذرها، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة. وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل، لم يفرض إليه أمره، ولم يقدر على شئ لنفسه ولا

---

(٥٠) وفي النسخ: (إجمالي وتفصيلي).

(٥١) عبس، الآية: ١٧ - ٢٢.

لغيره، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة، والأسقام العظيمة، والآفات المختلفة والطبائع المتضادة، من المرة والدم والريح والبلغم، فيهدم بعض أجزائه بعضا، شاء أم أبى، رضي أم سخط، فيجوع كرها، ويعطش كرها، ويمرض كرها، ويموت كرها، لا يملك لنفسه نفعا وضرا ولا خيرا وشرا، يريد أن يعلم الشئ فيجهله، ويريد أن يذكر الشئ فينساه، ويريد أن ينسى الشئ فلا ينساه، ويريد أن ينصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار. فلا يملك قلبه قلبه، ولا نفسه نفسه. يشتهي الشئ وفيه هلاكه، ويكره الشئ وفيه حياته، يستلذ ما يهلكه ويرديه، ويستبشع ما ينفعه وينجيه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله، وتخطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، وهو مضطر ذليل إن ترك فني، وإن خلي ما بقي، عبد مملوك، لا يقدر على شئ من نفسه ولا من غيره. فأي شئ أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق العجب به لولا جهله؟. وهذا وسط أحواله.

وأما آخره، فهو الموت - كما عرفت - فيصير جيفة منتنة قذرة، ثم تضمحل صورته، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، وتتفتت أجزاؤه، فيصير رميما رفاتا، ثم يصير روثا في أجواف الديدان، يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا تعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، فما أحسنه لو ترك ترابا، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلا، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويساق إلى عرصات القيامة، فيرى سماء مشققة، وأرضا مبدلة، وجبالا مسيرة، ونجوما منكدرة، وشمسا منكسفة، وجحيما مسعرة، وجنة مزينة، وموازين منصوبة، وصحائف منشورة، فإذا هو في معرض المؤاخذة والحساب عليه ملائكة غلاظ شداد، فيعطى كتابه إما بيمينه أو شماله، فيرى فيه جميع أعماله وأفعاله، من قليل وكثير ونقير وقطمير. فإن غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقا للعذاب والنار، تمنى أن يكون كلبا أو خنزيرا، لصير مع البهائم ترابا ولا يلقى عقابا ولا عذابا. ولا ريب في أن

الكلب والخنزير أحسن وأطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار، إذ أولهما وآخرهما التراب، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته. ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة.

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه! وما أغفله من التدبر في أحوال يومه وأمسه! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به النار فإنما ذلك للعفو، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنبا، وكل من أذنب ذنبا استحق عقوبة، فلو لم يعاقب فإنما ذلك للعفو. ولا ريب في أن العفو ليس يقينا بل هو مشكوك فيه، فمن استحق عقوبة ولا يدري أيعفى عنها أم لا، يجب أن يكون أبدا محزونا خائفا ذليلا، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب، ألا ترى أن من جنى على بعض الملوك بما استحق به ألف سوط مثلا، فأخذ وحبس في السجن. وهو منتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدري أيعفى عنه أم لا، كيف يكون ذله في السجن؟ أفترى إنه مع هذه الحالة يكون معجبا بنفسه؟! ولا أظنك أن تظن ذلك. فما من عبد مذنب، ولو أذنب ذنبا واحدا، إلا وقد استحق عقوبة من الله، والدنيا سجنه، ولا يدري كيف يكون أمره، فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة. فلا يجوز له أن يعجب ويستعظم نفسه.

هذا هو العلاج الإجمالي للعجب.

وأما التفصيلي – فهو أن يقطع أسبابه – أعني ما به العجب – وهي العلم، والمعرفة، والعبادة، والطاعة، وغير ذلك من الكمالات النفسية، كالورع، والشجاعة، والسخاوة، والنسب، والحسب، والجمال، والمال والقوة، والبطش، والجاه، والاقتدار، وكثرة الأعوان والأنصار، والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور، والرأي الخطأ.

أما (العجب بالعلم): فعلاجه أن يعلم أن العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة، وإن من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله

سبحانه، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات. وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة، والاعتراف بالقصور والتقصير في أداء حقوق الله، والشكر بإزاء نعمه، ولذا قيل: " من ازداد علما ازداد وجعا ". فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب، إما ليس علما حقيقيا بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي أن تسمى صناعات لا علوم، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردئ الأخلاق لم يهذب نفسه أولا ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في عبادة ربه، فيبقى خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم وإن كان علما حقيقيا صادف من قلبه منزلا خبيثا، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخبر أثره، فإن العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافيا، فإذا شربته الأشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة كذلك العلم إذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة. والطيب الصافي طيبا وصفاء.

وإذا علم ذلك، يعرف أنه لا ينبغي العجب بالعلم، ويجب أيضا أن يعلم أنه إذا أعجب بنفسه صار ممقوتا عند الله مبغوضا لديه، لما تقدم من الأخبار، وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه. وقال بواسطة سفرائه " إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي " (٥٢). وقال: " صغروا أنفسكم ليعظم عندي محلكم ". فلا بد أن يكلف نفسه ما يحب مولاه، وأن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أوكد، وإنه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم، لأن العالم إذا زل زل بزلته كثير من الناس، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال رسول الله (ص): " يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار، فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه "، وقد

---

(٥٢) هذا كلام بنصه مذكور في إحياء العلوم - ج ٣ ص ٣١٢ - ويظهر منه أنه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الأخبار، إلا أنه نص حديث، وكذا ما بعده وهو قوله: " صغروا... ".

مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار (٥٣)، وبلعم بن باعوراء بالكلب (٥٤) لعدم عملهم بما علموه. وقال رسول الله (ص): " يكون قوم يقرون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا "، ثم التفت إلى أصحابه فقال: " أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هو وقود النار ". وقال (ص): " إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل " وقال روح الله (ع): " ويل لعلماء السوء (٥٥) كيف تتلظى عليهم النار ". وقال الصادق عليه السلام: " يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد ".

ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها، وينهاهم عن العجب والكبر، وهو معجب متكبر، يكن من علماء السوء وممن لم يعمل بعلمه، فيكون داخلا تحت هذه الأخبار. وأي عالم يتصور في أمثال هذه الأزمنة أن يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وأمر به، ولم يضع شيئا من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما أمر به من التكاليف العامة والخاصة به؟ فخطره أعظم من خطر غيره، كيف وقد روي: " إن حذيفة صلى بقوم، فلما سلم قال: لتلتمسن إماما غيري أو لتصلن وحدانا، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني ". فإذا كان مثله لا يسلم، فكيف يسلم الضعفاء، من متأخري هذه الأمة، فما أعز على بسيط الأرض في هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم،

---

(٥٣) إشارة إلى قوله تعالى - في سورة الجمعة الآية ٥ -: " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ".

(٥٤) إشارة إلى قوله تعالى - في سورة الأعراف الآية ١٧٦ -: " فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ".

(٥٥) في النسخ المصححة للكافي - باب لزوم الحجة على العالم - هكذا: " للعلماء السوء " - بتعريف العلماء - ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فأثبتناه بلا تعريف قال صاحب مجمع البحرين - مادة (سوء) - " تقول هذا رجل سوء بالإضافة، ثم تدخل عليه الألف واللام، فتقول هذا رجل السوء. ولا يقال الرجل السوء. كذا قاله الجوهري ".

واستوحشوا من أوثق إخوانهم، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها، وأزعجهم خوف الرحمن من مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها ولا يشتهون من نعيم الدنيا حارا ولا باردا، وصارت همومهم هما واحدا، هيهات! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول وقد انقرضوا في القرون الأول، بل يعز أن يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء، ولم يكن متكبرا على الفقراء، ومتواضعا للأغنياء.
فينبغي لكل عالم أن يتفكر في أحواله وأعماله وما أريد منه، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه.
وأما (العجب بالعبادة والطاعة) فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها. وأيضا آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثرة، فيمكن أن تدخلها بعض الآفات أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب، فلا تكون مقبولة عند الله، ومع إمكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الأمور، على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيدا، ومن جوز أن يكون عند الله شقيا، وقد سبق القضاء الإلهي بشقوته، فأي نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها؟ ولا ريب في أنه لا يخلو عبد عن هذا التجويز، فما لأحد إلى العجب والتكبر في حال من الأحوال سبيل.
وأما (العجب بالورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والسخاوة، والشجاعة، وغيرها من الفضائل النفسية): فعلاجه أن يعلم أن هذه الفضائل إنما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب، وإذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها، ويختم لأجلها الجميع بالخير، وتصير عاقبته محمودة، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة. وينبغي أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التي يثبتها

لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال إعجابه بها. وقد نقل أن واحدا من مشاهير الشجعان إذا قابل خصمه أصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه، فقيل له: ما هذه الحالة وأنت أشجع الناس وأقواهم؟ فقال: إني لم أمتحن خصمي، فلعله أشجع مني. وأيضا النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة، لامع الاعجاب بالقوة والشجاعة، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم.

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية: أن يقابل سببه بضده، إذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة له، فنقول:

الكمال الذي به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته.

فإن كان (الأول)، فهو محض الجهل، لأن المحل مسخر، وإنما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره، ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس له، وإن كان (الثاني)، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه، وسائر الأسباب التي بها يتم كماله وعمله، إنها من أين كانت له: فإن كان علم أن جميع ذلك نعمة من الله إليه من غير حق سبق له، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحقه، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة، كحبه له تعالى أو مثله، فيقال له: الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فليكن الاعجاب بجوده، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك وأعمالك وأسباب أعمالك.

فإذن لا معنى لعجب العالم بعلمه، وعجب العابد بعبادته، وعجب الشجاع بشجاعته، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بماله، لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده. والمحل أيضا من فضله وجوده، فإنه هو الذي خلقك، وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم والإرادة، ولو أردت أن تنفي

ج: ١

شيئا من ذلك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاختراع، إلا أنه خلقها على ترتيب، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القب إرادة، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محله، فتدريجه في الخلق شيئا بعد شئ هو الذي خيل إليك أنك مستقل بإيجاد عملك، وقد غلطت، فإن تحريك البواعث وصرف العوائق، وتهيئة الأسباب، كلها من الله، ليس شئ منها إليك.

ومن العجائب أن تعجب بنفسك، ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وكرمه، وفضله في إيثاره إياك على الفساق من عباده، إذ مكنهم من أسباب الشهوات واللذات، وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك، حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك.

روي: " أن أيوب عليه السلام قال: (إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء، وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي)، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب! أنى لك ذلك؟ قال: فأخذ رمادا فوضعه على رأسه، وقال: منك يا رب! فرجع عن نسيانه، وأضاف ذلك إلى الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى:

" ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا " (٥٦).

وقال النبي (ص): " ما منكم من أحد ينجيه عمله "، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ".

(فإن قيل): ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعا إلى الله تعالى، يؤدي إلى الجبر ونفي التكليف، وبطلان الثواب والعقاب، (قلنا): هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر، ولا يليق بيانها هنا (٥٧).

ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف - أعني أفعاله العرضية - بل نفينا استقلاله فيها. نعم، في غيرها من المحال والأسباب والصفات اللازمة، والتوفيق، وتحريك البواعث، وصرف الموانع، لا قدرة له فيها أصلا، ولا يلزم منه فساد.

---

(٥٦) النور، الآية: ٢١.

(٥٧) تقدم ذكر هذا الأمر ص ١٤١.

وأما (العجب بالحسب والنسب): فعلاجه يتم بمعرفة أمور:
الأول - أن يعلم أن التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل، فإنه لو كان خسيسا في صفات ذاته، فمن أين يجير خسته كمال غيره، ولو كان أباه أوجده، بل لو كان يعجب به بالانتساب حيا لكان له أن يقول الفضل لي لا لك وأنت دودة خلقت من فضلتي، أفترى أن الدودة التي خلقت من فضلة الإنسان أشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار؟! هيهات! فإنهما متساويان في الخسة، إن الشرف للانسان لا للدودة، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

أنا ابن نفسي وكنيتي أدبي * من عجم كنت أو من العرب
إن الفتى من يقول ها أنذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

وقيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روي: " إن أبا ذر قال بحضرة النبي (ص) لرجل: (يا ابن السوداء!)، فقال النبي (ص): " يا أبا ذر! طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ". فاضطجع أبو ذر وقال للرجل: قم فطأ على خدي ". وروي: " إن بلالا لما أذن يوم الفتح على الكعبة قال جماعة: هذا العبد الأسود يؤذن! فنزل قوله تعالى:
" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (٥٨).
وقال رسول الله (ص): " إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية - أي كبرها - كلكم بنو آدم وآدم من تراب ". ونقل: أن واحدا من رؤساء اليونان افتخر على غلام، فقال له: إن كان منشأ افتخارك آباؤك فالتفوق لهم لا لك، وإن كان لباسك فالشرافة له دونك، وإن كان مركوب فالفضيلة له لا لك، فليس لك شئ يصلح للعجب والمفاخرة. ولذا قال متمم مكارم الأخلاق (ص): " لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم ".
الثاني - أن يعرف نسبه الحقيقي، قال أباه القريب نطفة قذرة،

---

(٥٨) الحجرات، الآية: ١٣.

وجده البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله نسبه فقال:
" وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " (٥٩).
والأصل الذي يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الأجسام أي رفعه يكون لفرعه!
الثالث - أن يعلم إن من يعجب بهم بالانتساب من أسلافه، إن كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية، فظاهر أنه ما كان من أخلاقهم العجب، بل الذلة والإزراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فإن اقتدى بهم في أخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز، وإلا كان طاعنا في نسبه بلسان حاله. وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم! إذ الانتساب إلى الكلاب والخنازير أحسن من الانتساب إليهم، كيف وإنهم ممقوتون عند الله معذبون في النار، بحيث لو نظر إلى صورهم في النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة، لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب إليهم. ولذلك قال (ص): " ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما في جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر " وروي: أنه افتخر رجلان عند موسى (ع)، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، حتى عد تسعة، فأوحى الله تعالى إلى موسى: " قل للذي افتخر: بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم! ".
وأما (العجب بالجمال): فعلاجه أن يعلم أنه في معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والأسقام، وأي عاقل يعجب بشئ تزيله حمى يوم أو قرحة أو جدري!
بر مال وجمال خويشتن غره مشو كآن را بشبى برند وأين رابه تبى (٦٠)
ولو لم يرتفع بها، فهل يشك عاقل زواله بذهاب الشباب ومجئ الشيب وبالموت الذي لا بد أن تذوقه كل نفس؟ فانظر إلى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور، بحيث استقذرتها الطباع. على أنه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله، لرأى

----

(٥٩) السجدة، الآية: ٧ - ٨.
(٦٠) معنى البيت: لا تغتر بمالك وجمالك، فإن ذلك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة).

من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به، فإنه وكلت إليه (٦١) الأقذار في جميع أجزائه: (البصاق) في فمه،، (والمخاط) في أنفه، (والوسخ) في أذنه، (والنتن) تحت إبطه، (والصديد) تحت بشرته، (والفضلات) في معدته، (والرجيع) في أمعائه، (والديدان) في أحشائه، (والبول) في مثانته (والصفراء) في مرارته، يتردد إلى الخلاء كل يوم مرتين، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا أن يمسه أو يشمه. وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور: من النطفة ودم الحيض، وخرج عن مجاري الأقذار. أعني الصلب والذكر والرحم والفرج. ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهده بالغسل والتنظيف، لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أقذر وأنتن من الدواب المهملة. هذا أوله ووسطه، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار. فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته!

وأما (العجب بالمال): فهو عجب بأمر خارج عن ذات الإنسان، فهو أقبح أنواع العجب. وعلاجه أن يتفكر في آفات المال، وكونه في معرض الفناء والزوال، من الغضب والنهب والحرق والغرق، وغير ذلك من الآفات السماوية والأرضية، ويتذكر أن في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال واف لشرف يسبقه اليهود والهندو! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا!! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الأغنياء، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه، كقوله (ص): " بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه، إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة " (٦٢)، أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله، وإيجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة، والعقوبة والنكال إن كان حراما، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالا، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره، في القيام بحقوقه، وأخذه من حله،

---

(٦١) وفي النسخ: " وكل به "، ورجحنا ما أثبتناه.
(٦٢) هذا الحديث صححناه على ما في إحياء العلوم - ٣: ٣٢٢ -.

ووضعه في حقه.
وأما (العجب بالقوة وشدة البطش): فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض، وإن حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها ما لا ينجبر في مدة، وإنه لو وجع عرق واحد من بدنه صار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وإنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه، وإن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته. ثم أقوى إنسان لا يكون أقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر، وأي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهائم فيها، هذا مع أن الغالب أن من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه.
وأما (العجب بالجاه، والمنصب، وولاية السلاطين، وكثرة الأتباع والأنصار: من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان): فعلاجه أن يعلم أن كل ذلك في معرض الانقطاع، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة، إما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة، وإنما هي خيالات تظن شيئا وليست بشئ، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلا مهينا وحده، لا يرافقه أهل وأولاد ولا أعوان وأتباع، فيسلمونه إلى البلاء وإلى العقارب والحيات والديدان، ولا يغنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته إليهم، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد أحواله! على أنهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والإعطاء، فلا بد له من إيقاع نفسه في المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته، لتحصيل الأموال من الوجوه المحرمة وصرفها إليهم، ليستمروا على متابعته وإعانته، ولو نقص شئ مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته، فضلا عن بقائهم على حمايته وإطاعته. ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق.
وأما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور): فعلاجه أن يعلم أن ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه، وربما زال عقله دفعة. مع أنه إن كان في الواقع فطنا كيسا في الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى

على ذلك، ويستصغر (٦٣) عقله وفطانته، ليبقي الله تعالى عليه تلك النعمة، ولا يسلبها عنه لأجل عجبه.
وأما (العجب بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله): فهو أقبح أنواع العجب، إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم، وبذلك هلكت الأمم إذا افترقت فرقا، وكل معجب برأيه، و: " كل حزب بما لديهم فرحون " (٦٤).
فكل من استحسن ما يسوقه الهوى والشبهة - مع ظن كونه حقا - يكون له هذا العجب، وقد أخبر رسول الله (ص): " إن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ". وعلاجه أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه، ولو عرفه لتركه. ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إذا لم يكن معجبا برأيه وجهله، وإذا كان معجبا به يتهمه ولا يصغي إليه حتى يعالجه، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة. وكيف يطلب الهرب مما يعتقد أنه سبب سعادته! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهما لرأيه لا يغتر به، لا أن يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتريه ريب وشبهة.
ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت، وقريحة تامة مستقيمة، مع جد وتشمير في الطلب، وممارسة الكتاب والسنة، ومجالسة أهل العلم، ومدارسة العلوم طول العمر، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط، فالصواب للكل - إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم - ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي إليها، ويتبع أهل الوحي فيما جاؤوا به من عند الله في الأصول والفروع.
وصل
(انكسار النفس)
ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة.

---

(٦٣) في النسخ: " يستغفر "، فرجحنا ما أثبتناه.
(٦٤) المؤمنون، الآية: ٥٣.

وكما أن العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، فكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط إعظام الغير معه، إذ الأول مع اعتبار الثاني تكبر، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع، وهما ضدان.
ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فإنما بلغ بهذه الصفة، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، وقال رسول الله (ص): " ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة (٦٥) يمسكانها، فإن هو رقع نفسه جبذاها (٦٦) ثم قالا: اللهم ضعه، وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه " (٦٧). وروي: " أنه أوحى الله تعالى إلى موسى (ع): أن يا موسى! أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب! ولم ذلك؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: أني قلبت عبادي ظهرا لبطن، فلم أجد فيهم أحدا أذل نفسا لي منك، يا موسى! إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب ". وروي: " أنه لما أوحى الله تعالى إلى الجبال أني واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودي، وهو جبل عندكم، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل فقال نوح عند ذلك: (يا ماري أتقن) وهو بالسريانية: رب اصلح " (٦٨)
ومنها:
الكبر
وقد عرفت: إنه الركون إلى رؤية النفس فوق الغير، وبعبارة أوضح: هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاده المزية والرجحان عليه، فهو يستدعي متكبرا عليه. وبه ينفصل عن العجب، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه.
ثم الكبر - أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير - هو خلق الباطن يقتضي أعمالا في الظاهر هي ثمراته، وتسمى تلك الأعمال الظاهرة

---

(٦٥) الحكمة بالتحريك: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.
(٦٦) بمعنى جذباها.
(٦٧) صححنا الحديث على ما في إحياء العلوم - ج ٢ ص ٣٢٩ -.
(٦٨) هذا الحديث وما قبله رواهما الكافي في باب التواضع، فصححناهما عليه.

الصادرة منه تكبرا، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطنا فوق الغير، من دون صدور فعل على جوارحه، يقال له (كبر)، وإذا ظهرت الأعمال يقال له (تكبر). وهذه الأعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والإزراء به، كالترفع عن مواكلته ومجالسته، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته، وإبعاده عن نفسه، وإبائه عن الجلوس بجنبه، وانتظاره أن يسلم عليه، وتوقعه أن يقوم ماثلا بين يديه. والاستنكاف من قبول وعظه، وتعنيفه في إرشاده ونصحه، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات وعدم الالتفات إليه في المحاورات، وتوقع التقديم عليه في كل ما يدل على التعظيم عرفا. وبالجملة: الأعمال الصادرة عن الكبر كثيرة، ولا حاجة إلى إحصائها، لكونها مشهورة معروفة، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب، إذ فاعلها يرى نفسه فوق الأكثر ويقصد بهما استحقارهم، فهما يقتضيان متكبرا عليه، فيكونان من أنواع التكبر، وما ورد في ذمهما يدل أيضا على ذمه، كما يأتي. وهذه الأفعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظم.

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفة عظيمة وغائلته هائلة، وبه هلك خواص الأنام فضلا من غيرهم من العوام، وهو الحجاب الأعظم للوصول إلى أخلاق المؤمنين، إذ فيه عز يمنع عن التواضع، وكظم الغيظ، وقبول النصح، والدوام على الصدق، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والإزراء بالناس، وغير ذلك. فما من خلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه، ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه. خوفا من فوات عزه. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

" كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار " (٦٩). وقال: " سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون " (٧٠). وقال: " والملائكة باساطوا أيديهم

---

(٦٩) غافر، الآية: ٣٥.

(٧٠) الأعراف، الآية: ١٤٦.

أخرجوا أنفسكم... إلى قوله: وكنتم عن آياته تستكبرون " (٧١). وقال:
" ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين " (٧٢). وقال:
" فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهو مستكبرون " (٧٣). وقال:
" إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " (٧٤). وقال:
" إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه " (٧٥).
وقال رسول الله (ص): " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
حبة من خردل من كبر " (٧٦)، وقال: " من تعظم في نفسه واختال في
مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان ". وقال (ص): " لا ينظر الله إلى
رجل يجر أزاره بطرا ". وقال (ص): " قال الله. الكبرياء ردائي
والعظمة أزاري، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم ". وقال (ص):
" لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم
من العذاب ". وقال (ص): يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان
وعينان تبصران ولسان ينطق، يقول وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد،
وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين ". وقال: (ص):
" لا يدخل الجنة جبار، ولا بخيل، ولا سئ الملكة ". وقال (ص):
" ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب
أليم: شيخ زان، وملك جبار، ومقل مختال ". وقال (ص): " بئس
العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تبختر واختال
ونسي الكبير المتعال، وبئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى،
وبئس العبد عبد عتا وبغي ونسي المبدأ والمنتهى ". وقال (ص): " ألا
أخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ جعظري متكبر " (٧٧). وقال (ص):

---

(٧١) الأنعام، الآية: ٩٣.
(٧٢) الزمر، الآية: ٧٢.
(٧٣) النحل، الآية: ٢٣.
(٧٤) غافر، الآية: ٦٠.
(٧٥) غافر، الآية: ٥٦.
(٧٦) روي الحديث في الكافي عن أحد الصادقين - عليهما السلام - في باب الكبر، وجاء فيه هكذا: " الكبر " بتعريف كبر.
(٧٧) صححنا الحديث على كنز العمال - ج ٢ ص ١٠٧ -. والجواظ: المتكبر الجافي والجعظري: الفظ الغليظ.

" إن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون ": أي المتكبرون. وقال (ص): " يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر، تطأهم الناس ذرا في مثل صور الرجال، يعلوهم كل شئ من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (يولس)، تعلوهم نار شر أنيار (٧٨)، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار. وقال (ص): " يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى "، وقال: " إن في جهنم واديا يقال له (هبهب)، حق على الله أن يسكنه كل جبار "، وقال: " إن في النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم "، وقال: " إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) سلط الله بعضهم على بعض "، والمطيطاء: مشية فيها اختيال. وقال عيسى بن مريم: " كما أن الزرع يثبت في السهل ولا ينبت على الصفاء، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر، ألا ترون أنه يتشمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن يطأطئ أظله وأكنه ". ولما حضرت نوحا الوفاة، دعا ابنيه فقال: " إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده ". وقال سليمان بن داود يوما للطير والجن والإنس والبهائم: " أخرجوا، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر، فسمع صوتا يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته ".

وقال الباقر (ع): " الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه "، وقال: " العز رداء الله والكبر أزاره، فمن تناول شيئا منه أكبه الله في جهنم ". وقال الصادق (ع): " إن في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له (سقر) شكى إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له يتنفس، فتنفس فأحرق جهنم ". وقال عليه السلام: " إن المتكبرين يجعلون في صور الذر، يتوطأهم الناس حتى

---

(٧٨) كذا في النسخ. وفي نسخة إحياء العلوم - ج ٢ ص ٢٩٠ -: (نار الأنيار)، ولم نعثر على جمع نار على أنيار، وإنما جملة جموعها (نيار).

يفرغ الله من الحساب ". وقال (ع): " ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه ". وقال (ع): " إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد فمن تواضع رفعاه، ومن تكبر وضعاه ". وقال (غ): " الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق "، قال الراوي: أما الحق فلا أجهله، والغمض لا أدري ما هو قال: " من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار ". وقال عليه السلام: " ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها، فإذا تكبر قال له: اتضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس، وإذا تواضع رفعها الله - عز وجل - ثم قال له: انتعش نعشك الله، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس ".

فصل

(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله، كما كان لنمرود وفرعون، وسببه الطغيان ومحض الجهل، وهو أفحش أنواع الكبر، إذ هو أعظم أفراد الكفر، ولذا تكررت في ذمه الآيات، كقوله تعالى:

" إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " (٧٩). وقوله: " ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعا " (٨٠). وقوله تعالى: " ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا " (٨١). وقوله: " فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون " (٨٢).

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم، كما كان لمن يقول:

" أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " (٨٣). ولمن يقول: " أنؤمن لبشرين مثلنا " (٨٤). " إن أنتم إلا بشر مثلنا " (٨٥). " ولئن أطعتم بشرا مثلكم

---

(٧٩) غافر، الآية: ٦٠.
(٨٠) النساء، الآية: ١٧٢.
(٨١) مريم، الآية: ٦٩.
(٨٢) النحل، الآية: ٢٣.
(٨٣) الأنعام، الآية: ٥٣.
(٨٤) المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٨٥) إبراهيم، الآية: ١٠.

إنكم إذا لخاسرون " (٨٦). ولمن قال: " لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا " (٨٧).

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله، وإن كان دونه.

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم، وهذا وإن كان دون الأولين، إلا أنه من المهلكات العظيمة، من حيث أنه يؤدي إلى مخالفة الله سبحانه، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده، ومن حيث أن العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلي الأعلى، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته، ولذا قال الله سبحانه: " والعظمة أزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته ".

فصل

(درجات الكبر)

الكبر درجات ثلاث:

(الأولى) أن يكون مستقرا في قلبه، يرى نفسه خيرا من غيره، ويظهره في أفعاله: بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وأن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، ويعبس وجهه، ويقطب جبينه. وفي أقواله: بإظهار الإنكار على من يقصر فيما يتوقعه، من التعظيم، وإبداء الدعوى، والمفاخرة والمباهاة، وتزكية النفس، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل. وهذه الدرجة أقبح الدرجات وأشدها، إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها، بحيث أحاطت على جميع جوارحه.

(الثانية) كالأولى. إلا في إظهاره على اللسان، وهي دون الأولى، لكونها أقل أغصانا منها.

(الثالثة) أن يكون مستقرا في قلبه بحيث رأى نفسه خيرا من غيره، إلا أنه يجتهد في التواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه. وهذا وإن رسخت في قلبه شجرة الكبر، إلا أنه قطع أغصانها بالكلية. فإن كان مع ذلك منكرا على نفسه فيما رسخ فيها، ومغضبا علمها ومتشمرا لإزالتها، إلا أنه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة، وتميل النفس إلى ما تشتهيه في

---

(٨٦) المؤمنون، الآية: ٣٤.

(٨٧) الفرقان، الآية: ٢١.

بعض الأحيان بدون اختيار، ولكنه كان في مقام المجاهدة، فلعله لم يكن عليه كثير إثم، ومثله يوفقه الله للوصول إلى ما يطلبه بمقتضى وعده.

فصل

(علاج الكبر علما وعملا)

الكبر كالعجب في كيفية العلاج إجمالا وتفصيلا، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب – أي استعظام النفس – وكان العجب منشأ له، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضا. ولكن ما به الكبر – أعني بواعثه – هي بواعث العجب بعينها، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما.

ومن المعالجات المختصة بالكبر: أن يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار المذكورة وغيرها، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده أعني التواضع – كما يأتي. ولكون الكبر مشتملا على شئ زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير، فينبغي أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة، فلعل في الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيه. وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه. وكيف يجترئ صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير، مع إبهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب إلى الله تعالى، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له، فالواقف بخطر الخاتمة وإناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه مزية على غيره، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثرا من آثار ذاته ولمعة من لمعات أنوار صفاته، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده، لا ينظر إلى أحد بنظر السوء والعداوة، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة.

أشكال وصل

(فإن قيل): كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيرا من نفسه، مع ظهور جهله وفسقه، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما؟ وكيف يجوز له أن يحب فاسقا أو كافرا أو مبتدعا ويتواضع له ولا يعاديه، مع إنه مبغوض عند الله، فيكون مأمورا ببغضه والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين؟

(أجبنا) عن (الأول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة وغير ذلك، إذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالما بها وكون فلان العامي غير عالم بها. لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الآمرية إنما هو يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة، بل المناط فيه حسن الخاتمة، وهو أمر مبهم، إذ العواقب مطوية عن العباد، فيمكن أن يسلم الكافر ويختم له بالإيمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر، فعلى كل عبد إن رأى من هو شرا منه ظاهرا أن يقول: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا يراه شرا من نفسه في الواقع خائفا من العاقبة، ويقول: لعل بر هذا باطن، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، وبري ظاهر لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه. وبالجملة: ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد.

وعن (الثاني) إن الحب ينبغي أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق. وأي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد وبين عدم الكبر والإذلال؟! إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك، إذا أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر إلى نفسك، بألا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا في حال غضبك عليه لأمر الله، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه، وترى قدرك فوق قدره.

ومثال ذلك: أن نكون لملك غلام وولد، وقد وكل الملك الغلام على

ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به، فإن كان الغلام مطيعا محبا لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالا لأمر مولاه، ومع ذلك يحبه لانتسابه إلى مولاه بالولادة، ولا يتكبر عليه ويتواضع له، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام.

تذنيب

(العلاج العملي للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمي، وأما (العلاج العملي)، فهو أن يتواضع بالفعل ولسائر الخلق، ويواظب على أخلاق المتواضعين، ويكلف نفسه على ذلك إلى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر بأصولها وفروعها، ويصير التواضع ملكة له. وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها، فلا بد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها:

(الأول) أن يناظر مع أقرانه في بعض المسائل، فإذا ظهر شئ من الحق على لسانهم، فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها، من حيث أن قبول الحق يثقل عليها، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق وإطلاق اللسان بالثناء والشكر، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور، ويقول: ما أحسن فطانتك! لقد أرشدتني إلى الحق، فجزاك الله خيرا. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية، صار ذلك له طبعا، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، وإن لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ، فليس فيه كبر، بل فيه رياء، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء.

(الثاني) أن يقدم الأقران والأمثال على نفسه في المحافل، ويمشي خلفهم في الطرق، فإن لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع، وإلا فمتكبر، فليقدمهم بالتكلف، ويجلس تحتهم، ويظهر السرور والارتياح بذلك،

حتى يسقط عنه ثقله. قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: " إن من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه ". وقال (ع): " من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقا، ولا تحب أن تحمد على التقوى ". ومن المتكبرين من إذا لم يجد مكانا في الصدر يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم، وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو إيهام أن تركهم للصدر إنما هو بالتفضل، فهو أشد أنواع التكبر.

(الثالث) أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، ويجعل حاجتهم وحاجة نفسه منه إلى البيت، فإن لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء، وإن ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء، وإن ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر. قال أمير المؤمنين عليه السلام: " لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شئ إلى عياله ". وروي: " أنه اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقال له بعضهم: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا! أبو العيال أحق أن يحمل ". وروي: " أن الصادق عليه السلام: نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملته إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشئ ثم أحمله إليهم ".

(الرابع) أن يلبس ثيابا بذلة، فإن لم يثقل عليه ذلك أصلا فليس فيه كبر ورياء، وإلا كان متكبرا أو مرائيا، قال رسول الله (ص): " من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر ". وقال (ص): " إنما أنا عبد آكل في الأرض، والبس الصوف، واعقل البعير، والعق أصابعي، وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس مني ". وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوبا جديدا؟ فقال: " إنما أنا عبد، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا ": أشار به إلى العتق في الآخرة. وقال رسول الله (ص): " البذاذة - أي الدون من اللباس - من الإيمان ". وعوتب أمير المؤمنين عليه السلام في إزار مرقوع، فقال: " يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب ".

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلمانه، فإن لم يثقل عليه فهو متواضع وإلا فمتكبر. وروي رجل من أهل بلخ، قال: " كنت مع الرضا (ع) في سفره إلى خراسان، فدعا يوما بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك! لو عزلت لهؤلاء مائدة، قال عليه السلام إن الرب تعالى واحد، والدين واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال ".

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر، بل هي كثيرة:

كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: " من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام ". وقال بعض الصحابة: " لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ".

وأن يحب أن يمشي خلفه غيره، وقد روي " أنه لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه ". وكان رسول الله (ص) في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم.

وألا يزور غيره، وإن كان في زيارته فائدة دينية. وأن يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى. روي أنه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر، وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه. فأجلسه النبي (ص) إلى جنبه. وكان (ص) في نفر من أصحابه يأكلون في بينه. إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها، فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له: " أطعم "، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها. ومر سيد الساجدين عليه السلام على المجذومين (٨٨) وهو راكب حماره، وهم يتغدون، فدعوه إلى الغداء، فقال، " أما إني لولا أني صائم لفعلت " فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع، وأمر أن يتنوقوا فيه، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم.. وقس على هذه غيرها من الامتحانات.

ولقد كانت سيرة رسول الله (ص) جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع

---

(٨٨) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا: (المجذمين).

بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال والحركات، فينبغي لكل مؤمن أن يقتدي به. وقد روى أبو سعيد الخدري: " أنه (ص) كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيى، ويشتري الشئ من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله. يصافح الغني والفقير والصغير والكبير، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه، لا يستحيي من أن يجيب إذا دعي، وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه، وإن لم يجد إلا حشف الرقل (٨٩)، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء. هين المؤنة، لين الخلق كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساما من غير ضحك، محزونا من غير عبوس، شديدا في غير عنف، متواضعا في غير مذلة، جوادا من غير سرف، رحيما لكل ذي قربى، قريبا من كل ذمي ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق، لم يبسم قط من شبع، ولا يمد يده إلى طمع ". هذا
وقال أبو الحسن عليهما السلام: " التواضع: أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه ". وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعا، فقال: " التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس، والله يحب المحسنين ".

وصل

(التواضع ومدحه)

قد أشير إلى أن ضد الكبر (التواضع)، وهو انكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزية على الغير، وتلزمه أفعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر. ولا بد من الإشارة إلى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده، تحريكا للطالبين إلى السعي في تحصيله الموجب لإزالة ضده، وهذه الأخبار كثيرة خارجة

---

(٨٩) في إحياء العلوم - ج ٣ ص ٣٠٦ - هكذا: (الدقل) وكل من النسختين يصح به.

عن حد الاحصاء، فنكتفي بإيراد بعض منها:
قال رسول الله (ص): " ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ". وقال (ص): " طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة ".
وروي: " أن الله سبحانه أوحى إلى موسى: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي ". وقال رسول الله (ص) لأصحابه: " مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة! قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع ".
وقال (ص): " إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة ". وقال (ص): " إذا هدى الله عبدا الإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا، فذلك من صفوة الله ". وقال (ص): " أربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا ". وقال (ص): " ليعجبني أن يحمل الرجل الشئ في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ".
وقال (ص): " من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله، ومن أكثر ذكر الله أظله الله في جنته ". وروي " أنه أتى رسول الله (ص) ملك، فقال: إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبدا رسولا متواضعا أو ملكا رسولا. فنظر إلى جبرئيل عليه السلام وأومى بيده أنت تواضع، فقال: عبدا متواضعا رسولا، فقال الرسول يعني الملك -: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئا ". وقال عيسى بن مريم عليه السلام: " طوبى للمتواضعين في الدنيا! هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة. طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا! هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة ". وقال (ص): " إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله ". وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: " يا داود! كما إن أقرب الناس إلى الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون ". وروي: " أن سليمان بن داود إذا

أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيئ إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين ". وروي: " أنه ورد على أمير المؤمنين (ع) أخوان له مؤمنان، أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين أيديها. ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل، وجاء ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الإبريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب، وقال: وقال: يا أمير المؤمنين! الله يراني وأنت تصب على يدي! قال: اقعد واغسل، فإن الله - عز وجل - يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك. يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا. فقعد الرجل. وقال له علي عليه السلام: أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئنا كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية، وقال: يا بني! لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صب الأب على الأب فليصب الابن على الابن، فصب محمد بن الحنفية على الابن " (٩٠).

وقال الصادق عليه السلام: " التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب. والتواضع ما يكون لله وفي الله، وما سواه فكبر. ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده. ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين. قال الله عز وجل: " وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم " (٩١).

وأصل التواضع من إجلال الله وهيبته وعظمته. وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع. ولا يعرف ما في معنى حقيقة

---

(٩٠) روي هذا الحديث في البحار - في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص ١٤٩ باب التواضع - عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام. (٩١) الأعراف، الآية: ٤٦.

التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته، قال الله عز وجل:
" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (٩٢).
وقد أمر الله - عز وجل - أعز خلقه وسيد بريته محمدا (ص) بالتواضع، فقال عز وجل:
" واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " (٩٣).
والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للمتواضع في ذات الله تعالى (٩٤). وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري عليهم السلام:
" أعرف الناس بحقوق إخوانهم وأشدهم قضاء لهم أعظمهم عند الله شأنا، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي
تتميم
ابن أبي طالب عليه السلام حقا " (٩٥).
(الذلة)
لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان، فأحد طرفي التواضع (الكبر) - كما عرفت - وهو من طرف الإفراط، وآخرهما (الذلة) والتخاسس، وهو من طرف التفريط. فكما إن الكبر مذموم، فكذلك المذلة والتخاسس أيضا مذموم، إذ كلا طرفي الأمور ذميم، والمحمود: هو التواضع من دون الخروج إلى شئ من الطرفين، إذ أحب الأمور إلى الله أوسطها. وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، وهو العدل، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه، إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه، فالعالم إذا دخل عليه إسكاف فخلى له مجلسه وأجلسه فيه، وترك تعليمه وإفادته، وإذا قام عدا إلى الباب خلفه، فقد تخاسس وتذلل، وهو غير محمود،

----
(٩٢) الفرقان، الآية: ٦٣.
(٩٣) الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٩٤) روي هذا الحديث في البحار أيضا في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة.
(٩٥) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام.

بل هو رذيلة في طرف التفريط. فاللازم إذا وقع فيه أن يرفع نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم. فإن العدل أن يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته. فأما تواضعه للسوقي، فبالبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثال ذلك، وألا يرى نفسه خيرا منه، نظرا إلى خطر الخاتمة.

ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين، إذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب إضلال هذا المتكبر، وتقريره على تكبره، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر، إذا المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والإهانة من الناس، ولذا قال رسول الله (ص): " إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار ".

ومنها:

الافتخار

أي المباهاة باللسان بما توهمه كمالا، والغالب كون المباهاة بالأمور الخارجة عن ذاته، وهو بعض أصناف التكبر - كما أشير إليه - فكل ما ورد في ذمة يدل على ذمه، والأسباب الباعثة عليه هي أسباب التكبر. وقد تقدم أن شيئا منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة. قال سيد الساجدين (ع): " عجبا للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم (هو) (٩٦) غدا جيفة ". وقال الباقر (ع): " عجبا للمختال الفخور، وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به ". وقال (ع): " صعد رسول الله (ص) المنبر يوم فتح مكة، فقال: أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم وآدم من طين، ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه ".

وقال له (ع) عقبة بن بشير الأسدي: أنا في الحسب الضخم عزيز في قومي، فقال له: " تمن علينا بحسبك! إن الله تعالى رفع بالأيمان من كان الناس يسمعونه وضيعا إذا كان مؤمنا، ووضع بالكفر من كان الناس يسمعونه

---

(٩٦) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو).

شريفا إذا كان كافرا. فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله ". وقال الصادق (ع): " قال رسول الله (ص): آفة الحسب الافتخار والعجب ". وقال (ع): " أتى رسول الله (ص) رجل، فقال: يا رسول الله! أنا فلان بن فلان... حتى عد تسعة، فقال رسول الله: أما إنك عاشرهم في النار! ". ونقل: أن قريشا تفاخروا عند سلمان، فقال: " لكني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم إلى الميزان، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم ". ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول.

ومنها:

البغي

ويسمى البذخ أيضا، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب أن ينقاد (له)، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له)، أو في ضمن أحد أفعال الكبر، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير. وعلى أي تقدير هو أفحش أنواع الكبر، إذ عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) - كالأنبياء وأوصيائهم - يؤدي إلى الكفر الموجب للهلاك الأبدي. ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم. وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة، ولذا ورد في ذمه ما ورد، قال رسول الله (ص): " إن أعجل الشر عقوبة البغي ". وقال (ص): " حق على الله عز وجل ألا يبغي شئ على شئ إلا أذله الله، ولو أن جبلا بغى على جبل لهد الله الباغي منهما ". وقال أمير المؤمنين (ع): " أيها الناس! إن البغي يقود أصحابه إلى النار، وإن أول من بغى على الله عناق بنت آدم، وأول قتيل قتله الله عناق، وكان مجلسها جريبا في جريب، وكان لها عشرون أصبعا في كل إصبع ظفران مثل المنجلين، فسلط الله عليها أسدا كالفيل، وذئبا كالبعير، ونسرا كالبغل، فقتلنها. وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل أحوالهم وأمن ما كانوا ". وقال الصادق (ع): " يقول إبليس لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك ". وكتب (ع) إلى بعض أصحابه: " انظر ألا تكلمن بكلمة بغي أبدا، وإن

أعجبتك نفسك وعشيرتك ".
وعلاجه: أن يتذكر - أولا - هذه الأخبار الواردة في ذمه، و - ثانيا - ما ورد في مدح ضده - أعني التسليم والانقياد لمن يلزم إطاعته وتابعيته - كقولهم عليهم السلام: " شيعتنا المسلمون ". والآيات والأخبار الواردة في وجوب إطاعة الله وإطاعة النبي (ص) وأولي الأمر، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأئمة في زمن الغيبة. وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والإطاعة لمن يجب أن يطاع، ويتخضع له قولا وفعلا، حتى يصير ذلك له ملكة.

ومنها:

تزكية النفس

أي نفي النقائص عنها، وإثبات الكمالات لها. وهو من نتائج العجب. وقبحه أظهر من أن يخفى، إذ من عرف حقيقة الإمكان، ثم أطلع على خلق الإنسان، يعلم أنه عين القصور والنقصان، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان. على أنه يتضمن بخصوصه قبحا يشهد به الذوق والوجدان، والوجدان، ولذا قال أمير المؤمنين (ع): " تزكية المرء لنفسه قبيحة ". وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الإنسان وخساسته.

ثم ضد التزكية عدم تبرئة من العيوب والاقرار بها وإثبات النقائص لها، فإذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية، يصير معتادا له، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه.

ومنها:

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله إليه نسبة: من الدين، والأقارب والعشائر، وأهل البلد، قولا أو فعلا: فإن كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الإنصاف والوقوع في ما لا يجوز شرعا، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من من فضائل قوة الغضب - كما مر -. وإن كان مما يلزم حمايته، أو كانت حمايته بالباطل، بأن يخرج عن الإنصاف وارتكب ما يحرم شرعا، فهو

التعصب المذموم، وهو من رداءة قوة الغضب. وإلى ذلك يشير كلام سيد الساجدين (ع) حيث سئل عن العصبية، فقال: " العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم ".

والغالب إطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم، ولذا ورد بها الذم، كقول النبي (ص): " من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه ". وقوله (ص): " من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية ". وقال السجاد (ع): " لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم عصبا للنبي (ص) في حديث السلى الذي ألقي على النبي (ص). وقال الصادق (ع): " إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم، وكان في علم الله أنه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين (٩٧).

ومنها:

كتمان الحق

والانحراف عنه، وباعثه إما العصبية أو الجبن، فهو من نتائج واحدة منهما، فعلم (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الإفراط، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط. وربما كان الباعث في بعض أفراده الطمع المالي، إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب، كما في نفس الغضب وغيره، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق. ويندرج تحته الميل في الحكم، وكتمان الشهادة، وشهادة الزور، وتصديق المبطل، وتكذيب المحق، وغير ذلك.

والظواهر الدالة على ذمه مطلقا، وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. وعلاج العصبية وكتمان الحق: أن يتذكر - أولا - إيجابهما لسخط الله ومقته، وربما تأديا إلى

---

(٩٧) الأعراف، الآية: ١٢. ص، الآية: ٧٦.

الكفر، و - ثانيا - فوائد ضدهما، أعني الإنصاف والاستقامة على الحق. وبعد ذلك يكلف نفسه على إظهار ما هو الحق والعمل به، ولو بالمشقة الشديدة، إلى أن يصير ذلك عادة له، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق.

وصل

(الإنصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الإنصاف والاستقامة على الحق، فلنشر إلى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبين إلى الأخذ بهما، قال رسول الله (ص): " لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الاقتار، والإنصاف من نفسه، وبذل السلام ". وكان (ص) يقول في آخر خطبته: " طوبى لمن طاب خلقه، وطهرت سجيته، وصلحت سريرته وحسنت علانيته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، وأنصف الناس من نفسه " وقال (ص): سيد الأعمال إنصاف الناس من نفسك.. " إلى آخره. وقال (ص): " من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقا ". وقال (ص) " ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله: رجل أعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم... " الحديث. وقال أمير المؤمنين (ع) في كلام له: " ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله إلا عزا ". وقال الصادق (ع) " من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة: أنفق ولا تخف فقرا، وافش السلام في العالم، واترك المراء وإن كنت محقا، وأنصف الناس من نفسك ". وقال (ع): " ألا أخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه "، فذكر ثلاثة أشياء أولها: (إنصاف الناس من نفسك). وقال (ع): " من أنصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره ". وقال (ع): " ما تدارى اثنان في أمر قط فأعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه ". وقال (ع): " ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة،

ورجل قال بالحق فيما له وعليه ". وقال (ع): " إن لله جنة لا تدخلها إلا ثلاثة، أحدهم من حكم في نفسه بالحق " (٩٨).

ومنها:

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم أبناء النوع. ولا ريب في كونه ناشئا من غلبة السبعية، وأكثر ذمائم الصفات: من الظلم والإيذاء، وعدم إغاثة المظلومين، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه. وضده الرحمة والرقة، وهو التأثر عن مشاهدة تألم أبناء نوعه، ويترتب عليه من الصفات المرضية أضداد ما ذكر. وقد ورد به المدح والترغيب في الأخبار الكثيرة، كقول النبي (ص): " يقول الله تعالى: أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، فإني جعلت فيهم رحمتي. ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإني جعلت فيهم سخطي ". وكقول الصادق (ع): " اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين... ". وقوله (ص): " تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا أخوة بررة كما أمركم الله ". وقوله (ع): " يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل: رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله (ص).

وقد ورد: إن من ترحم على العباد يرحمه الله. والأخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته: من إعانة المحتاج، وإغاثة المظلوم، ومواساة الفقير، والاغتمام بمصائب المؤمنين، وأمثال ذلك، أكثر من أن تحصى.

ثم إن إزالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الإشكال، إذ القساوة صفة راسخة في القب لا يقدر على تركها بسهولة، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية.

---

(٩٨) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الإنصاف والعدل عن الباقر (ع).